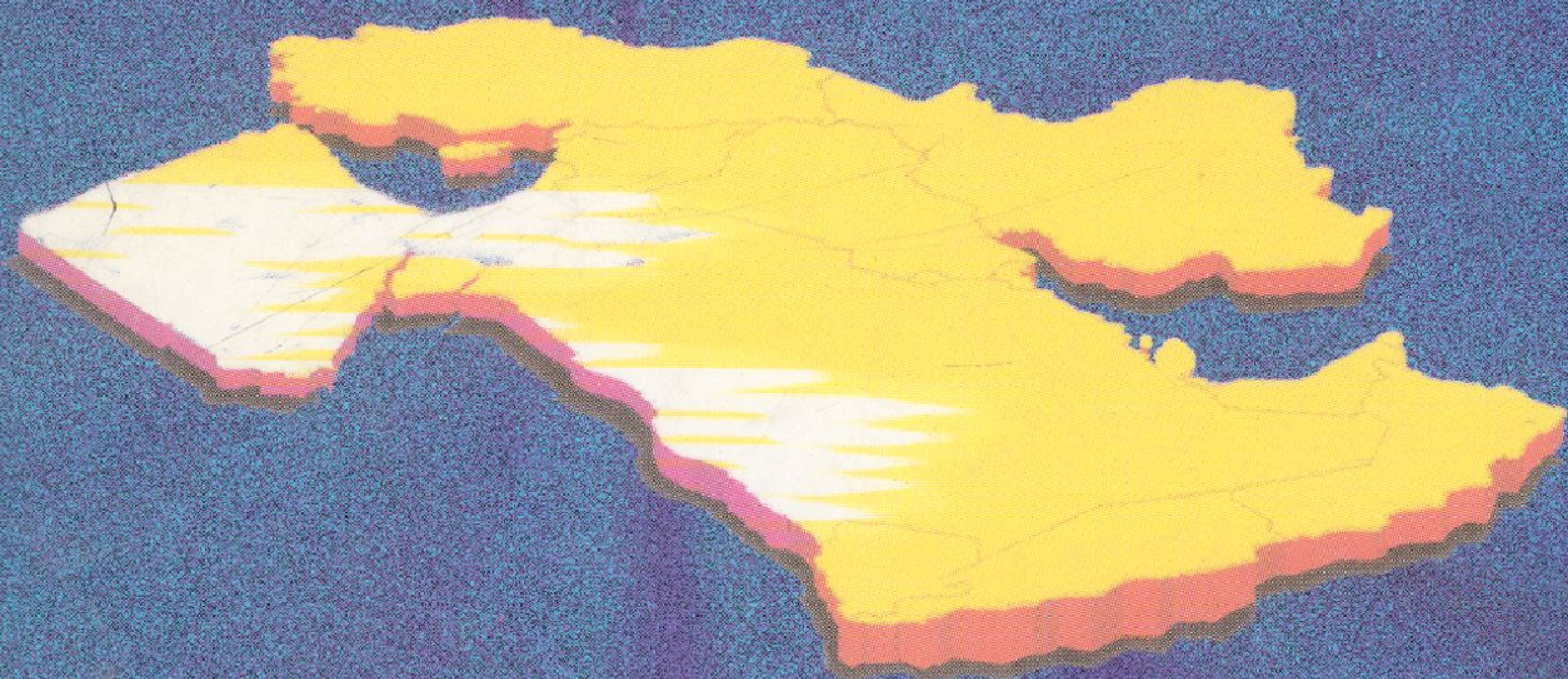
العودة إلى سيناء

تأليف

اللواء د.ك. باليت

ترجمة: محمد شفيق زيد





مكتبة مدبولي

العـــودة إلى سينـــاء

العودة إلى سيناء

تأليـــف

اللواء د. ك. باليت

المترجم

محمد شفيق زيد

الكتاب : العودة إلى سيناء
تأليف : اللواء د. ك. باليت
المترجم : محمد شفيق زيد
الطبعة : الأولى ١٩٩٧
الناشر : مكتبة مدبولي ـ ٦ ميدان طلعت حرب القاهرة
ت: ٥٧٥٦٤٢١ ـ تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤
رقم الإيداع : ٩٧/٩٢٩٧
الترقيم الدولي : ISBN 977 - 208 - 218 - 7
الجمع التصويري دار جهاد ٢٦ ش اسماعيل أباظة - لاظوغلي
والتنسيق الداخلي : ت: ٣٥٦٤٧٨٣

محتويات الكتاب

قائمة الخرائط والاسكتشات

قائمة الصور التوضيحية

« بسرعة رفرف العلم المصرى فوق صارى غرس فى الرمال»

«إشارة النجاح تم تلقيها فى الجانب الغربى»

«دحرجوا على السفح سلالم الحبال للآخرين»

معابر A.P.M.P. عبر قناة السويس

«الصرح بكامله .. يشبه هرما قزما طارت قمته..»

– ضابط مصرى يتقبل استسلام موقع بور توفيق من القائد الإسرائيلى.

– مجموعة من الإسرائيليين الأسرى.. على الضفة الشرقية.

– الفريق إسماعيل يشرح للرئيس السادات فى غرفة العمليات تحت الأرض = الفريق الشاذلى على يمين الرئيس.

– الرئيس السورى .. حافظ الأسد.

– الملك حسين – الأردن ، ورئيس أركانه اللواء شاكر.

– الفدائيون السوريون يحتلون قلعة جبل الشيخ «جبل هرمون».

– صارى فوق هضبة الجولان.

– حطام الحرب

– الفدائيون المصريون يقومون بعملية اقتحام فى خليج السويس.

مقدمة

لم يحدث في أى مما كتب عن الحروب العربية الإسرائيلية خلال الخمس والعشرين سنة الأخيرة، أن كان السرد بشكل مقنع. فالعرب أنفسهم لم يتحدثوا أو يكتبوا عن هذه الحروب ، لأن من المفهوم أن لا أحد ينشر سقطاته، فالجيوش العربية لم تخرج سليمة من هذه الجولات. فى ١٩٤٨ ، ومع قيام فيلق الدفاع عن القدس، أوالدفاع المصرى عن جيب الفالوجا - حيث عرف صاغ يدعى جمال عبدالناصر نفسه - بتمثيلية رفع الحصار، فقد فشلت القوات العربية فى مهامها، بينما أنهتها دولة إسرائيل الوليدة بمكاسب حقيقية.

وفى ١٩٥٦ سحق التحالف الفرنسى البريطانى الإسرائيلى القوات المصرية فى بداية الحرب، ورغم ذلك، فلم يكن نصرا مجيدا يمكنهم التفاخر به.

أما فى ١٩٦٧ ، فقد سارت الأمور بشكل خاطىء من البداية بالنسبة للمصريين والسوريين، فكانت الهزيمة العربية على يد إسرائيل كاملة.

الإسرائيليون وحلفاؤهم فى العالم الغربى نشروا العديد من الكتب والموضوعات التى تمجد الانتصارات الإسرائيلية دون حرج من المبالغات، ولم يكتفوا بذلك، بل ولسنوات قريبة، وبالتضامن، توالت الحملات مستهدفة فيه تحقير العرب، والتركيز علي افتقارهم للروح القتالية. وقد بدالى، أن هذه هى الفرصة المناسبة لأقدم تصحيحا لكثير من الأطروحات السابقة، ولأقدم صورة أكثر توازنا، سواء عند التمهيد وأثناء المسار لحرب أكتوبر ١٩٧٣ .

كنت ملحقا عسكريا بسفارة الهند بالقاهرة عام ١٩٤٩ ، ومفوضا بالأردن وسوريا ولبنان. وبهذه الإمكانية زرت القوات المسلحة فى هذه الدول بعد حرب ١٩٤٨ ، واستطعت أن أقيمّ لنفسى الغرض من هذه العمليات. حتى بعد انتهاء مدتى فى القاهرة، احتفظت بصلاتى مع أصدقاء وزملاء فى العالم العربى، وقابلت ضابط الاتصال المصرى فى قطاع غزة بعد حرب ١٩٥٦ . ومنذ ١٩٦٧ تكررت زياراتى لمصر

والعراق ولبنان لإلقاء محاضرات لطلبة كلياتهم ومعاهدهم العسكرية. نتيجة لذلك، أصبحت قادرا على المتابعة والتفهم للمشاكل العسكرية التى واجهها العرب ومصر على وجه الخصوص، والتطورات الاستراتيجية: حرب الاستنزاف، دور الفدائيين الفلسطينيين، والتورط الروسى المحبط فى سنوات اللاحرب - واللاسلم...!

فى نوفمبر ١٩٧٣، أثناء إعدادى لزيارة أخرى لغرب آسيا، لكتابة كتاب عن الهجوم العربى، أراد معهد الدراسات والتحليلات الدفاعية، نشر وجهة نظر الهند فى الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٧٣، فعرض رعاية زيارتى - منحة قبلتها فورا وبامتنان.

فى ديسمبر ١٩٧٣ زرت الكويت، بغداد، بيروت، القاهرة، عمان، ودمشق، لعمل دراسة مبدئية عسكرية للحرب، وبينما - فى مصر - كنت قادرا على زيارة رأس الجسر على الضفة الشرقية، والاتصال بقيادة الجيش المصرى، والقيادة المشتركة، وغيرها، ففى العراق وسوريا والأردن، كانت أبحاثى محصورة فى دوائر غير رسمية. هذا وفى الوقت الذى لقيت فيه كل الترحيب والمساعدة من سفرائنا وملحقينا العسكريين، فلم تسفر عن شىء ذى قيمة..!

عودة إلى سيناء، تعد تقديما لحرب ١٩٧٣ من وجهة النظر الهندية، والأمل أن يكون هذا الاقتراب غير المتعاطف لم يفتقر إلى الموضوعية. ورغم أن تفاصيل العمليات تم الحصول عليها من مصادر عربية، إلا أن العمل ككل استند إلى الإعلام الدولى الذى لم ينحاز للعرب.

من سوء الحظ، أن تقدمت إلى السلطات العسكرية الاسرائيلية للسماح لى بزيارة قوات الدفاع الإسرائيلية؛ القيادة العامة فى تل أبيب بمتابعتها لأبحاثى لم تتجاوب معى؛ عموما ... استطعت استخدام معلومات اسرائيلية، وعلى وجه الخصوص، عملية الجنرال شارون الهجومية عبر القناة فى الدفرسوار، كما اقتبست إلى حد ما من بيانات الجنرال ديان لرؤساء التحرير فى إسرائيل - ١٩ أكتوبر- التى نشرت فى فبراير ١٩٧٤.

الغرض من هذا العمل، مرتبط أساسا بدراسة الحملة العسكرية. الأسباب السياسية

والاستراتيجية التى أدت بالرئيس السادات لاتخاذ قرار الحرب تمت مناقشتها، أما تفاصيل التطورات السياسية، مثل تحركات القوى العظمى، والاستراتيجية البترولية العربية، كان التعامل معها على أساس أنها تتطابق مع الغرض من الحرب.

خلال الصراع، كانت دعاوى المتحاربين شديدة التعارض، غالبا، وبالذات خلال الأسبوع الأول من الصراع. أرقام الخسائر مبالغ فيها، وبالأخص دبابات وطائرات الأعداء - مع أن البيانات المصرية كما توضح فى السرد، فامت على البلاغات الرئيسية ولم يقصد بها التعمد الدعائى.

مع ذلك فالبيانات المصرية عن خسائر الطيران ثبتت المغالاة فيها: لذلك كتب حريصا فى تجنب ربط التحقيق فى المعركة على هذه الأرقام؛ فحيث ذكرت أرقام، أوضحت أنها دعائية وليست حقائق مقبولة. لم يكن ذلك مقصوراً على ادعاءات العرب وإسرائيل غير الفعلية، بل تقارير الأنشطة الخلفية للقوى العظمى جعلت من الصعوبة للصحافة الدوليه أن تكون إيجابية. فهناك دائما المعادى للروس فى التغطية وبالطبيعة تحارب ضد العرب. مثال، فى بداية الحرب تضخم حجم الدعم المادى للعرب من الاتحاد السوفيتى - إعلاميا؛ ولم يعلن أبدا عن حقيقة الدعم الأمريكى المحمول جوّا لإسرائيل، والذى فاق الدعم الروسى لمصر وسوريا. وطبقا لما نشر بمجلة الطيران الأسبوعية Ariation Week عدد ١٠ ديسمبر ١٩٧٣ - بلغت رحلات النقل الجوى الأمريكى ٥٦٦ رحلة حملت ٢٢٣٩٥ طنا من المواد والمعدات، بينما بلغت الحمولات الروسية ١٥٠٠٠ طن فى ٩٣٤ رحلة!

وعلى نفس المنوال، المبادرة التى استغلتها إسرائيل لتوجيه ضربة قاضية للجيش الثالث المصرى، قامت الصحافة الدولية بافتعال موجة صاخبة حول تقارير وهمية باستعداد فرق عسكرية روسية - ٧ فرق محمولة جوا - للطيران إلى مصر للاشتراك فى العمليات؛ الأمر الذى أعطى انطباعا بأن مصر قد ضربت وأصبح ظهرها إلى الحائط، ولم ينقذها من انتصار إسرائيل سوى تدخل إحدى القوى العظمى..! حتى الجنرال شارون كان متحفظا فى ادعاءاته!.

أى مراسل حربى زار منطقة القناة، سيوافق على أن الجيش المصرى أبعد ما يكون

عن الهزيمة؛ القوات التى تسيطر على المواقع الأمامية الآن روحها المعنوية عالية. هناك وشائج جديدة تربط بين الضباط والجنود لم تكن موجودة من قبل، حيث تولد الشعور بالثقة بالنفس بازدياد المعرفة بحقيقة العدو فى النهاية، والدليل على ذلك فى الانضباط التلقائى فى التصرف أثناء الحراسة أو تدريبات التمويه، فى التقاطر أو تقنين المياه، وفى العناية بالتسليح الشخصى. فى كل شىء علامات كافية عن ما وصلت إليه الصحوة العسكرية التى حولت الجيش المقهور سابقا، إلى قوة مقاتلة ذيلها منتصب فى الهواء..!

يجب أن أسجل شكرى للسلطات المصرية؛ ليس فقط للسماح لى بدخول المناطق المتقدمة، بل للسماح لى بلقاء ضباط ورجال، وأن أسأل بحرية، دون التقيد بالبروتوكول ودواعى الأمن التى قد تحد من حركتى.

كما أخص بالشكر الفريق حسن البدرى؛ صديق عزيز يشغل منصب مدير جهاز أكاديمية ناصر العسكرية، وممثل الجيش لدي معهد الدراسات الاستراتيجية - بمبنى الأهرام بالقاهرة - لسماحته لقضاء ساعات من وقته الثمين لشروحه بمكتبه. كما أننى مدين لكثير من الأصدقاء فى بغداد وبيروت ودمشق، سواء كانوا فى الخدمة أو تقاعدوا، والذين ساعدونى فى بحثى، وأبادر بتسجيل أن ما قدموه لى لايعدو الحقيقة.. النتائج والنقد خاصة بى..

لـــواء

د. ر. بيـــلات

باللـــويبور، وهـــــــراون...

١٥ مـارس ١٩٧٤

الفصل الأول

تمهيد للجولة الرابعة

في ١٤أكتوبر ١٩٧٣ ، وبعد أن مكث الجنرال شارون ٧أيام قابضاً بنواجذه على رقعة الرمل في سيناء، أحس بتراخي القيود التي كبلته لمثل هذه المدة الطويلة، فقد أفاقت القيادة العليا الإسرائيلية بقدر كاف من النكسات الأولى، لكي تطلق هذا القائد الجموح ليتخذ طريقه جنوب القناة، وبإطلاق العملية «غزال»، قام شارون بواحدة من أكبر العمليات جرأة على مدى التاريخ العسكرى، وبالرجوع إلى الوراء ،و تقدير الموقف، يتضح أن هذه المغامرة تجاوزت التعريف الذى طرح آنذاك بأنها مخاطرة محسوبة، وأن هذه العملية بالكادناجحة. فالواقع أن الهجوم المضاد الذى قام به الجيش الثانى على الضفة الشرقية، فصله تقريبا عن موقع عبوره، فضلا عن أن برنامجه المخطط، تأخر لأكثر من ٢٤ساعة عن ميعاده المحدد، كما أن التحركات المصرية المضادة الحثيثة للقوات الإحتياطية على الضفة الغربية، دفعت القوة المحدودة التى شكلت رأس جسر شارون إلى الهرب إلى غابة النخيل فى منطقة الدفرسوار. كل هذا قد يكون صحيحاً،لكنه خارج الموضوع، إذ تبقى حقيقة أنه نفذ العملية، وبذلك طبق أسلوبا فى الحرب أصبح يمثل طابعا اسرائيليا، مبنيا، على الخبرات المكتسبة من ثلاث جولات فى الحرب العربية الإسرائيلية المستمرة. وهل هناك. من وجهة نظر عسكريةخالصة – من يمكن أن يزعم بأن هذا الأسلوب غير ملائم..؟

فى الجولة الأولى: حملة١٩٤٧/٤٨ ، دويلة ناشئة، من لاجئين يهود مهاجرين هوجمت بواسطة جيوش مصر والأردن وسوريا والعراق ولبنان، وبمعجزة ودهاء وتصميم ومناورة عسكرية..لم تحافظ على تماكسها فقط، بل استغلت نقاط الضعف ونقص التنسيق العربى والثقة المفتقدة بين هذه الدول، و تمكنت.. ليس فقط من منعهم من التقدم، بل التوسع بأبعد من المناطق الممنوحة لها طبقا لخطة التقسيم التى قررتها الأمم المتحدة. وبعد ثمان سنوات، والتواطؤ مع فرنسا وانجلترا ،طاردت قواتها الجيش المصرى إلى خارج سيناء، وفى ١٩٦٧تكرر هذا المشهد، وهذه المرةكان التصرف بمفردها تماما. نتيجة لهذه التجارب ،برز أسلوب عسكرى إسرائيلى مميز، مبنى عل المبادرة والهجوم وخفة الحركة والتحول المنضبط للقوات للتغلب على

العقبات الجغرافية والديموغرافية، فضلا عن الغرور الناجم عن احتقار الخصوم. والأكثر من ذلك... برزت سمة مميزة للإستراتيجية الإسرائيلية، تقوم على سياسة لا تستهدف حل النزاع، بل إذكائه، لأن الحل سوف يقتضي منها تقديم تنازلات والتخلي عن المكاسب الإقليمية التي حققتها. وصارت العقيدة السياسية/ العسكرية الإسرائيلية تتخذ من العمل الهجومي منهجا لها وتعطي الأولوية للتوسع الإقليمي في مواجهة بيئة «مستسلمةش»، وتعتبر أن أي غبن يقع على العرب لا وزن له...!. وكلتا الحملتين ١٩٥٦، ١٩٦٧ وضعتا على أساس هذه الاستراتيجية التوسعية، ولكن في ١٩٥٦ ،خسرت إسرائيل ثمار عدوانها بسبب موقف الرئيس ايزنهاور.أما في ١٩٦٧، فقد تغير المناخ الأمريكي، وسمح لإسرائيل، بل وشجعت على إستمرار إحتلالها للمناطق العربية التي وفرت - طبقا للإستراتيجية الإسرائيلية - حدودا آمنة لإسرائيل الكبرى.. قناةالسويس في الجنوب، نهرالليطاني وجبل الدروز في الشمال، ونهر الأردن من الشرق.ولقد بلغ الأمر بالإسرائيليين أن استبعدوا أن يكون بوسع العرب أيضا أن يستفيدوا من تجاربهم، ويطوروا أسلوب قتالهم. إن انتصارهم السهل في حرب الأيام الستة، أكد إفتراضاتهم باستمرار فرقة العرب، وتدني قدراتهم العسكرية. وحتى حرب الاستنزاف ١٩٦٩/ ٧٠،فشلت في جعل القيادة العليا الإسرائيلية،تدرك أن هناك إستراتيجية عربية، تستخدم معارك صغيرة محسوبة، قد تمثل تهديدا لإسرائيل الكبرى، فخط بارليف وتحصينات الجولان، فيهما الأمان الكافي. فليس في الحسبان أية صحوة عسكرية عربية، ولقد كلفهم هذا الغرور ثمنا باهظا. وانتهت الحرب العربية الإسرائيلية بعلمية الأختراق الدرامية،التي قام بها الجنرال شارون، وجرد بها القوات المصرية من جانب كبير من الميزة الإستراتيجية التي اكتسبتها نتيجة المبادرة الأصلية بإقامة رأس جسر إلى سيناء. وعلى الجبهة الشمالية أيضا، تراجعت القوات السورية، وأنتهت الحرب باكتساب الإسرائيليين المزيد من الأراضي. على كل حال ، إن تقييم نتائج هذا الصراع بمجرد تخطيط رسم بياني للمناطق المكتسبة والخاسرة، قد يحيد عن الهدف، لأنه ليس هكذا يمكن قياس الحجم الكامل للإنجاز العربي، بل بمقارنته بالانهيار تبعا لأحداث ١٩٦٧، حيث همت إسرائيل بإرساء تفوق عسكري تكنولوجي نهائي على جيرانها

العرب، وأطلقت حملات دعائية عنصرية، تحط من شأن الشعوب العربية، وتعلن السيادة العنصرية الإسرائيلية. كان نصر١٩٦٧ الإسرائيلي،نقطة تحول في الشئون العربية - الإسرائيلية، غيرت أوضاع غرب آسيا بشكل واضح، ولأسباب أخرى عديدة لا تتعلق بالهزيمة العربية. أولها وأكثرها أهمية، هو التحول في السلوك في المجتمع اليهودى في أمريكا تجاه إسرائيل، من إهتمام ضئيل، وهجرة تقل وتحويلات مالية على شكل تبرعات متضائلة، تحولت اليهودية الأمريكية إلى كشف مفاجئ عن إرتباطها بإسرائيل. كان هناك تفجرملحوظ في رد الفعل بالمجتمعات اليهودية لبذل الجهد بالضغط المستمر على الإدارة في واشنطن وعلى الكونجرس لتقديم مساعدات كاملة وغير مشروطة لإسرائيل.

الالتزام الأمريكي الجاهز والكامل للصهيونية، يأتي في نقص الفهم لشعوب الشرق الأوسط، ومن كثافة الدعاية الإسرائيلية. فالولايات المتحدة لم تنتج- مثلما فعلت الدول الغربية- لورنس أو دوجتى أوبلنت أو جال بيرك، الذين شكلوا المواقف الأوروبية تجاه الشعب العربي وقضاياه. هكذا.. أثناء السنوات التى تلت الحرب العالمية الأولى، عنما جمعت الحركة الصهيونية قواها، وركزت جهودها على مشكلة إعادة توطين اليهود في فلسطين،كما أن هناك نقصا في أمريكا،في كيفية فهم العرب، لأن العرب لم يشغلوا سوى القليل في العقل الأمريكي، فكان من السهل على الدعاية الصهيونية بكل صخبها وصوتها المؤثر في شمال القارة الأمريكية، أن تغرس في هذا الفراغ صورة تحط من شأن العرب وأهدافهم. وكمفهوم ثابت في التصور الأمريكي. تقلص العرب إلى نماذج لمجموعة غير معقولة، تناصب شعبا - قاسى لمدة طويلة،والذى أدين بشكل فاضح خلال الحرب العالمية الثانية - العداء.

أثناء وبعد حرب ١٩٦٧ ،صور العرب بشكل محبط كهستيريين، شعب مهمل، فار من أرض المعركة، في الوقت الذى كانت الصور الصحفية الإسرائيلية تبرزهم دائما أبطالا صناديدا، أبطال نصر صحراوى ساحق. الدعايات تحض الشعب الأمريكي على إقامة مسيرات لصالح إسرائيل عند الحاجة، ونشرها في الصحف الأمريكية حتي بعد أن أندفع الجيش الإسرائيلي في تثبيت إحتلاله غير القانوني لقطاعات كبيرة من الأرض العربية.

المجتمع اليهودى، ولو أنه لايزيد عن ٣٪ من حجم الناخبين الأمريكيين، إلا أنه

الممول للحملة الانتخابية للحزبين الرئيسيين فى أمريكا بنسبة من ٢٥إلى ٣٠٪ من الانفاق الكلى، ويركز بالأخص على الولايات الرئيسية فى: نيويورك، نيوجرسى، الينوى كاليفورنيا..تلك التى تحتوى على أكبر عدد من الأصوات فى الانتخابات الرئاسية. إذن فنفوذها على السياسة الأمريكية ملموس. ومنذ عام ١٩٦٠، لم يكن هناك بطل قومى أمريكى على المسرح السياسى بقدرة ايزنهاور،الذى كان قادرا على تحدى الصوت اليهودى فى ١٩٥٦، وأدان الحملات العقابية فى سيناء، وأجبر إسرائيل على إخلاء الأراضى العربية التى احتلتها ،بالرغم من إعلانهم اعتزام الحفاظ على جزء على الأقل من انتصاراتهم. فى عام ١٩٧٢، خضع الرئيس نيكسون والسيناتور ماكجفرن للضغط الصهيونى. بل والتنافس فى تقديم الدعم الكامل لإسرائيل. نتيجة لذلك. صارت المسزمائير قادرة على رفض كل مقترحات الخارجية، على سبيل المثال «مبادرة روجرز» لفرض حل متكافئ للصراع فى غرب آسيا. أى أمل فى أن يقل هذا الالتزام فى الفترة الثانية لرئاسة نيكسون، أمر سابق لأوانه، لإرتباطه بتغير سياسة البيت الأبيض نفسه.

الأختراق السوفيتى لغرب آسيا،قدم عنصر جديدا للفكر الاستراتيجى الأمريكى، فالآن يدور التساؤل: هل اتباع سياسة تتوخى الصداقة العربية، بينما استمرار الإحتلال الإسرائيلى الصديق لسيناء ،هو ما يخدم أستراتيجية السياسة الأمريكية فى البحر المتوسط وغرب آسيا.. تلاحق الدعم السياسى والعسكرى لإسرائيل من الولايات المتحدة، وطد العلاقة بين البلدين، حتى تجاوزت حدود التحالف.فقط على هذه الأسس،صارت إسرائيل- بكل النوايا والأهداف- الولاية الواحدة والخمسين فى الاتحاد، وهذا يفسر المدد الأمريكى لإسرائيل بأحدث الأسلحة الحربية والتكنولوجيا المتقدمة، تدريب الطيارين وتوثق التعاون المخابراتى بين البلدين. تدريجيا، صارت إسرائيل مكتملة عسكريا وصناعيا وماليا، بواسطة أكبر قوة فى العالم، الأمر الذى يخالف شكل العلاقة بين مصر وسوريا وبين الإتحاد السوفيتى. أكثر الأدوار قبحا تدوولت بين دافيد وجوليات.

منذ يونيو ١٩٦٧، عبر عن هذه العلاقة الوطيدة بالولايات المتحدة ،تنامى الغرور والوحشية اللذين مارستهما إسرائيل فى التعامل مع الجيران العرب.

انهيار الجيوش العربية فى ١٩٦٧، دفع إلى المقدمة بالمسألة الفلسطينية وفدائييها .

فى البداية، حاول القادة الإسرائيليون معالجة هذه المشكلة بتوجيه غارات انتقامية عبر خطوط الهدنة ،موجهة إلى الفدائيين أنفسهم .كانت أولها « الكرامة» فى مارس ١٩٦٨ . وبتشجيع الدعم التكتيكى من أمريكا.. أمتدت الغارات مستهدفة البلاد التى ينطلق منها الفدائيون، مستهينين علنا بالقانون الدولى، وغير عابئين بشكل فاضح باللوم الصادر من الجميعة العامة للأمم المتحدة. وبكل أسف ، بتفسخ العرب، نجحت هذه السياسة ،حتى أجبرت بعض الدول العربية على القيام بتحركات ضد الفلسطينين، ليس بالحد من تحركاتهم فقط، بل بشن غارات منظمة لتدمير معسكرات اللاجئين ، مثلما حدث فى الأردن ولبنان. التوسع فى هذه السياسة المدعومة من الولايات المتحدة،كشف النقاب عنه بتهديد الأخيرة. أمريكا.لسوريا بغزوها عسكريا خلال أزمة خريف ١٩٧٠ ، عندما قررت سوريا دعم الفدائيين. دفعت أمريكا، بذلك،الأمور بما قد يترتب عليه اندلاع حرب عالمية ثالثة.بهذا كانت إسرائيل قادرة. استنادا على تفوقها التكنولوجى العسكرى على فرض سياسة قمعية بضربات وقائية ضد الدول العربية المعنية. فى نوفمبر ١٩٦٨ ، أغارت طائرات الهيلوكبتر فى العمق المصرى، وفجرت أجزاء من خزان نجع حمادى، ودمرت منشئات الطاقة بالمنطقة. الغارات الجوية على منطقة القناة ، هجوم الفانتوم على المصانع فى دلتا النيل، وغارة الفدائيين على الزعفرانة، حيث رفعت محطة رادار كاملة بالهيلكوبتر إلى إسرائيل، والعملية الفذة بمطاردة الفدائيين فى قلب بيروت فى ربيع ١٩٧٣ . وبعيدا عن الكفاءة العسكرية الجامحة ، الدالة على المستوى الرفيع لتكنولوجيا المجتمع الإسرائيلى، فالنتائج المباشرة توضح مدى الترابط بين الولاية الصهيونية وبين الولايات المتحدة الأمريكية. مسايرة لهذه العمليات العسكرية الإجهاضية القاسية، تأتى الحملات الدعائية الجديدة، التى تصور العرب كمتخلفين وغير متحدين، متدنيى الثقافة وبدائيين..حتى فى حماية مصالحهم ، وهى مبررات لانتزاع أراضيهم لصالح «حضارات أكثر تفوقا»،كما أن نبراتها نازية، وعالية..! الغرض الرئيسى من هذه الدعاية ،هو خلط الحقائق الرئيسية عن الظلم الذى ارتكب فى حق العرب، و اللعب على المفاهيم السابقة للغرب، ودغدغتها عاطفيا لصالح إسرائيل. فى الشئون العسكرية..نهر من الدعاية، ثم تصويبه تجاه القوات العربية. فنشرت كتب عدة عن حرب الأيام الستة، من إسرائيل ومن مصادر غربية ،

ساعدت فى تضخيم انجازات قوات الجنرال ديان، وتشويه أداء الجيوش العربية ،بتصويرها للهزيمة كفشل للشخصية العنصرية العربية، أكثرمنها للسياسة الإستراتيجية العربية وقيادتها العليا.

الأسباب الحقيقية للإنهيار لم يتم الكشف عنها ، حتى الحكومات العربية لم تفصح عن أية حقائق عن الأسباب الحقيقية التى أدت إلى هزيمتها؛

ليس معروفا.. على سبيل المثال، أنه فى الوقت الذى قامت فيه إسرائيل بهجومها فى ٥يونيو ١٩٦٧ ،كانت القوات المصرية تتقدم سيرا،مضطرة ، لأسباب سياسية، لترك مواقعها المجهزة فى العمق ، وتتحرك للأمام لتحتل مواقع لم تستكشفها على امتداد الحدود الإسرائيلية: هذا الحدث كان نتيجة لملخص خطة عمليات، صدر فى آخر دقيقة عن الرئيس عبد الناصر،حيث علم الأخير لأول مرة أن خطة الدفاع المصرية، رسمت الإحتفاظ بمواقع فى العمق، على بعد بضعة أميال من الحدود، مما لا يتفق والإصرار على سياسة «الإستسلام التطوعى» للأرض العربية، فأمر الجيش بالتقدم حتى خط الحدود بذاته..! لم يتمكن الضباط المصريون من إقناع المشير عامر بمساندتهم لإلغاءهذا التغيير فى آخر دقيقة للخطة. أوامر ناصر ظلت قائمة، كذلك كانت الأمور عندما شرعت إسرائيل فى هجومها، فقد تمكنت من الإمساك بالجزء الأكبر من الجيش المصرى أثناء تحركه إلى المواقع الدفاعية غير المدروسة..!

حتى الهجوم المدمر الذى افتتحت به إسرائيل عدوانها. والذى كان السبب الرئيسى فى الهزيمة العربية ،لم يبلغ هذا القدر فى النجاح ، إلا بسبب تدخل سياسى من القائد الأعلى. تعليمات صدرت من وزير الحربية المصرى. شمس بدران.قبل العمليات بثلاثة أيام، أمرت بتغيير نظام الاتصال القائم بين القوات المسلحة العربية، وعلى الأخص،خطر الاتصال المباشر بين القوات المسلحة الأردنية والجيش المصرى وقوات الطيران، من الآن فصاعدا ، جميع الرسائل تمر من خلال مكتب وزير الدفاع..!. لولا هذا التدخل الأخرق لكان التقرير الصادر فى تمام الساعة ٨,٣٨ صباح ٥يونيو ١٩٦٧ ،من محطة الرادار بعجلون – التى التطقت شاشاتها مئات الطائرات الإسرائيلية، تقلع من ممراتها – قد تم استقباله فى قواعد الطيران المتقدمة فى صحراء سيناء فى الوقت المناسب، لينقذ القوات الجوية المصرية، من إبادة حقيقية فى الساعة

الأولى من الحرب، بدلا من ذلك، استقرت الإشارة على مكتب بدران في الوقت الذى كان يقضى يومه فى مكاتب أخرى مختلفة. أكبر وأسوأ العروض المتعلقة بهذه الحرب من كل النواحي ، الصورة المضللة عن أداء الجيش المصرى..! صورت الهزيمة كشيء أصيل من أول دقيقة شرعت فيها الطوابير الإسرائيلية سنان الهجوم. حقيقة أن مصر خسرت ١٦ألف جندى، قتلى، وتم الإستيلاء على٩٠٠ دبابة،٧٠٠مدفع، إلا أن اللوم على هذه المصيبة ألقى العبء على المنفذ الخطأ فى الحقيقة، رد الفعل المذكور لعبد الحكيم عامر - القائد العام المصرى - وعبثية القواد هى السبب فى هذا التأجيل، وليس الأداء المتدنى للمقاتلين. الآن تم الكشف عن المقاومة اليت بذلها الجيش المصرى على كل الجبهات، حتى أصدر عامر، دون أى أعتبار، أمره المشين بالإنسحاب، فى عصراليوم الثانى للحرب. «معرفة ذلك ظلت محجوبة عن عبد الناصر لما يزيد على العام»، فحتى صدور هذا الأمر،كانت تقارير الخسائر٢٨٦ إصابة مصرية ، ولم يتم أقتحام خط الدفاع الثانى. إحدى لجان التحقيق التى شكلها عبد الناصر لاحقا، قررت أن خط الدفاع كان يمكنه التماسك لأيام عديدة، متيحا الوقت الكافى للرئيس للتحرك السياسى والحصول على نتائج.

حرب الاستنزاف ١٩٦٩/ ٧٠.

الحملة الإسرائيلية فى ١٩٦٧حازت نصراً تاما، لكنه عسكرى وليس سياسيا:

الجيوش المصرية السورية الأردنية ممزقة،لكن تصميم الحكومات العربية على استمرار المواجهة لم ينكسر. فى السنوات التالية،كان واضحا أن هناك تراجعاً فى المواقف المتصلبة تجاه ماسمى بقبول الهيمنة الإسرائيلية، ولكن لم يكن هناك فى أى وقت ، أى تعديل فى المطالبة بانسحاب كامل من الأراضى المحتلة. التصميم على مواصلة الحرب ضد إسرائيل ظل معلنا حتى والقوات المصرية المدحورة تعبر القناة متراجعة ، والجيش السورى المتقهقر باتجاه دمشق. حقا أن الأردن تم تركيعه لسنوات طويلة قادمة، ولبنان صدق على أنهزاميته، لكن لا المصريين ولا السوريين، ولا العالم العربى ككل. بعد السنة الأولى من الحرب، كان على المصريين أن يتطامنوا أثناء إعادة بناء قواتهم بمساعدة الروس؛ لكن خطط استمرار المواجهة لم تتوقف. على كل حال،حتى بعد إعادة تنظيم القوات. كان البديل المتاح هو شن حرب استنزاف ،لأنه المعامل الاستراتيجى الوحيد الذى تتيحه هذه الحرب للعرب.

في يونيو ١٩٦٨ ، بدأت اشتباكات محدودة بالمدفعية، وفي أغسطس حدثت أول غارة، فلأول مرة، تعبر فصائل عسكرية مصرية القناة منذ حرب الأيام الستة. سد مدفعي ثقيل غير معهود كان الرد الانتقامي لإسرائيل. مع تصعيد بشن غارة على نجع حمادى على مسافة ٢٠٠ كم داخل الأراضي المصرية، في نفس الوقت، قررت إسرائيل تقوية تحصيناتها على امتداد القناة بالبدء في بناء خط بارليف.بهذه الخطوة أدركت مصر أنها بإزاء محاولة لخلق واقع حدودى دائم؟ وكان هذا هو الدافع لبدء حرب الأستنزاف الرسمي في مارس ١٩٦٩ ، استئناف جوهرى لحرب ١٩٦٧ ، هدفه العاجل والأساسي تحطيم خط بارليف.في هذه الفترة، أتم حوالى ٣٠٠طيار تدريباتهم في موسكو، والبدء في بناء مواقع صواريخ سام٢ في منطقة القناة، بهدف توفير حماية مناسبة فوق المنطقة. في ٨مارس ١٩٦٩ ،بدأ المصريون إطلاق نيران مدفعية عنيفة، مركزة على المواقع الإسرائيلية في خط بارليف، استمرت حتى بعد الظهر، وفي المساء، وحتى اليوم التالي. أطلقت خلالها حوالى ٤٠ ألف قذيفة، مسببة خسائر وإصابات إسرائيلية جسيمة.

استمر هذا الفاصل طوال شهرى مارس وإبريل، واعتباراً من ١٩إبريل ، بدأت غارات للفدائيين عبر القناة. في أول مايو، أعلن الرئيس عبد الناصر أن حوالى ٦٠٪من خط بارليف تم تدميره. ومع أن هذا قول مبالغ فيه، كان الرد الإسرائيلي سريعاً ومميزاً، ضرب مدفعي لأهداف صناعية ومدنية عبر القناة، وغارات بقوات محمولة جوا داخل الأراضي المصرية مستهدفة أهدافا حساسة لمدينة السويس ومنشئاتها البترولية، وتجمعات سكنية كالاسماعيلية وبور سعيد وبور فؤاد وبور توفيق ، وكلها رزحت تحت نيران مركزة، أسفرت عن خسائر مدنية ملحوظة. في ٢٠ يوليو، قوات برية وبحرية هاجمت الجزيرة الخضراء على شاطئ خليج السويس،في نفس اليوم، وقعت أول معركة جوية، أعلن الإسرائيليون إصابة خمس طائرات، بينما أعلن المصريون سقوط طائرتين. الحرب الجوية أعطت إسرائيل المبادرة، فبدأت غاراتها على مواقع صواريخ سام٢ ، اعتبارا من ٢٤ يوليو. وبعدبدء وصول طائرات الفانتوم الأمريكية في أوائل سبتمبر، ازدادت كثافة الغارات على مواقع الصواريخ حتى بلغت ذروتها في أكتوبر ١٩٦٩ ، أعلنت إسرائيل

بعدها، التدمير التام لقواعد صواريخ سام ومعظم محطات الرادار.الثابت، أن قدرة الدفاعات الجوية بلغت حد الصفر ، وأى طموح يراود الرئيس ناصر فى موقع قدم على الضفة الشرقية، وجب التخلى عنه فى مواجهة تفوق جوى إسرائيلى فى منطقة القناة وفوق دلتا النيل. معنويات القوات المسلحة التى لم تتعاف بشكل كامل بعد ١٩٦٧ ، عادت للتردى من جديد. واصلت مصرعملياتها الأرضية والبحرية من حين لآخر، إلا أن الطيران لم يحاول الاشتباك مع الطيران الإسرائيلى، فى حين تمكنت إسرائيل – مابين ١٩٦٧حتى أوائل١٩٧٠ – من القيام بـ ٢٧٠٠طلعة جوية فوق الأراضى المصرية، آزداد الاختراق الجوى الإسرائيلى فى العمق ،وبلغ ذروته فى يناير ١٩٧٠ ، على شكل غارات منظمة تم شنها فى قلب مصر، الغرض منها خلق آثار نفسية لدى الشعب المصرى تساعد على إلقاء ناصر من على عرشه. فى ١٨يناير ١٩٧٠ ، هوجمت مواقع الصوايريخ فى شمال حلوان، وكذلك القاعدة العسكرية بالقرب من مطار القاهرة الدولى، وفى نفس الوقت ، شنت غارات جوية على القنطرة وأهداف أخرى على القناة. استمر هذا الفاصل بانتظام حتى نهاية إبريل.

كان السبيل الوحيد المتاح للمصريين، هو التحول تجاه روسيا طلبا لمزيد من العلاقة الحميمة والالتزام: زيارة الرئيس عبد الناصر لموسكو، أسفرت عن اتفاق بإقامة قواعد صواريخ سام٣، وبحلول مارس١٩٧٠ ، تدفق المزيد من الروس، طيارين لقيادة الميج ٢١ ، وفنيين لتشغيل مواقع الصواريخ ومعدات الرادار. فى فبراير آخر الغارات الكبرى الإسرائيلية، تمت بواسطة الفانتوم ،هاجمت أبو زعبل فى الدلتا ونتجت عنها خسائر كبيرة فى أرواح المدنيين، والهجوم الفاجر على مدرسة أطفال فى بحر البقر.فى إبريل، توقفت الغارات فجأة، قد يعزى ذلك لإدراك إسرائيل أن هدفها السيكولوجى قد فشل، لكن أساسا، للوجود الروسى فى مصر، الذى يتضمن الالتزام السوفيتى بالدفاع عن العمق المصرى، الأمر الذى منع الطيران الإسرائيلى، وجعله يقصر عملياته على منطقة القناة. انتهزت مصرهذه الفرصة ،و أقامت مواقع صواريخ سام٣. وبحلول يوليو١٩٧٠ ، تم إقامة نظام صاروخى محكم،على شكل مثلث مخروطى ،قاعدته قناة السويس وقمته فى القاهرة. فى نفس الوقت، بدأت قوات الجيش فى التحرك إلى منطقة القناة بمصاحبة مستشارين روس، ثم توزيعهم نزولا إلى مستوى الوحدات. (فى

٢٩ مايو ١٩٧٠ ،أعلن الرئيس عبد الناصر وجود المستشارين السوفييت في جميع وحدات الجيش المصرى) .« إنهم مع قواتنا فى كل مكان» . المعهد الدولى للدراسات الإستراتيجية فى لندن، قدر أنه بحلول شهر يوليو أصبح بها من ١٠٠ إلى ١٥٠ طيارا روسيا ومن ١٠ إلى ١٣ ألف خبير صواريخ ، يقومون بتشغيل من ٤٠ إلى ٥٠ موقع سام، بالإضافة إلى – من ٢٤٠٠ إلى ٤٠٠٠ مستشار عسكرى. تغير الوضع الإستراتيجى، أعاد عنصر المبادرة مرة أخرى للمصريين، الذى تمركزوا على أسس هجومية – ولو أنها مؤقتة –. القوات المسلحة المصرية، صعدت من سخونة وتعدد الغارات الأرضية والبحرية والجوية، على المواقع الإسرائيلية المتقدمة، أو فى العمق – حتى بلغت بعض العمليات العريش. لكن الرد الانتقامى الإسرائيلى كان من القوة لدرجة أ ن توقفت الغارات. فى أوائل يونيو، ولمدة ثلاثة أيام ،تعرضت بورسعيد لقذف جوى متواصل: ٤٠٠ طلعة فى اليوم اسقطت ٤٠٠٠ قنبلة. لم تسبب هذه الغارات خسائر مدنية ثقيلة فقط، بل عزلت – بشكل مؤثر..المدينة عن باقى مصر لمدة أيام.

عند هذ المرحلة طرحت «خطة روجرز» ، أعلن الرئيس عبد الناصر قبوله للخطة فى يوليو، أما إسرائيل فبعد ذلك بشهر. فى ٧ أغسطس ١٩٧٠ أصبح وقف إطلاق النار ساريا. ثم التوقيع عليه بالأحرف الأولى لمدة ٩٠ يوما،ثم امتدت بعد ذلك.وحتى بعدوفاة الرئيس عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٧٠ ، استمر سريانها – مع بعض الانتهاكات – حتى اندلا ع القتال فى أكتوبر ١٩٧٣ .

لا حرب ..لاسلم:.

رغم أن حرب الاستنزاف أنتهت بحصول المصريين على ميزة استراتيجية. وهى إقامة مواقع صواريخ سام، وتمركز القوات الأرضية فى منطقة القناة..إلا أنه تبعتها فترة تنامى الإحساس بالإحباط لدى العرب بشكل عام لسببين:.

إنهيار الجبهة الشرقية، و إنحسار الإيهام المرتبط بموقف الروس. الاشباكات على الجبهة الشرقية، واقع حتمى وضمنى لمفهوم حرب الأستزاف. فى مارس ١٩٦٩ ، كتب المسترهيكل –رئيس التحرير المعروف لجريدة الأهرام – « أنه من الضرورى أن تكون هناك جبهتان، إحداهما شرقية، والأخرى غربية.. وأن يكون التنسيق بينهما كاملاً» . الأمر الذى يقتضى بالدرجة الأولى – خصوصا وقد قامت مصر بحرب

(صور خريطة كثافة صواريخ سام التى تغطى الأرض المصرية)

استنزافها على القناة – من القوات الأردنية، الفلسطينية، العراقية، السورية والسعودية، أن تنشط على امتداد الحدود بين إسرائيل /الأردن.. إسرائيل/سوريا، بطول ٨٠٠كم من العقبة جنوبا إلى سفوح جبل هرمون «جبل الشيخ» فى الشمال،تنسيق كامل..! بعيد التحقيق. أو حتى لو مجرد محاولة، فكل واحدة منها اقتصرت على وضعها الخاص. بذلك خفضوا من تأثيرهم العام. ثم، في سبتمبر ١٩٧٠ ،بعد انقضاض الملك حسين على جماعات الفدائيين، تهاوت الجبهة الشرقية تماماً.

عدت حملة الأردن على الفدائيين نصراً محسوبا للاستراتيجية الإسرائيلية الخاصة بالأنتقام الجماعى، ففى ١٩٦٩ ، قامت إسرائيل بسلسلة من الهجمات الرادعة فى وادى الأردن، غالبا فى عمق الأراضى الأردنية – حوالى ٢٠٠ هجمة تمت خلال أغسطس وسبتمبر فقط – لم توجه لتدمير قواعد الفدائيين فقط، بل وتخريب مستوطنات الضفة الشرقية بكاملها، بما فيها أهم مشروعات الرى الأردنية.مناطق زراعية شاسعة ثم حرقها بالنابالم، وقرى أشعلت فيها النيران أو سويت بالأرض.

أجبرت جماعات الفدائيين على النزوح عن مستوطنات الضفة الشرقية،والتمركز فى المناطق المأهولة فى عمان، على وجه الخصوص، حيث اتسمت تصرفاتهم كجيش مستقل.ساءت العلاقات بينهم وبين جيش الأردن النظامي والشرطة ،إلى درجة الاشتباك من وقت لآخر. فكان هدف الحملة التالية هو نزحهم من عمان، ثم تشتيتهم تماماً بعد ذلك، باستخدام وسائل غاية فى القسوة..! وبتشتت الفدائيين، تبخرت كل الآمال فى تنشيط الجبهة الشرقية لمدة طويلة قادمة.

قطعت سوريا والعراق ومصر ، العلاقات الدبلوماسية مع الأردن.

لم يعد هناك نشاط جدى على الجبهة المصرية بعد ذلك: الروس، وهم يقدمون السلاح والمعدات والأفراد لتأمين الأراضى المصرية والدفاعات الجوية ،بحزم، رفضوا ما هو أبعد من ذلك: مثل طلب مصر أسلحة هجومية، قاذفات قنابل وقاذفات مقاتلة.. بقى الرد رفضا مهذبا .كانت هناك مؤشرات على أن الاتحاد السوفيتي يولى اهتماما متزايدا بتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة ،فيفضل إبقاء الصراع فى الشرق الأوسط هادئاً – تحت مسمى لاحرب..لاسلام.

دأبت الأمم المتحدة على إصدار قرارات بإلزام إسرائيل برد الأراضى التى احتلتها، ولكن، لم يبد أى كان استعدادا للتنفيذ. وفوق كل ذلك، كانت هناك مؤشرات على قيام روسيا بمبادرات لإعادة العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل.

توجه الرئيس السادات إلى موسكو فى ١٩٧٢ ، ليخطر المستر بريجنيف بأنه سيذهب إلى الحرب فى يوم ما، لأنه لاحل سواه؛ المستر بريجنيف.. رغبة فى تجنب مواجهة مع القوى العظمى، لم يشجعه على ذلك. قال الرئيس السادات: «إن الروس ماطلوا طوال الصيف والخريف ١٩٧٢ ، قالوا أنهم ينتظرون الانتخابات الأمريكية فى نوفمبر.. !» . كانت كل الظواهر تدل على أن الروس يواصلون كبح الرئيس السادات. بعد زيارته الأخيرة لموسكو، قرر السادات الحرب منفردا.

عندما وضع السادات قدميه فى حذاء أكبر من حجمه، يخص البطل القومى، جمال عبدالناصر، وجد أنه ورث أيضا مشاكل أكبر من حجمه، فبعد الامتهان المرير بهزيمة العرب فى ١٩٦٧ ، مع كل الحساسية فى مسائل الشرف والكرامة، تطلعوا إلى مصر لتتولى القيادة فى مواصلة الحرب ضد إسرائيل، وبهذا ألقوا المسئولية الثقيلة على كتفيه.

تتركز الصلات الاستراتيجية الإسرائيلية تجاه مصر، على مستوى مختلف عن باقى الدول العربى؛ مثلا: المقاومة ضد إسرائيل من دول بعيدة، مثل العربية السعودية، الكويت ودول شمال أفريقيا، تتحرك فى حالة واحدة، وبذلك تكون محدودة التأثير بالمقارنة باستمرارية التهديد من جيران إسرائيل الرئيسيين. فبالنسبه للأردن وسوريا ولبنان والعراق، فإسرائيل متفوقة عسكريا تماما، مع تأجيلها لفرض الهيمنة، فقط بالنسبة لمصر، فالتفوق الإسرائيلى مشروط. وهذا الوضع، للعلاقة الاستراتيجية المشروطة، والناتجة عن الحيوية المتبادلة، هو الذى يميل إلى اعتبار الحرب الإسرائيلية العربية .. مبدئيا، صراعا مصريا إسرائيليا، وبعيدا عن محاولة القيام بدور الوكيل عن العالم العربى، فالالتزامات الملقاة على عاتق الرئيس السادات، تتساوى فى ضرورتها، وتضخمت تحت ضغط شهور اللاحرب واللاسلم، والتى مرت دون مؤشرات للتحرك نحو تسوية. من الصعب الاقتناع بأن أى مفاوضات ستأتى بأى تحسن فى الأوضاع، لأن كل خطة طرحت فى الأمم المتحدة، أو بواسطة آخرين، دارت حول تنازلات

إسرائيلية، ولا يوجد مؤشر لأى بادرة تعاون من الحكومة الإسرائيلية. فى الوقت نفسه، مفروض على مصر الاحتفاظ بقوات عسكرية ضخمة، تستهلك أكثر من ربع الميزانية القومية؛ قناة السويس مغلقة، وجدت مصر نفسها مجبرة على الاعتماد على إعانات من ليبيا، العربية السعودية والكويت. عندها، قرر الرئيس السادات اللجوء إلى الخيار العسكرى، فتحريك المجتمع الدولى، وبالذات القوتين العظميين، من غير المحتمل الاعتماد عليه؛ لكن مؤكد، أنه خلال صيف ١٩٧٢، عندما اتخذ قراره: إذا فشلت الدبلوماسية فيجب اللجوء للحرب، لكن.. حربا محدودة، محدودة باحتياجاته السياسية، وبحسب قدرات قواته العسكرية. الخطوة الأولى، هى «إزاحة الوجود الروسى المعيق». فى خطوة جريئة، لكنها محسوبة، أمر بانسحاب جميع المستشارين العسكريين السوفييت، وكذا الفنيين، الذى كانوا متغلغلين فى نسيج القوات المسلحة المصرية. كان مدركا أن سحب الروس سيسبب انخفاضا فوريا.. ولو مؤقتا.. فى كفاءة القوات المسلحة، وبالذات خدمات الدفاع الجوى، التى كان الطيارون والفنيون الروس يقومون فيها بدور ملحوظ، فى توفير غطاء جوى محكم فوق منطقة القناة والدلتا.

بهذا الحدث، الهبوط فى كفاءة الدفاع الجوى كان ملحوظا. من ٩٠٪ إلى ٦٠٪ طبقا لتقديرات مراقبين عسكريين أجانب، وبالذات لأن أعدادا كبيرة من صواريخ سام ٦- وهى الصواريخ المجهزة لسد ثغرات الارتفاعات المنخفضة عن صواريخ سام ٢، سام ٣ العالية والمتوسطة - إما سحبت بواسطة الروس، أو خفضت بعدم تشغيلها المؤقت. الخدمات الأرضية لم تتأثر بشكل كبير، ومع ذلك، كان هناك انخفاض ملحوظ فى كل من كفاءة القوات المسلحة المصرية الدفاعية والهجومية. أفراد قلائل، سواء فى القاهرة أو فى أى مكان آخر، وبالذات فى إسرائيل. آمنوا بأنهم سيفيقون من هذه الضربة.

إن الفضل يعود كاملا للرئيس السادات ووزير دفاعه الجديد، الفريق احمد إسماعيل - الذى حل بدلا من الفريق صادق فى أكتوبر ١٩٧٢ - أن تحولت آلة الحرب المصرية بدقة فى مدى ١٤ شهرا، لتصبح قادرة على القيام بهجوم عسكرى رئيسى ناجح عبر القناة، ضد عدو، يعتبره معظم العالم - بما فيهم بعض المصريين - لا يقهر..!

بعد انسحاب الروس، كان أولى مهام الرئيس السادات، إعداد القوات المسلحة للحرب. أمر بالتشدد فى الاتصالات بين الضباط فى الخدمة والمجتمع السياسى والأجنبى، حتى لاتتسرب الخطوات التى اتخذها؛ أعطى القواد مهاما بالبدء فى وضع

خطط تفصيلية، مع عدم الكشف عن الغرض المحدد، وأدخل الضباط الشبان في مراحل إعادة تدريب مكثفة، لتوفير كوادر عسكرية مدربة تكنولوجيا. تم تجنيد الآلاف من الطلبة والجامعيين في القوات المسلحة.

حرب «مفرمة اللحم»..

أول قرار اتخذه الرئيس السادات، كان يتعلق بطبيعة الحرب التى سيشنها ضد إسرائيل. فلم يضع فى احتمالاته أبدا مسألة اختراق هجومى عميق، يستهدف تحرير صحراء سيناء، فلم يكن ليطلب من جيشه ماليس باستطاعته، مدركا تماما للتفوق العسكرى الإسرائيلى فى الحرب المتحركة، وبالذات تفوقها الجوى فيما يتجاوز مدى دفاعاته والتغطية الصاروخية، فالعمق الهجومى كان محكوما من البداية. الاختيار يقع بين تكرار ضرب المدفعية ومبارزات جوية، كتلك التى حدثت أثناء حرب الاستنزاف، وهجوم محدود هدفه إقامة رأس جسر على الضفة الشرقية للقناة. حرب استنزاف أخرى تعنى أنتقال المبادرة بسرعة إلى إسرائيل، التى سيكون رد فعلها - خصوصا بعد زوال الوجود الروسى - عنيفا، بحيث يتم تصعيده للقتال على الأراضى المصرية. الشكل الوحيد من الحرب، ذلك الذى يتيح لمصر استعادة المبادرة، واستدارج إسرائيل إلى حرب استنزاف، هو عبور القناة بقوات، وإقامة رأس جسر كبير، يكفل تمثيل تهديد دائم، بحيث تقدم إسرائيل بهجومها المضاد اللاحق للمصريين، الفرصة لتشطيرهم بطريقة «مفرمة اللحم»، كما أطلق عليها الفريق الشاذلى؛ وللحصول على نتيجة مستفادة فى هذه الاستراتيجية، يجب شن الهجوم من جبهتين: قناة السويس جنوبا، وأيضا الجبهة الشرقية - سواء من سوريا أو الأردن. بناء على ذلك أصدر الرئيس السادات تعليماته بالهدف السياسى فى وراء خطة الحرب هذه: «إعداد القوات المسلحة لضمان نجاح عملية اقتحام هجومية لكسر الجمود السياسى»؛ كان الهدف السياسى واضحا تماما، لم تطرح الحاجات الإقليمية. الاسم الكودى الذى أطلقه الرئيس على العملية هو «شرارة»، شرارة تلقي الضوء على الجو السياسى الدولي السائد.

نحو تضامن عربي:-

المهمة الدبلوماسية التى قام بها السادات، كانت من شقين: الأول، بذل جهد أخير بغرض اتفاق عربى إسرائيلى بقبول مبدأ التفاوض، وفى حالة الفشل، فتجميع العالم العربى كقوة سياسية متماسكة قبل شن الحرب.

لقد مرت ست سنوات من الدبلوماسية العقيمة منذ إعلان مجلس الأمن بالأمم المتحدة بالإجماع القرار ٢٤٢، الذى يطالب إسرائيل بالانسحاب «من أراض عربية محتلة»، مقابل إعلان العرب الاعتراف بإسرائيل، وبالتالى السلام فى غرب آسيا. ومع أن سوريا لم تقبل القرار، إلا أن مصر والأردن قبلتاه، وكذلك إسرائيل، مع أنه نص على الدخول فى مفاوضات مباشرة مع العرب دون شروط مسبقة.

عموما، فى هذه السنوات الست، لم يبين أى بارقة أمل للعرب أنه فى يوم ما سيستردون أراضيهم، على العكس، كشفت إسرائيل عن مراميها لتحويل انتصاراتها إلى حيازة دائمة، متمثلة فى إقامة مستعمرات يهودية على هضبة الجولان، فى قطاع غزة، فى شرم الشيخ وحتى فى سيناء؛ ومع ذلك. قرر الرئيس السادات القيام بمحاولة أخيرة كمبادرة سلام..

فى فبراير ١٩٧٣، أرسل الرئيس المصرى مستشاره للأمن القومى «حافظ إسماعيل» فى جولة شملت موسكو، بون، لندن وواشنطن بالولايات المتحدة. فى نفس الوقت أرسل وزير خارجيته «محمد الزيات» إلى نيودلهى وبكين؛ كانت مهمتهما أن يشرحا لقادة العالم أنهم إذا لم يتمكنوا فى إقناع إسرائيل بقبول الانسحاب؛ الكامل من الأراضى العربية المحتلة، فقد تبدى مصر استعدادها لقبول خطة انسحاب جزئية مشروطة بالتعهد برد كافة الأراضى العربية. فى لندن: عندما سأل حافظ إسماعيل، رئيس الوزراء البريطانى هيث، فى نهاية المشاورات، عما إذا كان المستر هيث يعتقد أن لدى مصر شيئا ما يمكن أن تقدمه لتأمين أتفاقية سلام..»، أجاب: «كلا، أنتم قدمتم بكل وضوح كل ما باستطاعتكم». فى واشنطن، كانت القصة مختلفة تماما؛ فمع أن الرئيس نيكسون تكلم عن رغبته فى تحريك المباحثات، فبعد أسبوع واحد لاحق، وبعد أن أعلنت المسزجولدا مائير بوضوح، أن مرتفعات الجولان وشرم الشيخ وكذلك أورشليم، غير قابلين للتفاوض، صدر إعلان فى واشنطن يقرر إرسال ٤٨ طائرة فانتوم قاذفة مقاتلة إلى إسرائيل؟ الرسالة كانت واضحة، الرئيس المعاد انتخابه لم يكن مستعدا لتغيير سياسته فى غرب آسيا. هذا الرد المخيب فى إدارة نيكسون، لم يترك أمام السادات سوى اللجوء للحرب.

إنه مدرك تماما، أنه لا مصر ولا الدول العربية، فى وضع يسمح باسترداد أراضيهم

المفقودة بالقوة، ولكن إذا تحركوا بتناسق على الجبهات السياسية والاقتصادية، فتوفيق محدود للجيوش العربية، قد يعيد النشاط للجبهة الدبلوماسية المتناومة فى العالم الغربى، وبذلك تدفعه للتحرك نحو تسوية. فى نوفمبر ١٩٧٢، اجتمع إثنا عشر وزيرا للخارجية والدفاع العرب فى الكويت، بغرض تسوية خلافاتهم، وتعبئة جهودهم للقيام بعمل موحد ضد إسرائيل؛ قدم الفريق احمد إسماعيل خطة لتحويل الاقتصاد العربى عامة إلى «اقتصاد حرب» - تجنيب من ١٠ إلى ١٥٪ من الدخل القومى لكل دولة للأغراض العسكرية، اقترح كذلك خطة جوية موحدة، والاستفادة القصوى بالفدائيين الفلسطينيين، والأهم من كل ذلك، خطط لإعادة تنشيط الجبهة الشرقية. لم يسفر هذا عن شيء، بسبب اعتراضات كثيرة على الأردن الغائب، للحصول على نجاح أكيد. لهذا وفى وقت ما من مارس ١٩٧٣، اتخذ الرئيس السادات قراره بالإمساك بمقاليد الأمر فى يده. أعلن فى مجلس الشعب بالقاهرة، توليه الوزارة بنفسه.. «المواجهة الكاملة صارت حتمية»، هكذا قال، «وسنخوضها، سواء أردنا أو لم نرد، الوضع العسكرى يجب تحريكه، وبكل التضحيات التى سترتب عليه».

أكثر المهام الحاحا هى، إعادة بناء الجبهة الشرقية مع سوريا والأردن. لا يعنى هذا، أن على مصر وسوريا إعادة فتح العلاقات الدبلوماسية مع الأردن فقط، لكن أيضا، تطوير الموقف السياسى تجاه إسرائيل، ليتسق مع هدف مصر، وهذا يرقى المساندة المصرية لأهداف الحرب السورية. استتبع اللقاءات الأولية بين الرئيسين - السادات والأسد.. فى أواخر مارس، اجتماع رؤساء الأركان العرب فى القاهرة؛ ولو أنه لم يخرج بنتائج محسوسة، ربما.. لأن المصريين أرادوا الحفاظ على سرية قراراتهم محصورة فى أقل عدد من الأفراد - فكان بحث الاستراتيجية العربية فى عمومياتها. الغارة التى قام بها فدائيو إسرائيل على بيروت فى نهاية إبريل، أشعلت حادثة خطيرة نتج عنها انفجار وحشى فى لبنان، يرقى إلى مرتبة حرب أهلية بين لاجئين فلسطينيين وقوات مسلحة لبنانية، أثناء التسعة أيام التى استغرقتها، سقطت الحكومة اللبنانية. بدا الأمر لإسرائيل أن القتال سيمتد إلى سوريا، المتوقع تدخلها إلى جانب الفلسطينيين، وهى فرضية تتيح بسهولة اندلاع معركة عربية إسرائيلية شاملة، وضعت القوات الإسرائيلية فى وضع الاستعداد، وعززت المواقع المتقدمة بالأفراد - عملية كلفت إسرائيل ٤٫٥ مليون جنيه. (هذه

الواقعة جاءت فى صالح العرب، لأنها أثبتت للحكومة الإسرائيلية صواب ترددها فى إهدار اقتصادها بتعبئة احتياطياتها عند أول بادرة خطر). الانعكاس الآخر لحادث مايو، هو اقتناع الرئيس الأسد بوضع استراتيجية مشتركة مع مصر، باعتبارها الواقى الوحيد ضد أى هجوم انتقامى من إسرائيل. لتقوية ولإعادة تسليح قواته، سارع بالتوجه إلى موسكو، وعاد بوعود بإقامة دفاع جوى كامل على جبهة دمشق، مماثل للدفاع الجوى الذى يغطى منطقة القناة، إضافة إلى أنه سيتسلم أيضا ما قيمته ٨٠ مليون جنيه على هيئة أسلحة ومعدات منها ٤٠ طائرة ميج ٢١، وكمية من أحدث الدبابات الروسية T ٦٢، مصر أيضا ستحصل على كمية إضافية من صواريخ سام ٦ وبعض الدبابات T ٦٢ .

فى مايو، زار الملك فيصل، ملك السعودية، القاهرة. وكان من الطبيعى أن يصل هذان الرئيسان إلى شكل من أشكال الاتفاق العسكرى، تعهدت بموجبه السعودية بارسال قوات عسكرية إلى جبهات القتال فى حالة الحرب، وزيادة المعونة المالية، لمصر، كما وافق الملك فيصل على استخدام سلاح البترول للضغط على الولايات المتحدة، الأمر الذى أكد إمكانية شن حرب هجومية محدودة.

أول طرح لفكرة استراتيجية البترول، كان بواسطة «هيكل» فى الأهرام وازداد الترويج لها بشدة، بواسطة العقيد القذافى، عندما بدأ فى وضع شروط لشبكات البترول العالمية. حتى هذا الحين، لم يقم فيصل بتشجيع هذا الاقتراح. ولتطبيق مثل هذه الاستراتيجية الشاملة، يتعين أن تكون القيادة له.

ويحتمل أنه فى منتصف ١٩٧٣، أن بدأت ميوله نحو الفكرة، مع ترقبه لما تسفر عنه نتائج الهجوم العربى، قبل اتخاذ الخطوات لتنفيذ الاستراتجية البترولية. هذه العودة للعلاقات مع الملك فيصل، تعد نقطة تحول رئيسية فى الدبلوماسية العربية، لأنه كقائد للدول العربية المحافظة، وكأكبر دولة فى العالم العربى، فهو يحتفظ بعلاقات صداقة مع أمريكا. عموما، فلم يكن هناك أبدا أى شك فى التزامه نحو عدائه للصهيونية، كحارس للأماكن العربية المقدسة. الشك الوحيد الذى تكتمه، هو قدرة العرب على شن حرب ضد إسرائيل. مجرد قناعته بذلك، فسيلقى بكامل ثقله فيها، دون تحفظ، إلى جانب الهدف العربى، حتى يفى بأمنية حياته فى الصلاة فى المسجد الأقصى فى القدس قبل وفاته.

تابع الرئيس السادات هذا الاختراق، بالقيام بزيارة سرية لدول الخليج والعربية السعودية، في أغسطس، بغرض تأكيد عرض استخدام البترول؛ إلى أى مدى عاد وهو متأكد من ذلك؟ ذلك مالم يعرف.. لكن التقارير ذكرت أنه حصل على بليون جنيه معونة مالية، لإعادة تجهيز قواته المسلحة بمزيد من صواريخ سام أرض - أرض، وطائرات هليكوبتر للعمليات الأرضية. كما نصح الملك فيصل الرئيس السادات باستبعاد ذوى الشعور المضاد للملك حسين، لتوحيد الجبهة الشرقية، قبل بدء الحرب ضد إسرائيل. فى نفس الوقت، زار الفريق إسماعيل بغداد فى مايو، ضمن جولة روتينية لدول الخليج ودمشق. نوقشت خطة العراق لدعم الجبهة الشرقية تبعها اجتماع رؤساء أركان مشترك على أعلى المستويات، بين العراق وسوريا؛ وبرغم عدم الوصول لقرارات نهائية، عرضت العراق إرسال قواتها إلى الجبهة السورية، إلا أن العرض لم يحظ بقبول فورى؛ ذروة هذه التحركات على طريق توحيد الصف العربى، وكذلك النجاح الكامل لخطوات الرئيس السادات السياسية، تمثل فى اجتماع القمة بين الرئيس السادات، الرئيس الأسد والملك حسين فى القاهرة فى سبتمبر. كانت سوريا قد قطعت علاقاتها بالأردن فى ١٩٧١، بعد انقضاضها على الفدائيين الفلسطينيين، وهو الحادث الذى أدى إلى وقوع مايشبه حرب محدودة على الحدود الأردنية السورية، وكانت مصر قد قطعت علاقاتها مع الأردن فى ١٩٧٢، بعد أن أعلن الملك حسين عن خططه لإقامة مملكة عربية متحدة على ضفتى نهر الأردن. تراكم الخلافات بين مصر وسوريا من ناحية، والأردن من ناحية أخرى، من العسير تخطيها، لكن هنا لعب الملك فيصل الدور الرئيسي؛ تصميمه على قيام الأردن بلعب دور فى تنشيط الجبهة الشرقية، أقنع مصر وبالذات سوريا، الجلوس حول مائدة القمة مع الأردن. كانت هناك صعوبات مع الملك حسين؛ العقيد القذافى، الفدائيون الفلسطينيون والعراق، كانوا جميعا معارضين وبحزم لأى تصالح مع الأردن، فى النهاية، ولأنها أساسا، مساهمة فى الحرب المصرية السورية حدث التجاوب أخيرا. وقد تطلب الأمر بعض الإقناع، ليندرج الملك حسين فى الصف؛ هناك دلائل على أن أول دعوة جاءته من الملك فيصل، قوبلت بزمجرة. فقد أرسل مذكرة سرية إلى القيادة العامة الأردنية تقول: «من الواضح اليوم، أن الدول العربية تعد لشن حرب جديدة.. المعركة ستكون سابقة لأوانها». فى النهاية قرر الرئيس

السادات كسر هذا الخلاف المستحكم؛ في يونيو، دعا عادل الرفاعى رئيس الوزراء الأردنى إلى القاهرة، تبع ذلك، قيام الأخير بعدة زيارات إلى دمشق، العربية السعودية والقاهرة. كان هناك تقدم محسوس خلال الشهرين التاليين، وبوصول الملك حسين إلى القاهرة للمشاركة فى إجتماع القمة فى ١٠ سبتمبر ١٩٧٣، كانت معظم خلافاته مع سوريا ومصر قد سويت. أعلنت عودة العلاقات الدبلوماسية مع الأردن فى ١٢ سبتمبر ١٩٧٣؛ خلال إجتماع القمة، أعلن الملك حسين بوضوح، أنه ليس فى وضع يسمح له بالدخول فى صراع مع إسرائيل، فليس لديه ميزة المعونة الروسية، وليس لديه تغطية صواريخ سام لقواته الأرضية. العمل ضد إسرائيل بدون طيران أو غطاء دفاعى جوى، يعد إقداما، على الانتحار رغم ذلك، بإمكان القوات الأردنية المسلحة القيام بدور هام، ليس فقط تقييد حركة القوات الإسرائيلية الموجودة على الضفة الغربية لنهر الأردن، لكن أيضا، مشاركة أكبر فى حماية الجناح الجنوبى للقوات السورية، التى تعمل فى مواجهة المواقع الإسرائيلية فى هضبة الجولان. احتمال أن يكون هذا كل الانجاز الذى تم فى مؤتمر القمة بالقاهرة، لكنه كان كافيا. فالطريق أصبح ممهدا لانطلاق الهجوم المصرى. الملاحظة المتناقضة مع كل هذا، جاءت من الجناح المتطرف للفدائيين الفلسطينيين، رية فى أن كل طموحاتهم، تم التضحية بها. إحدى محطات إذاعاتهم – من بغداد–، أعلنت أن التصالح مع الأردن يرقى إلى «خطط للإستسلام، واسترضاء النظام الأردنى، استجابة للضغوط المفروضة بواسطة الأنظمة الرجعية العربية، التى تقودها العربية السعودية».

ولمنع الحرج عن المجهود الحربى المشترك، وافقت الثلاث دول المشاركة فى قمة القاهرة، على تحييد المعارضة الفلسطينية. سوريا، أغلقت محطة الإذاعة التى دأبت على ترويج المعارضة لنظام الملك حسين. أعلن الملك حسين العفو الشامل عن جميع الفلسطينيين المحتجزين فى السجون الأردنية، وفى الوقت نفسه، إقبال على القيادات الفلسطينية المعتدلة، مثل ياسر عرفات، وحثهم على تقديم تعاونهم فى حالة الحرب. إنصب الحوار على أنه فى حالة تحقيق الهجوم العربى ونجاحه، سيكسب العرب نصرا دبلوماسيا عند التعامل مع الفروض التى اكتسبت اليوم.

هدف الحرب، أخيرا، أصبح جليا..

الفصل الثانى

العرب يستعدون للحرب

عندما شرع الرئيس السادات فى العمل على تعزيز الجبهة العربية دبلوماسيا، تولى الفريق أحمد إسماعيل القائد العام المصرى، إعداد الخطط الحربية، والاستعدادات للمعركة القائمة. وقد كان الجهد الأكبر أمامه وأمام رئيس أركان حربه، الفريق سعد الدين الشاذلى، هو إعادة توزيع وتدريب القوات المسلحة المصرية؛ تلك التى اكتسبت خلال السنوات الست الماضية، الطابع الدفاعى، والتى لم تتمكن من استعادة معنوياتها منذ هزيمة الستة أيام الساحقة.

فور انسحاب القوات من سيناء فى ١٩٦٧ ، قام الرئيس عبد الناصر بتعيين الفريق إسماعيل قائدا لجبهة السويس؛ لقد شاهد إسماعيل بقايا الجيش المصرى ممزقة، تتعثر عابرة القناة؛ «لاتوجد جبهة»، كانت ملاحظته: «ليس هناك أثر لجيش». الآن، وهو يواجه مهمة إعداد وإعادة بناء الجيش المصرى للحرب، كان مصمما على أ لا يقدم على أية مغامرة تعرضهم لنفس المخاطر. فى لقاء مع المستر حسنين هيكل، قال: «سلامة قواتى هى أول اهتماماتى أثناء الحرب»، قاصدا أن أى خطة سيستقر على تنفيذها، يجب أن تتضمن الحفاظ على بقاء الجيش كقوة فاعلة: «كنت مدركا للجهد الذى بذلته مصر لأجل إعادة بناء الجيش، وأن أوفق معرفتى بحجم هذا المجهود - الذى لايمكن تكراره بسهولة - بتحقيق هدفى العسكرى. أنا مدرك معنى الخسارة مرة أخرى، إنها تعنى استسلام مصر، وأن تسلم مصر، فهذا يعنى الدمار الكامل لهذا الجيل، ولأجيال عديدة قادمة». كان هذا هو العامل الرئيسى لدى وزير الدفاع، لتفضيله إتمام العمل على يد القوات المسلحة.

إذا كان على الجيش المصرى بذل أقصى الجهود لإيقاع الهزيمة بالعدو، الذى هزمه فى حملتين كالبرق، فيجب أن يكون هناك تغيير جذرى فى أنظمة التدريب المادى والمعنوى؛ يجب أن تكون هناك الثقة المطلقة فى قادتهم، يجب أن تكون ثقتهم كاملة فى أسلحتهم ومعداتهم، ويجب أن تكون دوافعهم حافزة. «أول هذه الأساسيات هو ضرورة أن تكون قواتنا مقتنعة بحتمية القتال، وأنه لن توجد حلول بدون قتال». أوضح الفريق إسماعيل بذكاء، أن وضع حالة اللاحرب واللاسلم المريح فى القوات المسلحة، يجب استبداله، بيقين، أنه «يجب أن نحارب لاستعادة الأرض».

حملة نفسية بدأت لإشعال روح جديدة بين الرتب والصفوف، زارهم بنفسه في مواقعهم، وتولى شرح الأمور لهم، مركزا على أن السبيل الوحيد أمام مصر، هو المبادرة بالهجوم. جعل كل رجل واعيا، أنه التراب المصرى، وهو ترابه لآلاف السنين - ذلك الذى سيقاتل لتحريره. «والأمر الجوهرى الثانى، هو أن رجالنا ثقتهم فى أسلحتهم» ؛ حيث كان هناك شعور فى القوات المسلحة بأن الاسلحة الروسية، خاصة المدرعات والطائرات، أقل كفاءة عن تلك التى تمد الولايات المتحدة بها إسرائيل؛ والسبيل الوحيد لمجابهة هذا الاعتقاد، هو التطوير التكتيكى، الذى يتيح للمدرعات الروسية والمعدات الأخرى الأقل تطورا، الفرصة لاستخدامها لأقصى درجة، مع فرض برنامج تدريبى مكثف، تستطيع القوات معه استيعاب واستخدام أسلحتهم، وبذا رسخ بداخلهم أن الاستخدام السليم لها، يصبح مؤثرا ضد العدو.

اختيرت أماكن التدريب على اتساع الدلتا ومنطقة القناة، حيث تتشابه مع الأوضاع الحالية، وتتوافق مع طبيعة المهام التى ستوكل إلى القوات، بالذات عبور القناة. قامت القوات بتدريبات مكثفة لهذه العملية، على ممرات مائية عريضة، مثل وادى النطرون بالصحراء غرب القاهرة، فى الملاحات جنوب الاسكندرية، والممرات المائية العديدة بدلتا النيل، وحتى الضفة الغربية للخط المزدوج الممتد من قناة السويس قرب القنطرة. ثم بناء استحكامات مماثلة لدفاعات الضفتين الشرقية والغربية. عبور القناة واختراق خط بارليف، تم التدريب عليها مرات ومرات. الجيش المصرى أساسه المشاة؛ وبمواجهته لعدو مدرع، نتج أن هزم مرتين فى حربين سابقتين. ولكى يتخلص جندى المشأة من هذا التأثير النفسى السلبى تجاه الدبابات، جعلهم الفريق إسماعيل يتدربون كصائدى دبابات، باستخدام صواريخ موجهة مضادة (صواريخ ميلوتكا المحمولة على الكتف) قواذف الصواريخ والقنابل اليدوية المضادة للدبابات. بعد إعادة التدريبات بهذه الكيفية، بدأ الرجال يقتنعون بأن فرد المشاة يستطيع القضاء على الدبابة إذا حصل على التدريب والسلاح المناسبين.

هكذا، وبتوقيت مناسب، أصبح الرجال على ثقة بأن أسلحتهم وتجهيزاتهم ستمنحهم النصر. كما أن الفريق إسماعيل كان مصرا على عدم تحميلهم أعباء لايستطيعون تنفيذها. هناك بعض التعليقات فى الصحف الغربية، تنتقد الفشل المصرى

فى استغلال نجاح العبور بالتوغل فى سيناء، بينما تترنح القوات الإسرائيلية تحت وطأة الصدمة. الحقيقة، أنه لم تكن هناك أية نية للقيام بأية عمليه «تتجاوز الغرض الذى حدده الرئيس السادات، هذا الغرض أعلن عنه بوضوح: القيام بهجوم محسوب وكاف لإحداث أزمة تكون كافية لإقناع القوى العظمى بأن الوضع فى غرب آسيا أصبح من الخطورة أن يترك بدون حل نهائى. من البداية، كان الفريق إسماعيل واقعيا فى تحديد قدرات القوات المصرية، وأهداف المهمة العسكرية؛ لهذا شكل اللواء عبد الغنى الجمسى - رئيس عملياته - الهدف العسكرى فى أبسط إطار عمل:-

القيام بهجوم محدود لإقامة رأس جسر عبر القناة، الحجم الحقيقى لرأس الجسر الذى سيقام، يتقرر بعد النظر فى البدائل التى ستوضع بواسطة قادة الألوية عند ما يقومون بعمل تقديراتهم.

فى بداية شهر يناير ١٩٧٣ ، صدرت الأوامر للقادة الأساسيين بالبدء فى المشروع.

تقديرات الفريق إسماعيل لقوات العدو كانت كالآتى:-

«ميزاته: فى أنه يملك تفوقا جويا، مهارة تكنولوجية وتدريبا كفئا، وأن بإمكانه الحصول على معونة فورية من الولايات المتحدة».

«نواحى قصوره: خطوط اتصال طويلة وممتدة، عدم الاستعداد لتقبل خسائر بشرية، أوضاع اقتصادية تمنعه من تحمل وطأة حرب مصابرة، وأيضا غروره السافر».

أما بالنسبة للقوات المصرية، فكانت نواحى القصور: تدنى كفاءة المدرعات والطيران، إنخفاض الروح المعنوية نتيجة لسلسلة من الهزائم الساحقة، وبطء الحركة.

أما الميزات: التفوق العددى فى القوة البشرية والمعدات، القتال المتلاحم، ودفاع شبه كامل يغطى منطقة القناة، يوفره نظام صواريخ سام متكامل.

تأسيسا على هذه المراحل، تقوم الخطة الشاملة للعملية استراتيجيا، على هجوم جبهوى عريض ممتد على طول قناة السويس، لكن محدد فى العمق، حفاظا على الغطاء الجوى الذى توفره صواريخ سام، وتكنيكيا، تقوم الخطة أساسا على عمليات المشاة المدعومة بالمدرعات. هذه الأخيرة تعد نقيضا رئيسيا لكل التكتيكات المتعارف عليها، لكنها كانت مجزية.

الهجوم على جبهة عريضة، قد يجبر إسرائيل على توزيع قواتها الأرضية والجوية حال القيام بتوجيه ضربات مضادة على امتداد الجبهة، وهذا «يقلب مزايا مواقعهم ويجعلها فريسة للضعف».

الخطة التكتيكية كانت متناسقة؛ الهجوم عبر نهر، يعد من أصعب الأمور فى كل العمليات العسكرية، ولم يكن هذا الذى يواجه المصريين مجرد عبور عادى لمانع مائى، لكن مجموعة من عبور مائى، وعملية إنزال على امتداد الجبهة على «شاطىء» معاد. على القوة المهاجمة أن تقوم بعملياتها على جبهة امتدادها ١٠٠ كم بدون مساندة المدرعات؛ فقط عندما تقام الكبارى يصبح بإمكان المدرعات العبور إلى الشاطىء الشرقى. المشاة ستجد نفسها مضطرة للاعتماد على أنفسهم لساعات طويلة.

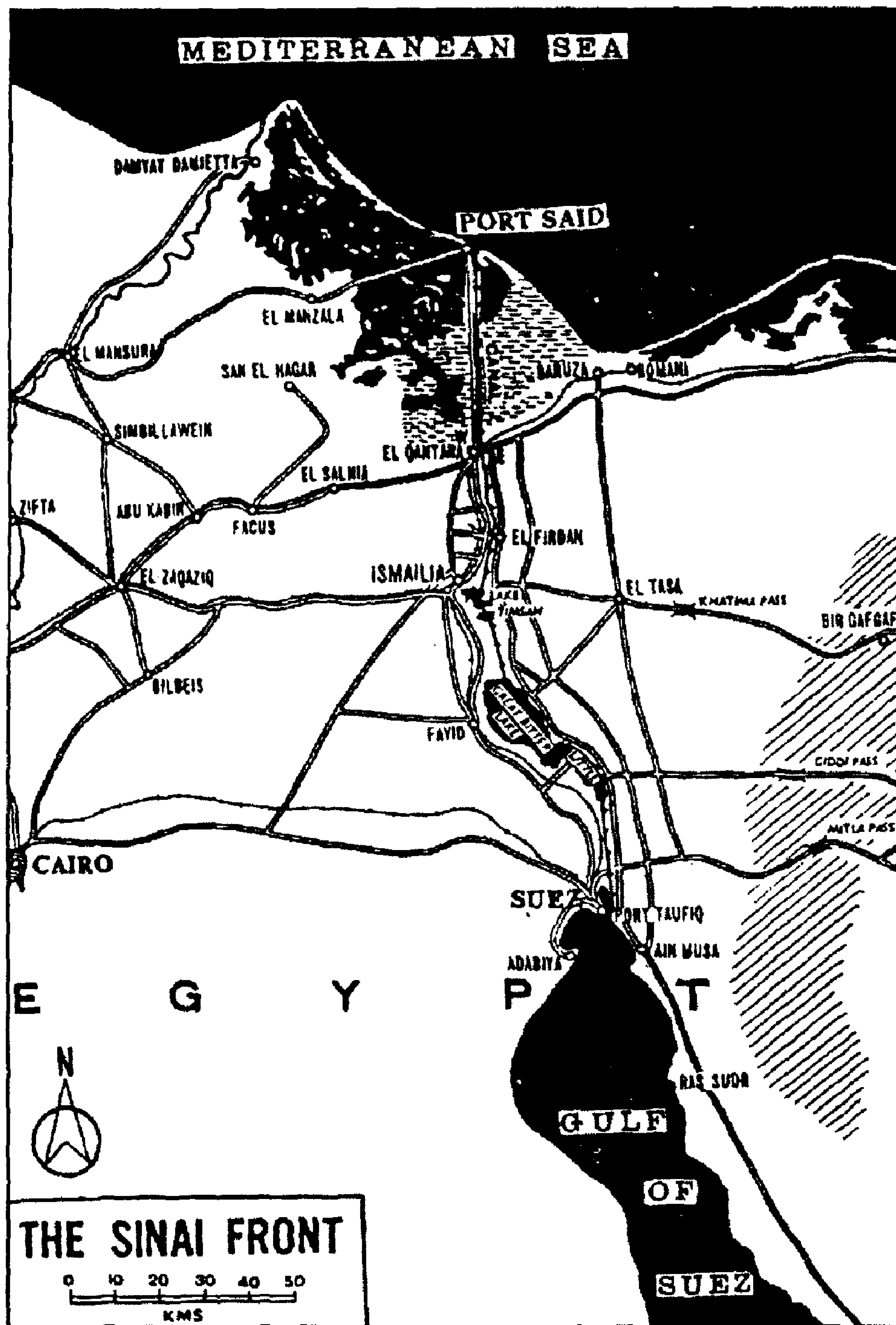
فى هذه الحالة، أثبتت وحدات الصواريخ المحمولة بواسطة الأفراد، تكتيكيا، أنها عنصر حسم فى إنجاح عمليات رأس الجسر.

كان هذا لب الخطة التى وصفها الفريق إسماعيل

انكب القادة على الخطة، ودرسوا بعناية كافة التفاصيل لشهور عدة، تم خلالها أخذ كافة البدائل فى الاعتبار، مثل عمق رأس الجسر الذى يجب إقامته؛ البعض من قادة المدرعات فى القيادة العامة أشاروا بالمد حتى خط الممرات – وهى الأرضى المرتفعة فى صحراء سيناء والتى تقترب فى القناة من جهة الجنوب، لكنها إلى الشمال تميل مبتعدة إلى الشرق تجاه العريش. أما الواقعيون، فقد وضعوا نصب أعينهم عنصر المدى للغطاء الجوى المتاح بصواريخ سام. وإذا صارت العملية مضمونة النجاح، دون السماح بأى اختراق – من خلال نقاط ضعف – من عملية متميزة متحركة للعدو، تمكنه من تطويق القوات المهاجمة، سيصبح بالامكان مد رأس الجسر من ١٥ إلى ٢٠ كم؛ وهو مدى غطاء صواريخ سام.

القيادة المشتركة:

من المناسب عند هذه المرحلة، أن نسأل عما إذا كان لهدف عسكرى محدد تماما على إحدى الجبهات، أن يلبى استراتيجية حرب هجومية، يشنها شريكان، من جبهتين



(خريطة جبهة سيناء)

منفصلتين بعيدتين، ومع أن العبء الأكبر يقع على الجبهة الجنوبية، فالهجوم السورى على هضبة الجولان، له نفس الأهمية بمساهمته في الخطة الاستراتيجية العامة.. والسؤال: إلى أى مدى كان التنسيق بين الأهداف العسكرية على الجبهتين..؟

في يناير ١٩٧٣، افتتح في أحد مباني مدينة نصر مقر قيادة مشتركة، لاتحاد عربي مكون من مصر وليبيا وسوريا. ومع أن ليبيا انسحبت من الحرب لاحقا، فقد بقى هذا المقر - القيادة المشتركة - هو القيادة العليا أثناء الحرب، بالفريق إسماعيل كقائد أعلى، ومن الجيش المصرى، اللواء بهى الدين نوفل - وهو الذى خلف الفريق الجمسى كمدير للعمليات-، ومن الجانب السورى، كان اللواء درداري، رئيس العمليات بالقوات المسلحة السورية، اتفق من البداية، على أن تكون القيادة العربية المشتركة، تنسيقية، وليست قيادة آمرة. العمليات القتالية قياداتها منفصلة، بواسطة القيادة العامة المصرية، والسورية، كما أن هناك تضمينا لهذا الاتفاق، أن أى قوات عربية أخرى ستشارك، تكون تحت قيادة أى من القيادتين العامتين .. المصرية والسورية، وليس تحت إمرة القيادة المشتركة..! لأن الأخيرة ليست لديها سلطة إدارة العمليات. من سوء الطالع، أن خلق هذا الاتفاق، الذى احتفظ به سرا لأسباب أمنية، حالة من الحنق لاحقا، وبالذات لدى العراق، عندما أرسل قوة كبيرة لتشارك في الحرب، ثم وجد بعد ذلك أنها ستكون تحت إمرة القيادة السورية. تحددت مسئولية القيادة العربية المشتركة، لثلاثة أسباب منطقية رئيسية:

الشروط الأمنية لحماية السرية، الخداع. والأكثر أهمية.. التنسيق لتوقيت الهجوم. هذا الترتيب للمسئوليات المحدودة عانى من ضعف: نقص سلطة مركزية للإدارة السياسية الاستراتيجية والعملية. على كل، فيجب الأخذ في الاعتبار، أنه عندما وافق البلدان على إقامة هذه القيادة، كانت أهدافهما السياسية متباينة؛ هدف الحكومة المصرية هو تحرير الأرض العربية المحتلة، بينما انصب الهدف السياسى لسوريا - طبقا لسياسة حزب البعث الحاكم - على إسقاط الحكومة الصهيونية في إسرائيل. بقى هذا الهدف لدى الرئيس الأسد حتى أواخر صيف ١٩٧٣، ليوافق بعده على تحديد الهدف السورى ليتوافق مع المصرى.

الحاجة إلى المفاجأة:-

تشدد كتب العلوم العسكرية، على أن المفاجاة، هى المفتاح الرئيسى عند التخطيط لأى هجوم، فهى تساعد القوة المهاجمة، ليس فقط على الإمساك بالعدو الغافل، وبذا تملك ميزة المبادرة لمدة أطول، بل تقلل من الخسائر، خصوصا عند مهاجمة استحكامات دفاعية كخط بارليف، وفى حالتنا هذه، العرب فى حاجة ماسة لإنجاز توفره المفاجأة الكاملة. تجربة حرب ١٩٦٧، أثبتت أن الاستراتيجية الاسرائيلية للتصدى لأى مواجهة مفاجئة مع العرب، تقوم على نظرية الضربة الإجهاضية. النظام الاقتصادى العسكرى العام فى إسرائيل، وضع على أساس تحويل القوة البشرية من التصنيع إلى المتطلبات العسكرية؛ ولهذا الغرض، وضعت خطة دقيقة للغاية للتعبئة بسرعة البرق - ثبت أنها الأكفأ على مستوى العالم - قامت بوضعها الأركان العامة الإسرائيلية، وطبقا لها، إذا التقطت المخابرات الإسرائيلية أبسط إشارة عن أية نية حربية للهجوم، توجه ضربة إجهاضية - جوية وأرضية، سواء على جبهة قناة السويس أو دمشق. إذن فلا بد للقيادة العربية المشتركة من التأكيد على أن النية لشن هجوم، يجب الحفاظ على سريتها بأى ثمن - تجاوزت النجاحات المصرية كل التقديرات المتوقعة نتيجة المفاجأة فى التوقيت.

يجب أن تكون المفاجأة من الضخامة، بحيث تفقد ميكانيكية رد الفعل الإسرائيلى توازنه. القيادة العامة قدرت أن رد الفعل الإسرائيلى سيتخذ شكلين:-

«بعد شن الهجوم على القناة، سيكون على القيادة العليا الإسرائيلية التقيد بـ ٤٨ ساعة، المحددة لتنفيذ خطة التعبئة، ثم شن هجومها المضاد المقرر بعد هذه الفترة، أو الاستسلام للذعر، بالتخلى عن تدابير التعبئة المخططة بعناية، وتفتيت احتياطييهم، الأمر الذى يؤدى إلى كارثة. من الممكن إجبارهم على الشكل الأخير للحركة، إن كانوا غير مستعدين بالمرة لمستوى الهجوم المصرى والتصعيد السريع له. الفريق إسماعيل كان مصمما على انجاز ذلك، وكان على واضعى الخطط المصريين أخذ ذلك فى اعتبارهم فى بذل الجهود للحفاظ على السرية، تمتع العرب بميزتين، واحدة نفسية، والأخرى سياسية؛ الميزة النفسية التى أخذت فى الحسبان، هى الاعتماد على النعرة العبرانية للإسرائيليين، والنمط الصارم الذى مورس أثناء حربى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ - وبالذات

الأخيرة – الذى اكتسحوا به العرب، وماتبعه من دعاية حرفت الأسباب التى أدت إلى هذه الانتصارات الساحقة، التى ولدت لدى الإسرائيلى العادى غطرسة عنصرية عارمة، استهدفت الكفاءة القتالية لدى العرب، ولم يحاولوا تصحيح هذه الفكرة، بعد الغارات ضد المواقع المصرية على خليج السويس وأماكن أخرى فى ١٩٦٨ – ١٩٦٩، والتى كان رد فعل المدافعين متدن وغير مؤثر للغاية. وهكذا.. بحلول ١٩٧٠ أصبح الإسرائيليون فريسة دعايتهم، وصاروا مقتنعين ضمنا بأنهم لايغلبون، وعلى المستوى السياسى، بدت وعود الرئيس السادات عقيمة عن «سنة الحسم»، وبياناته الرسمية المتعلقة بمعارك تحرير سيناء، التى أكدت تدريجيا، الفكرة الإسرائيلية بأن العرب يقومون بحركات مجردة، لاتصلح للدخول فى معركة طويلة قادمة. قد يضعون الخطط، ويقومون بعمل مناورات، ومركزة قوات على الجبهة؛ لكن وضعهم لايسمح بشن هجوم عبر قناة السويس، أو أى مكان آخر.

هذا ما عمد الرئيس السادات والفريق إسماعيل إلى الإيهام به، بطريقة تنمى هذا الاحساس الكاذب بالأمان لدى الإسرائيليين.

أما الميزة الثانية، وهى التى أتت مصادفة فى الطريق، وهى انغماس إسرائيل فى مواجهة نشاط الفدائيين الفلسطينيين فى الأراضى السابق احتلالها، وفى الخارج، طوال السنوات الثلاث الأخيرة.

ومع ندرة القوة البشرية فى جميع أنواع الخدمات الإسرائيلية، كان تركيز المخابرات الإسرائيلية المنصب على نشاط الفلسطينيين فى غرب آسيا وأوروبا، يعنى سحب العدد الأكبر من عملاء المخابرات من واجباتهم العادية التى تتعلق بمسح القطاعين المصرى والسورى. لم يكن عدم وعى الحكومة الإسرائيلية بعواقب الثغرات الأمنية التى نتجت عن تحويل نشاط العملاء؛ بل إن إسرائيل افترضت حقيقة أن العرب لجأوا إلى الإرهاب، وهذا يعطى مؤشرا على أنهم لاينتوون حربا تقليدية.

الجنرال ديان، وزير الدفاع الإسرائيلى وأتباعه فى رؤساء الأركان، سجلوا أن لجوء العرب إلى الإرهاب، بالضبط، لعدم اجترائهم على مواجهة القوات المسلحة الإسرائيلية فى معركة مفتوحة.

على كل حال، يبقى ضرورة إخفاء العرب الخطوات الهامة التى ستتم عن الإسرائيليين، وذلك قبل شن هجوم العبور. بداية يمكن الحفاظ على سرية القرار بسهولة، لأن المعرفة محصورة بين الرئيس السادات والفريق إسماعيل، والتخطيط، وقد تم إسباغ صفة التخطيط الاستراتيجى الروتينى عليه، إنحصر داخل غرف مجلس القيادة العامة. ومع كل ذلك، فالاستعدادات وتقدمها، تطلبت أعدادا تتزايد باطراد، كالاستطلاع والداوريات، وجب الأمر بها، تحرك القوات للأمام، الذخيرة، المؤن، معدات إقامة الكبارى.. وكل التحركات العديدة الأخرى الضرورية للقيام بعملية لها هذه الخاصية وجب بدؤها. فى النهاية، خلال الأيام الأخيرة قبل العملية، كان الانتشار الفعلى لوحدات المقدمة، دباباتهم وعرباتهم الأخرى، الكل يترك علاماتهم على الرمال، ظاهرة لالتقاطها بواسطة الاستطلاع الجوى الإسرائيلى وطائرات SR71 وأجهزة المراقبة بالأقمار الصناعية الأمريكية؛ وحتى الضوضاء الناتجة عن تحركات الخطوط الأمامية، لم يمكن طمسها عن المراقبين الإسرائيليين على بعد بضع مئات من الأمتار من خط بارليف. لو تمكن الإسرائيليون من ترجمة هذه الأمور، باعتبارها نية شن هجوم، لكان رد الفعل فوريا وحاسما فى شكل ضربة إجهاضية ضد العرب تسبق خططهم التى أعدوها بعناية، ولكى تبقى هذه النوايا بعيدة عن الإسرائيليين، قام العرب بوضع خطة خداعية محكمة وواضحة، تتماشى يدا بيد مع الإجراءات الأمنية؛ أى تحركات يقومون بها، ويكتشفها الإسرائيليون، يجب أن تبدو كتكرار لتدريبات سابقة... التى تتخذ وضع الحرب، أو دورة مناورات الخريف العادية لإبقاء القوات مشغولة بتأكيد فلسفة شغل الجيش بأعباء عادية. وفى حالة اصطدام هذه التحركات بالإسرائيلين فعلا فى خلال عملية مدبرة عنها كروتين، فيجب إظهارها دفاعية، لا هجومية. فى كل هذه الترتيبات، فاق نجاح المصريين والسوريين كل التوقعات.

وضع الفريق إسماعيل خطة خداعية محكمة ومعقولة؛ بدأ فى تحسين الدفاعات بالصفة الغربية، أمر برفع ساتر الرمال بامتداد القناة - الذى كان منخفضا جدا عن مثيله على الجانب الإسرائيلى، أمر بإقامة سلسلة من المواقع تعلو الساتر الرملى ذاته، بدت هذه كنسخة من نقاط الدفاع القوية التى بناها الإسرائيليون بفارق عدم إقامة تحصينات متقنة؛ ولقد أفادت هذه الإنشاءات باتخاذها نقاطا للمراقبة، وهو ما كانت

تفتقده القوات المصرية. مجموعة من أعمال التحصينات الدفاعية، أبقت القوات المصرية مشغولة.. ومكشوفة... أمام نقاط المراقبة الإسرائيلية عبر القناة. وبمرور الشهور، كان الانطباع العام المستقر هو أن الجيش المصرى مشغول بتقوية دفاعاته، وكذلك كل ما يتعلق باستعدادته الدفاعية، مثل تكديس أكوام من الذخيرة، وتحسين وسائل الاتصال، وغيره مما لا يثير الشكوك.

في سبتمبر، نشرت الأهرام خبرا عن أن الجيش، يعد قائمة بالضباط الذين يرغبون فى أداء فريضة الحج، كما أعلنت عن زيارة وزير الدفاع الرومانى للقاهرة فى منتصف أكتوبر، الشيء الذى ساعد على هجوع الإسرائيليين لحالة غير حقيقية من الأمن، يمكن الحكم عليها كرد فعل لإنذارات صدرت إليهم من إدارة المخابرات المركزية الأمريكية، التي ساورتها الشكوك بدءا فى الأسبوع الثالث من سبتمبر، عن استخدام الجيش المصرى لقطاعات كاملة فى مناوراته، بالإضافة إلى قيام محطة تنصت الكترونية أمريكية، مقامة فى مكان ما في إيران بالتقاط مجموعة كبيرة من الإشارات فوق منطقة اتصالات القناة. فى نفس الوقت، وردت تقارير عن تحركات سورية لنشر قواتها أمام دمشق. مررت ال C.I.A كل هذه المعلومات لإسرائيل، وسألت مخابراتها عما إذا كان ذلك يعد مؤشرا لاستعدادت عربية للقيام بهجوم.. قررت إسرائيل أنه ليس كذلك. بالضبط مثلما توقعت القيادة المصرية العليا، أن إسرائيل أخطأت التوقيت فى الحرب.
أشياء كثيرة كانت تحدث فى العالم، وفى إسرائيل نفسها؟ كانت الأذهان مشتتة، ففى نيويورك، افتتحت الجمعية العامة للأمم المتحدة إجتماعاتها، وكانت إسرائيل على علم بخطط وزير خارجية أمريكا الجديد - الدكتور كيسنجر - ومشروعه الخاص بتسوية شاملة غرب آسيوية. وفى الداخل، كان السياسيون مشغولين يبحث خططهم للانتخابات العامة فى أكتوبر. لكل هذا التباين، كان فى اليسير تجاهل أى أخبار من أى وكالات استخبارية. مؤكد أنه ليس بسبب نقص المعلومات كانت حسابات إسرائيل خاطئة فإحدى محطات التنصت التى يقوم بتشغيلها أمريكان، والمنتشرة فى صحراء سيناء، استطاعت التقاط التحركات المصرية، وحتى ندرة عمليات الإستطلاع الجوى، بسبب غطاء صواريخ سام، لم تكن العائق الخطير، فالقمر الصناعى samos والذى أطلق من قاعدة فاندربرج الجوية فى كاليفورنيا، كان مصمما خصيصاً للدوران فوق منطقة غرب آسيا، وكانت تقاريره متاحة بدون أية عوائق للمخابرات الإسرائيلية.

ولتثبيت الإسرائيليين في وضع الرضى عن النفس، والاطمئنان إلى أن الأوضاع في مصر عادية، قام الرئيس السادات بالإقدام على ما لا يجرؤ رئيس أى دولة مجرد التفكير فيه، وهو شن هجوم يعلم أن الكل يتوقعه، فقد أعلن أنه سيحارب. في ٢٨ سبتمبر، أثناء إلقاء خطابه في الذكرى الثالثة لوفاة الرئيس عبد الناصر، استطرد: « الإخوة والأخوات، لعلكم لاحظتم أن هناك موضوعا معينا لم أذكره، إنه موضوع الحرب. وقد كان ذلك متعمداً، نحن نعرف هدفنا، ونحن مصممون على بلوغه، لن ندع أى جهد أو تضحية لانجاز هذا العمل، أنا لا أعد بشيء، لن أناقش تفاصيل، وعلى كل أقول إن تحرير أرضنا هو العمل الأول والرئيسى الذى يواجهنا، بإذن الله ستنجز هذا العمل. إنها إرادة أمتنا، إنها إرادة الله». أى تحديد ضمنى في هذه الرسالة كان مبهما في توقيته، للإسرائيليين، بدت كأنها سنه حسم« أخرى، من نوع ما يخدر به السادات شعبه. في اليوم التالى وقعت حادثة شوناو schonau، قد تكون ضربة حظ، وقد تكون عملية لتحويل الإنتباه، خططت بمهارة لإنهاك الإسرائيليين، في ا لنمسا، إستولت قوات الصاعقة الفلسطينية المنتمية لسوريا،على قطار قادم من موسكو،حاملا يهودا سوفيتين إلى فيينا، ثم طلبوا من النمساويين إغلاق مركز التجميع والترحيل في قصر شوناو». إستجابة النمساويين لهذا الطلب أغضبت السلطات الإسرائيلية بشدة، لدرجة أنه بدءا من الأسبوع التالى، أصبحت الحكومة والقادة العسكريين والمخابرات الإسرائيلية، غارقين تماما في الإنعكاسات التى نتجت عن هذه الحادثة، لذا لم يحظ الإنذار الذى وجهه الجنرال ديان بالانتباه اللازم، وكان قد وجهه من عدة أيام سابقة، ففى الأسبوع الأخير من سبتمبر، وردت تقارير عن تحركات سورية مدرعة، للجنرال ديان،الذى قام بإنذار القوات التمركزة على الجولان والسويس، وعزز جبهة الجولان سرا باللواء السابع المدرع.ذكر أن هذا القرار الذى اتخذته القيادة الإسرائيلية العليا كان من الأهمية حيث أنه بدون اللواء السابع المدرع،كانت القوات السورية قد أكتسحت الجولان في أول هجوم لمدرعاتها. بعض القادة الإسرائيليين الآخرين كانوا أقل تفهما. في لقاءات سابقة مع المراسلين الصحفيين، أعلن المتحدث الإسرائيلى أن القادة العرب غير مستعدين للحرب، وعلى أسوأ الفروض ، فقد «يخطئو الحساب» ويقومون بشن هجوم،لكن قوات الدفاع قادرة على التعامل معها. المخابرات الأمريكية، متأثرة بالمخابرات الإسرائيلية

بشدة، آمنت بنفس النتيجة: العرب غير قادرين على الحرب..، حتى الجنرال ديان، بالرغم من إنذاره القائم على وضع جبهة الجولان، لم يصدق حقيقة أن قد تكون هناك حرب. لقد وضع القوات فى وضع الإستعداد،إلا أنه توقف عن الأمر بأى تعزيزات عامة أخرى. إجراء قد يكلف خسائر بملايين الجنيهات. وأثناء إجتماع عقد صباح يوم قبل الحرب، نصح المسز مائير بعدم إصدار أوامر بالتعبئة، لأنه من وجهة نظره - لن يكون هناك حرب. «لم أكن الوحيد الذى اعتقد ذلك»ذكر ذلك لاحقا،«أنا لم أسمع أحدا يقول أن الحرب وشيكة الوقوع».

الفصل الثالث

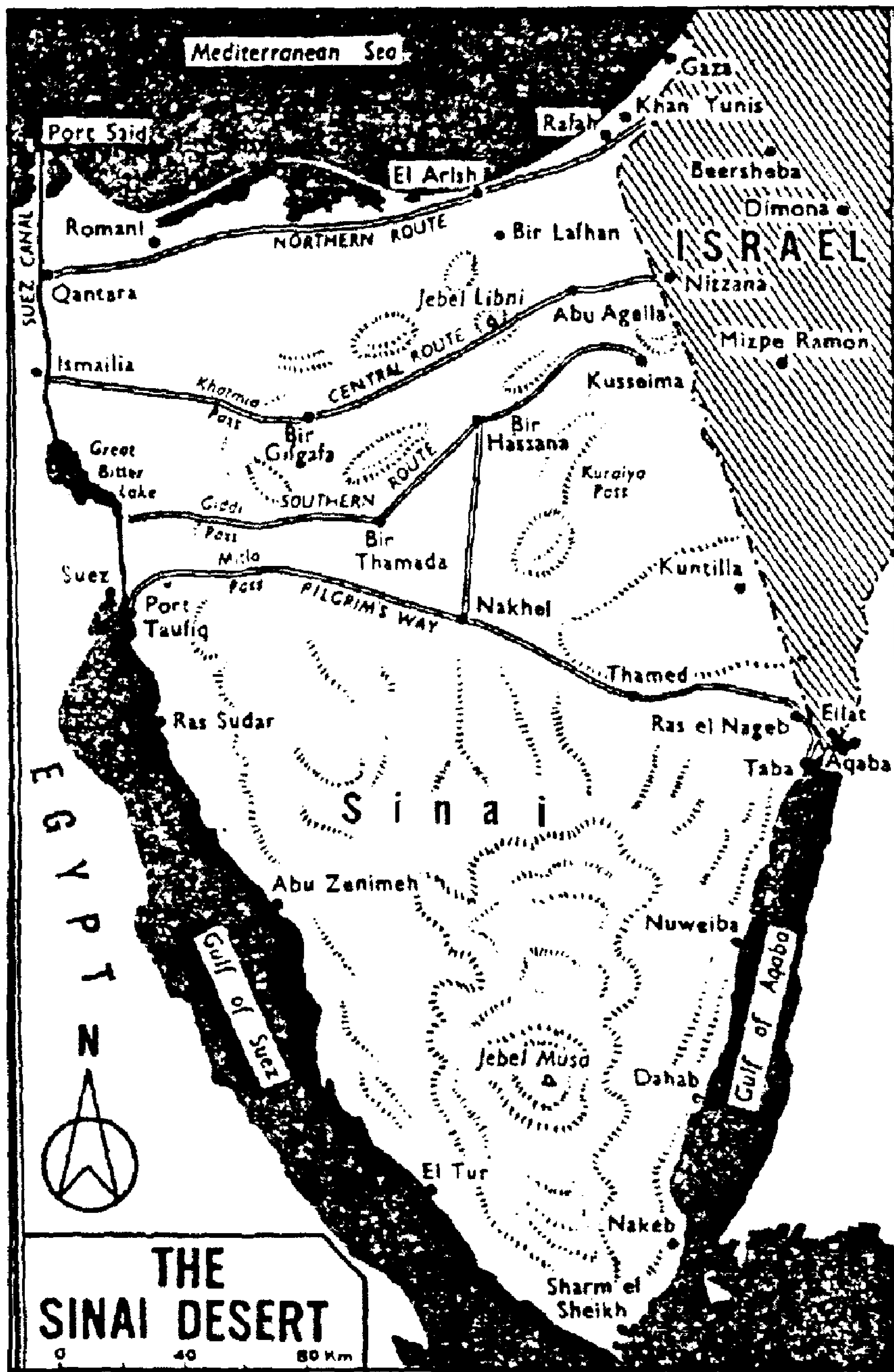
خطط اسرائيل فى سيناء

سيناء، أو التيه – اسمها العربى. عبارة عن مثلث معكوس فى الرمال، وصحراء جبلية تشمل الجزء الأسيوى من دولة مصر، فاصلة دلتا النيل ومنطقة القناة عن الحدود الإسرائيلية في النقب. اجتاحت قوات الدفاع الإسرائيلية سيناء خلال حرب الستة أيام في يونيو ١٩٦٧ ، وبقيت تحت الإحتلال من وقتها. الجزء الذى يعنينا هنا، هو الجزء الشمالي الغربى الذى يشمل الضفة الشرقية لقناة السويس، والممتد من شاطئ البحر المتوسط فى الشمال،حتى خليج السويس في الجنوب. في هذه المنطقة بين القناة وخط الأراضى المرتفعة، التى تبدأ عند رأس سدر في الجنوب، وتتحول تدريجيا نحو الشمال الشرقى للعريش، تم نشرالجزء الأكبر من قواتهم فى سيناء، وأقاموا دفاعاتهم الرئيسية. أقيمت الدفاعات الرئيسية على قناة السويس نفسها ، عائق حربى مدهش؟ ورغم أن أقصى عرض للقناة يبلغ حوالى ٩٠ مترا،مما يسهل عبوره بواسطة جماعات المشاة المغيرة بواسطة قوارب اقتحام، وليس مجرى مائى هين، يمكن وضع الخطط المضادة، لتسهيل عمليات عبوره، فقد أقيم على هينة شاطئ حجرى مصفح مرتفع بشكل رأسى، الأمر الذى يجعل من الصعوبة عبوره بواسطة معدات عسكرية. تقنية تتطلب مساواته بمياه القناة،لأنها تخضع لعمليات المد والجزر من كلا الجانبين، المتوسط، وخليج السويس حيث التيار تبلغ قوته فى القناة من ٣ : ٤ عقدة والتى تعكس حركتها عند المد. وفوق ذلك، عزز الإسرائيليون خط القناة كعائق عسكرى، بإقامة خط بارليف أثناء حرب الاستنزاف.

مائه عام حفر في القناة، كونت روابى من الرمال على الجانب الشرقى ، أكثر بكثير عما كونته على الجانب الغربى الزراعى، باستخدام إسرائيل لهذه المخلفات الميسورة. أمكن لها إقامة حاجز رملى ممتد، يرتفع فى بعض المواقع إلى ١٨ مترا، لمنع أية محاولة قد تقوم بها قوات ميكانيكية، وليوفر ساترا يحجب عن المصريين الذين يحتلون الضفة الغربية.هذا المانع الإضافى أمتد فى العمق من ١٠ إلى ١٥ مترا. حائط حقيقى من الرمال الناعمة التى تتطلب عملية هندسية فى الأساس لنقضها. خلف هذا الحائط

العريض، أقامت إسرائيل خطين من النقاط الحصينه عددها ٦٠،على نمط خط ماجنيو، الأمامي من٤٠ نقطة حصينة على مسافة بضع مئات من الأمتار من الحائط الرملي، وموزعة على أساس تصور اقتحامات مصرية من ناحية الإسماعيلية - القنطرة، والامتداد بين البحيرات المرة وميناء السويس. الملاحات تقع إلى الشمال (جزئيا، تحت الإحتلال المصرى)، وشواطئ البحيرات المرة، لم تكن بنفس قوة التحصينات كباقي الخط. الخط الثاني مكون من ٢٠ نقطة حصينة، وأقيم على مسافة من٢إلى ٥كم خلف الخط الأول:

كل نقطة حصينة، مكتفيه ذاتيا، ومصممة لتستوعب من٨٠إلى ١٠٠ فرد، الحائط الرملي الخارجي يغطي منطقة مساحتها١٠٠×٦٠مترا بارتفاع ٢٠ مترا، والجزء المواجه مغطى بالأسلاك الشائكة والألغام الموزعة بعناية ضد الأفراد. في المنتصف أستقر مركز القلب الدفاعي، مبنى من ثلاثة طوابق، سقفه كتل خرسانية مقواه بالصلب والأسمنت سمكها٦أمتار، وتعد واقيا ضد أثقل قنابل المدفعية أو الطائرات، الطابق العلوى للعمليات، منتفشا بالمدافع الرشاشة والأسلحة المضادة للدبابات ، الطابق الثانى للمؤن والذخائر، والثالث للمعيشه. وكلها مجهزة بالكهرباء ومكيفةالهواء.الصرح بكامله يشبه هرما مصغرا طارت قمته. لدخول النقطة الحصينه،فمن ممر خلفي، يدور صاعدا لأعلى حتى مركز الموقع. حوائط المدخل الداخلية، صممت لتكون مرابض للدبابات،كل نقطة معينه تحفظ من٧ إلى ٨دبابات. طريق أسفلتى مواز للقناه يجرى خلف النقاط الحصينه بطول خط بارليف بكامله، وطرق تربط الخط الأول بأخرى بنيت في العمق.على مبعدة من الخط الثاني للخلف، أقيم طريق شمالي. جنوبي شيد خصيصاً لتحركات قطع المدفعية الثقيلة الموجهة من نقاط المراقبة على القناة. احتياطيات مدرعة موضعية موزعة على أبعاد متناسبة، بامتداد هذا الطريق.مهمة المدفعية هي القضاءعلى أية عملية عبور مشاة، بينما تقوم الدبابات بشن هجوم محدود مضاد لرد أو تدمير أية جماعات تنجح في عبور القناة. ثلاث مراكز قيادة للقطاع أقيمت على الثلاث طرق المؤديةإلى قناة السويس، مع إشراف قيادة القطاع الأوسط المقامةعند الشجرة على طريق بير جفجافة على بعد ٨كم خلف خط الدفاع الرئيسي. هذه التركيبة في النقاط الحصينة. مواقع مدفعية ودبابات وقيادة مراقبة وتحكم ،كونت خط بارليف.



(خريطة صحراء سيناء)

أربع طرق تتجه من خط بارليف، عبر الجزء الشمالي من سيناء، لتصل إلى الحدود الإسرائيلية، كل منها يمر سواء من خلال خط الممرات أو من أرض جرداء صخرية، وبحارمن الرمال (مساحات من الرمال الناعمة لا تستطيع الدبابات عبورها).

الطريق الشمالي يبدأ من القنطرة شرق، متاخم للمستنقعات، مارا برمانه وبامتداد الشاطئ حتى العريش. الطريق الأوسط يبدأ من القناة قبالة الإسماعيلية، مارا من خلال مركز الإتصال عند الطاسة، على ممر الخاتمة حتى أبو عجيلة، ثم حدود إسرائيل جنوب رفح.الطريق الجنوبي، يبدأ من جنوب البحيرات المرة، إلى ممرالجدى حتى حدود إسرائيل شرق القسيمة. الطريق الأخير المعروف بأسم طريق الحجاج، وهو طريق قديم كان يستخدمه الحجاج المصريون المسافرون إلى مكة، يبدأ من بور توفيق إلى ممر تلا حتى رأس النقب قرب ميناء إيلات الإسرائيلية. خط الدفاع الإسرائيلي كان متصلا بجميع خطوط الممرات التي تتحكم في الحركة شرق وغرب سيناء. فمن بور توفيق يتعرج الخط متوازيا مع القناة لمسافة في حوالي٥٠ إلى ٦٠كم، وفي شمال الخاتمة يتحول شمالا بشرق تجاه العريش.

قوات الدفاع الإسرائيلية:

الميزان العسكرى ١٩٧٣ - ١٩٧٤، نشر بواسطة المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية بلندن، يبين حجم القوات الإسرائيلية الثابت بثلاثين ألف جندى وخمسة وثمانين ألف مجند، وبعد التعبئة، يبلغ حجم قوات الدفاع الإسرائيلية ثلاثمائة ألف في ظرف ٧٢ساعة، معظمهم من الأحتياطي الذين يتوقع استدعاؤهم للخدمة وتواجدهم خلال٤٨ ساعة. القيادة العامة لقوات الدفاع الإسرائيلية، مقرها تل أبيب. رئيس الأركان للثلاثة أفرع. هو الجنرال دافيد البعازر(القائد العام للقيادة الشمالية خلال حرب الأيام الستة) .تحت القيادة العامة، تنقسم إسرائيل إلى ثلاث قيادات: شمالية، مركزية، جنوبية، مسئولة بالتالي عن جبهات سوريا(ولبنان)، الأردن، ومصر.تقسيم الجيش على أساس ألوية كأفضل التشكيلات، ويحتوى على: ٣٧ كتيبة: ١٠مدرعة، ٩ميكانيكية، ٩مشاة،٥مظلات،٣مدفعية،قوة ميكانيكية ضخمة تشمل نسبة كبيرة مدرعة: ١٧٠٠دبابة(٤٠٠ باتون أمريكية١٠٥م، ٢٥٠ ستوريون رفعت كفاءتها

بتزويدها بمدافع ١٠٥م، ٢٠٠شيرمان معدلة، T١٠٠ ٥٤، ٥٥روسية أسرت من المصريين في ١٩٦٧، وحوالي ١٥٠من أحدث إنتاج أمريكي للدبابة M٦٠المتوسطة) .وبخلاف الدبابات، فهناك حوالي ٣٠٠٠ عربة قتالية مدرعة أخرى، تتضمن سيارات مدرعة وعربات نصف نقل وناقلات أفراد مدرعة للمشاة.

سلاح الطيران الإسرائيلي الذى يبلغ أكثر من٤٠٠ طائرة كخط أول، يتكون من: ١٠٠فانتوم،٣٥ميراج (قاذفة مقاتلة واعتراضية)،١٦٠سكاى هوك قاذفة مقاتلة. تعد الفانوم أكثرها قدرة على المناورة، وتتفوق في الجو على أى قوة طيران غرب آسيا.إنها تحمل صاروخ سبارو وصاروخ سايد وندر للدفاع عن النفس، صواريخ وقنابل زنة ٥٥٠ رطلا (لبرة) لعمليات الهجوم.فى الطبقات العليا،تبلغ سرعتها ٢ماخ.السكاى هوك،قاذفة مقاتلة أسرع من الصوت، لكنها قادرة على حمل أكثر من٤أطنان من الصواريخ والقنابل وصواريخ للاشتباكات الجوية أو الهجوم الأرضى. يبلغ مداها١٦٠٠كم بالمقارنة بالفانتوم(٦٠٠كم) .البحرية الإسرائيلية تتكون من مدمرة واحدة، ثلاث غواصات،ثلاثة عشر قاربا داورية مسلحة بصواريخ سطح جابريل، ٩قاذف طوربيد، ٢٣قارب داورية صغير إجمالى القوة البشرية بعد التعبئة خمسة آلاف.البحرية معنية أساسا بعمليات البحر المتوسط؟بعض قواربها الخاصة بالداوريات تمركز فى إيلات على خليج العقبة.

اتخذت قوات الدفاع الإسرائيلية تشكيلاتها الحالية، كقوة محترفة، أثناء وجود الجنرال موشى ديان كرئيس للأركان فى منتصف الخمسينيات، تطويرا للهاجاناه،أيام الانتداب، وقت أن كان تنظيمها كجيش مدنى، لجعلها قادرة على لعب دور رئيسى فى بناء الدولة الوليدة.

كانت حرب ١٩٥٦، تلك التى أكدت الحاجة لجيش محترف ومدرب على أعلى مستوى، متحرر من أى مسئوليات طارئة أو دخيلة.ولأن التعداد السكانى للبلد لايحتمل قوة كبيرة متفرغة، فقد تم تنظيم الجيش على أساس خليط صلد صغير من النظاميين، وجانب آخر مكون من المجندين(مدةخدمتهم لا تزيد عن ٣٠شهرا)، والاحتياط، وهم الذى يشكلون جرم القوات البرية. جميع النساء غير المتزوجات ، جندن فى وحدات

غير مقاتلة كسائقات وأمناء مخازن وكتبة. نظام التعبئة فى قوات الدفاع الإسرائيلية،هو مايفخرون ويباهون به، كخطة فائقة الدقة، استمر التدريب على تنفيذها لدرجة الروتينية المتقنة. القادة وضباط الصف وعمال الإشارة، يتم إستدعاؤهم بالتليفون، الآخرون بواسطة الإذاعة المحلية، كل رجل وامرأة يعرف مكان حصوله على سلاحه، والوحدة التى يتبعها فى أى موقع فى البلد. حجم البلد الصغير ووسائل النقل فائقة الكفاءة، وفرن إمكانية تجميع كل الاحتياط، والتحاقهم بوحداتهم، وإعدادهم للقتال خلال ٤٨ ساعة.

ولأن قوات الدفاع الإسرائيلية هى الحامى للدولة، فقد استمتعت بتميز العلاقة بالحكومة، ومع التسليم بالأساس الديموقراطي الذى تقوم عليه الدولة، بأن العسكريين يجب أن يكونوا خاضعين للسلطة المدنية، هذا المبدأ معنى بالأمورالمدنية، وليس تماما بالسياسة الخارجية.القيادة العامة مارست مساحة كبيرة من الحرية فى تنفيذ سياستها الاستراتيجية... حتى قيامها باتخاذ قراراتها المتعلقة بعملياتها الثأرية. رؤساء الوزارة المتتابعين، سحبوا منح قيادة الأركان «حرية مطلقة فى الأمور الاستراتيجية. كان هذا هو العامل الأساسى، الذى طور بالتبعية فلسفة دبلوماسية العسكرية، أن الهجوم هو الاستراتيجية الوحيدة للحفاظ على إسرائيل كدولة. حتى نظام التعبئة، وضع بشكل عام تقريبا، كرادع لأى عمليات هجومية. منظمة استخبارات كفء، لإنذار الأمة، وقدرة سريعة على شن هجوم.. هو القلب الذى قامت الاستراتيجية الإسرائيلية ببنائه. هذه الاستراتيجية الهجومية، والخبرة المكتسبة ضد الجيوش العربية من الحروب الماضية، أعطت قوات الدفاع الإسرائيلية طابعا عسكريا يقوم على المبادرة، خفة الحركة، قوة نيران وثقة متناهية حتى الغرور.

فى حملة ١٩٥٦ ، تسيدت ميدان المعركة قوات المظليين والمشاة الميكانيكية،حيث كان دور المدرعات هو مساندة المشاة. مدرعات هذه الأيام، والتى أهملت الآن، هو متابعة قوات المشاة على ناقلات.على كل، حتى فى هذه الحرب، كان هذا الدور المرهق محل ثناء. بعد ١٩٥٦عندما سلمت الدبابات الحديثة، تزايد حجم وكيف وكفاءة القوات المدرعة، أثناء حملة ١٩٦٧ كان الاختراق فى العمق للمدرعات قائما على سرعة وقوة اقتحام دفاعات العدو، متبوعا بعملية تطويق لقطع الإمدادات عن العدو

وتحطيم معنوياته، كان هذا هوالبديل لهجمات المشاة الليلية، التي كانت تسيطر على النظريات التكتيكية. قادة المدرعات وضباط الصف، وحتى الأفراد، دربوا على أساس المبادرة والاندفاع للأمام،وتعقب العدو الفار. ونتيجة لهذه النظرية التكتيكية، وهى اكتساب عنصرالسرعة لقواته المهاجمة، أن تحول بكامله إلى جيش ميكانيكى، كما أعلن الجنرال شارون متباهيا: «فى هذا الجيش،لا أحد يسير».. هام جدا أن نسجل، أن أحد عوامل تشجيع الجيش الإسرائيلى لإتمام السيطرة الميدانية بواسطة الدبابات، هو التجربة التى خاضتها مدرعاته ضد الصواريخ المصرية المعتادة للدبابات فى ١٩٦٧.
كان الروس قد أمدوا الجيش المصرى بصواريخ شميل schmel الموجهة والمضادة للدبابات (محمولة على لورى أو عربات مدرعة) ذات المدى المؤثر ١٥٠٠متر، إلا أنها أثبتت عدم فعاليتها فى المرات القليلة التى استخدمت فيها ضد الدبابات الإسرائيلية.
التركيز على المدرعات كان كبيرا جدا بالمقارنة بالمدفعية، وأسلحة المشاة التى أهملت. فى بداية الستينيات،كان هناك أندفاع لامتلاك أحسن وأسرع الدبات، ومعظم الإنتاج المحلى، تركز على تحسين القوات المدرعة، والطيران، بعض الاهتمام للمدفعية، ولاشئ لفرد المشاة. قوات الطيران ، التى لا تعتبر خدمات مستقلة، لكنها تخضع تماماً لقيادة الأركان الحازمة، أنشئت لتكون أكفأ قوات جوية فى العالم، وذلك لصغر حجم إسرائيل، التى يسهل الهجوم من الجو، عليها وعلى أهدافها المدنية والعسكرية. كانت تل أبيب ومدن أخرى، على مسافة خمس دقائق من أقرب مطار عربى، أما مطارات إسرائيل العسكرية، مداخل الحدود القديمة، مكدسة داخل قطاع ضيق، يقع ين الضفة الغربية للأردن والبحر المتوسط، بالإضافة إلى أنها مستباحة من الجو. من بداية الخمسينيات، كان من المحتم على هيئة الأركان بناء ذراع جوى يوفر التفوق الجوى على العرب،حوالى نصف ميزانية الدفاع خصصت لسلاح الجو. كان للتعاون الفرنسى، قبل وبعد حرب ١٩٥٦، الأثر الواضح فى تقدم الطيران بحصوله على طائرات المستير٤، والسوبر مستير والميراج ٣، بالإضافة إلى أسطول من طائرات الهليكوبتر والاستطلاع والنقل. كما ساعدت فرنسا إسرائيل، لافى بناءوصناعة الطيران واسلحته فقط،بل الحصول على درجة عالية من تقدم الخدمات الجوية. بعد الانفصال عن فرنسا، تحولت إسرائيل إلى الطيران الأمريكى، مواصلة الحفاظ على القدرات

الهجومية..القاذفات المقاتلة. وللتكامل مع دستور الإستراتيجية الشاملة، عد الهجوم الجوى الوسيلة الرئيسية للدفاع، ودستوره الهجوم المفاجئ.. وعلى الأخص المطارات المصرية.. مع الحرص على التفوق الجوى فوق منطقة العمليات.النجاح الساحق الذى نفذت به هذه الخطة فى ١٩٦٧ ، أكد تصميم هيئة الأركان الحفاظ على تفوق جوى مستمر مع قدرة هجومية ضاربة.

خطة إسرائيل الدفاعية:.

بعد وقف إطلاق النار فى ١٩٧٠ ، ساد الهدوء منطقة القناة، ولا يتخلله سوى ماتقوم به إسرائيل من انتهاكات بواسطة سلاحها الجوى، يدعى بعدها كل طرف بأنه تفوق على الآخر، كان الإسرائيليون واعين لإحكام نظام الدفاع الجوى، المقام على منطقة القناة وحتى القاهرة، إلا أنهم كانوا على ثقة بتفوقهم الجوى فوق سيناء.

بحلول ١٩٧٣ ، بدأ الشك يساورهم فى صدق مصرعلى أى قدر من الكفاءة لشن هجوم عابر للقناة. فشل الرئيس السادات فى جعل عام ١٩٧١ «عام الحسم»، وإخراج المستشارين العسكريين الروس فى ١٩٧٢ ،مع معرفة إفتقار القوات المسلحة المصرية لأسلحة هجومية، مثل قاذفات مقاتلة ومعدات عبور، وإضافة إلى تأكدهم من تفوقهم الجوى، ترسخ لدى الإسرائيلي الشعور بالغبطة والرضى عن النفس بالنسبة للميزان الاستراتيجى على الجبهة الجنوبية.

من المسلم به، وطبقا لاستراتيجية إسرائيل العامة، أن خطتهم الدفاعية فى سيناء تقوم على توجيه ضربة إجهاضية داخل الأرض المصرية على ضفة القناة الغربية؛ ولما كان هذا الهدف يستوجب التحرك الجوى فوق منطقة مغطاة بالصواريخ، فكانت الخطوة الأولى، هى فتح ثغرة فى هذا الغطاء الدفاعى الجوى، ويمكن تنفيذه بطريقتين: المبادرة بالهجوم عبر القناة بغرض تدمير مواقع صواريخ سام، وشل حركة المطارات المصرية المتقدمة، أو الإغارة على مواقع سام فى المناطق التى تقل فيها كثافتها، مثل الممر الجوى الذى يقود إلى القاهرة، فيما بين بورسعيد ودمياط، مع رأى آخر يقوم على الاختراق الجوى على امتداد جنوب وغرب ميناء السويس. وقد ورد فى تقارير الجزال شارون ـ قائد المنطقة الجنوبية ـ حتى أغسطس ١٩٧٣ ، أن الجيش الإسرائيلى خطط وأعد للقيام بعبور القناة والتقدم حتى منطقة الدفر سوار، بين بحيرة التمساح وكبرى

البحيرات المرة، بالاضافة إلى خطط بديلة تستهدف عمليات إنزال على شاطئ البحر المتوسط غرب بورسعيد وغير خليج السويس من منطقة الأدبية؛ نموذج أداء إسرائيل خلال حرب أكتوبر يؤكد هذه الأساليب. أما دفاعات القناة، فقر اعتبر خط بارليف مناسبا. حوالى ١٠٠ مليون دولار تم إنفاقها على منشآته، وهيئة الأركان، بالرغم من تبريراتهم غير المقنعة بعد اختراق المصريين هذا الخط بمنتهى السهولة، كانوا على ثقة من قيامهم بهجوم بامتداد القناة نفسها. إجراء إضافى اتخذ سرا، هو إغراق سطح القناة بسائل النابا لم عند أماكن محتمل الاختراق منها وإشعاله؛ خزانات الزيت شونت عند كل نقطة أمامية حصينة فى خط بارليف، وبمواسير تحت الأرض موجهة إلى مخارج على الماء، طلمبات كهربائية يتم تشغليها بمجرد الإنذار، فتنشر السائل القابل للاشتغال بمجرد إلقاء قنبلة حرارية، تتحول بعدها القوارب العابرة المحملة بالجنود إلى رماد. كان خط بارليف بكل تجهيزاته التكنولوجية، هو خط الدفاع الرئيسى فى القناه. الأمر الذى لم يؤخذ فى الحسبان، هو العامل النفسى الماجينوتى. الجماعات التى أعدت لخط بارليف، ترسخ لديها الإنطباع بالإحساس التام بمناعة الموقع، وكذلك بنعرة «نحن لا نسير على الأقدام هنا..!»إلى إعتبار أن التمركز فى نقاط معينه، هو الكلمة الأخيرة فى تكتيكات الدفاع. نتيجة لذلك، أعتبرت الدوريات الراجلة بين النقاط الحصينه، هى واجبات تتقادلها جيوش أدنى.

ليس هناك أى تفسير آخر لعمليات العبور المنظمة للداويريات المصرية للقناة، وتنفيذ العمليات الأستكشافية خلال الأسابيع التى سبقت الهجوم.

قرر العام القائد للجيش الثانى، أن قواته تستطيع عبور القناة ليلة بعد أخرى، وفى بعض الأحيان ، البقاءخلف خطوط العدو لعدة أيام. وتحدد بدقة نقاط الإتصال بأنابيب النابالم المدفونة تحت الأرض وكذلك مركز التحكم. لم تكتشف أى من هذه الداوريات التى حصلت على معلومات ساعدته على رسم خريطة كاملة للإستعدادات الدفاعية الإسرائيلية.تقرير هيئة الأركان الإسرائيلية، حسب ما أكده موشى ديان: «أن أى هجوم مصرى عبرالقناة سيتم القضاءعليه تماما خلال ٢٤ ساعة. أعلن الفريق سعد الشاذلى فى مقابله صحفية بعد الحرب: «اعتقد أن ديان أعلن ذلك على أساس حسابات أن مهندسينا لن يتمكنوا من إقامة الكبارى قبل ٢٤ ساعة،وأن الجانب الأكبر من المعدات

الثقيلة لن تتمكن من العبور قبل ٤٨ ساعة، الأمر الذى يسمح للإحتياطى المدرع الإسرائيلى بالوصول فى الوقت المناسب». قد يكون من العسير لأى شخص قبل ٦أكتوبر اختراق هذا الغلو والتعالى، وإقناع الإسرائيليين أن الجيش المصرى فى الحقيقة، قادر على عبور الثغرة التكنولوجية بكفاءة، وتنفيذ نفس المهمة فى عشر ساعات.

من مقر القيادة الجنوبية - الهادئة - فى بير سبع، يقود الميجور جنرال صامويل جونين العمليات فى سيناء. أوامره القتالية - طبقا للتقارير المتاحة للعرب - تتعلق بـ ١٣ إلى ١٤ لواء، معد جنوب الحدود فى منطقة سيناء؛ ثلاثة لواءات مشاة ميكانيكية، مدعومة بلواء مدرع، مخصصة للدفاع عن خط بارليف، بينما الجانب الأكبر، متمركز فى الخلفا، على مسافة من ٨ إلى ١٠ كم من الخط الأمامى للنقاط الحصينة، مع فصائل احتياطية معززة لهذه النقاط الحصينة. لواءان، وردت تقارير بتمركزها عند بير جفجافة - واحد مشاة والآخر مدرع. لواء مشاة عند ممر متلا، لواءان كل منهما مكون من مشاة ومدرعات، عند بير تمادا، شرق ممر متلا، وعلى الطريق الشمالى، لواء مشاة، متمركز عند بير سلمانا، فى منتصف الطريق بين بورسعيد والعريش، ولواء مدرع عند العريش. هذا إضافة للواءات الموجودة فى إيلات وشرم الشيخ، مع الاحتفاظ بلوائين احتياطيين فى بير سبع. يجب أن يكون واضحا أن هذه الاستعدادات والقوات، قد تكون مضللة، مالم يكن مفهوما خصوصية النظام العسكرى الإسرائيلى؛ مثلا، ليس من الواجب افتراض أن النظام الفوقى لديه من ١٣ إلى ١٤ لواء، متاحة دائما للقيادة الجنوبية ومخصصة لعملياتها، أو أنه لإدارة هذه العمليات، تكون على مستوى اللواء. الواقع الفعلى مختلف تماما؛ أثناء فترات السلم، نادراما تحتفظ الوحدات الأمامية بأكثر من ٣٣٪ من قوتها، أما القوات فى المؤخرة، فغالبا ما تكون تنظيمات شكلية، فيما عدا القيادات وضباط الاحتياط، وبعض الشخصيات الهامة، تلك التى يستلزم تواجدها. وعندما ينطلق «انذار»، تنمو هذه القوات بناء على استدعاء الأفراد التصاريح، أو المطلوب استدعاؤها. على العموم، هذا فى حالة إقرار التعبئة العامة، أن يتوقع أن تكتسب الوحدات والتشكيلات قوتها، لذلك فقوة الكتائب المتمركزة فى خط بارليف، فى الأيام العادية، لاتزيد عن الفين من الأفراد، أما بعد «الاستنفار»، فيمكن أن ترتفع إلى أربعة آلاف. فقط بعد التعبئة، تصبح قوة الثلاثة لواءات مستكملة.

طبقا للتصريحات الإسرائيلية بعد بدء الحرب، أن خط بارليف، فى أوائل أكتوبر، مدعم بلواء أورشليم رقم ١١٦، والذى كان قد أرسل ليحل محل الحامية النظامية. يدعم هذا اللواء، اللواء ١٤ المدرع - قائده العقيد أمنون ريشيف - وهو الوحيد المستكمل تشكيله بـــ ٢٥٠ دبابة.

كلمة لواء مضللة، لأن الجيش الإسرائيلى عامة، يتكون على شكل مجموعات «قوات خاصة مدرعة»، تختلف عن شكل اللواء العادى والفرقة. لقيادة هذه القوات الخاصة، فقد ضمت قيادات المناطق عددا من ذوى الرتب العالية، بدون مهام محددة، لتسند إليهم مسئولية القيادة عندما يتم تكليفها بعمليات معينة. لذلك كان فى قيادة المنطقة الجنوبية الميجور جنرال إفراهام مندلر، معينا لقيادة قوة مدرعة، بينما هو لقيادة هذه القوة المدرعة ذات المهام الخاصة، فى ظل حقيقة أن القوة المدرعة للواء ١٤ مدرع كانت ٢٥٠ مدرعة، بأكثر من وحدات أخرى مسلحة طبقا للأسس البريطانية.

الميجور جنرال شارون، ألحق بقيادة المنطقة الجنوبية قبل الحرب بقليل للانضمام لقيادة القوات الخاصة. كان نظاما مرنا بدرجة عالية، يتوافر له سهولة الحركة وسرعتها بما يتشابه مع خطة الحرب الإسرائيلية. فى مثل هذه الحرب، تكون المبادرة مهمة. هذا كان الهدف من جبهة سيناء، بدون شك؛ لكن من هذا اليقين، تم جر إسرائيل من القدم الخاطئة، فبدلا من القيام بضربة إجهاضية، وجدوا أنفسهم يحاربون معركة مفاجئة، بادرهم بها العدو لكن هذا الخطأ لم يكن تاما بحيث يسمح بانهيار مخابراتهم.

وكالة المخابرات الإسرائيلية دائما فى غاية النظام، مصممة فقط لحماية أمن الدولة، طبيعى أن لها نشاطا متميزا يتفق مع عملياتها الخارجية فى العقد الأخير، كان بإمكانها تجنيد عملاء من اليهود المقيمين فى البلاد العربية، بعضهم تمكن من اختراق دوائر حكومية. منها القوات المسلحة، إلا أن تضاؤل أعدادهم بعد ١٩٦٧، مع التضييق الشامل على الأمن فى الدول العربية، أدى إلى استبدال طريقة العباءة والخنجر، بالتوسع فى ما يطلق عليه «ميكنة» التخابر، وهى جمع المعلومات بالتغطيات الرادارية، والوسائل الإليكترنية الأخرى، بما فيها الأقمار الصناعية الأمريكية، والاستطلاع الجوى العالى - هذا الانتقال من المخابرات بالأفراد، إلى الميكانيكا، أنتج تراكمات متعاظمة من «الحقائق»، لكنها زادت من صعوبة تحديد «نوايا» الحكومات العربية. فى الأسابيع

السابقة للحرب، مثلا، لم يكن هناك نقص في الحقائق المتعلقة بالنشاط العسكرى الثقيل غير العادى على الجبهتين، المصرية والسورية؛ إدعى الإسرائيليون أنهم على معرفة كاملة بالتصعيد المصرى، وأن المصريين يقومون بالتدريب على عمليات العبور المائية. الشيء الذى لم يقدروه بدقة، هو التغير فى المرامى المصرية، ومعنويات قواتها. رغم كل شيء، ففى خمس سنوات، تمكنت القوات المصرية المسلحة من استعادة حوالى ٩٠٪ من قدراتها فى قناة السويس؟ خططوا وتفذوا بنجاح، العديد من تدريبات العبور المائية، بالإضافة، الإعلان دوما عن نيتهم للقتال. هذا «الواقع» فقد جدته، للتكرار المتواصل طوال خمس سنوات. هذا المرام، كان شيئا جديدا، لم تتمكن إسرائيل من تقديره بدقة. كما منعتهم ثقتهم الزائدة بالنفس، من اتخاذ الحيطة عند ظهور ملامح هذا الإعداد.

وكما رأينا، الجنرال ديان، وضع قواته المسلحة فى وضع الاستعداد، حوالى ١٠ أيام قبل بدء الحرب. فى الثالث من أكتوبر شوهد القادة المصريون يصدرون الأوامر للمواقع المتقدمة، وأثناء ذلك، انفجرت حادثة «شوناو»، لذلك أعلنت مصر عن طريق الدبلوماسيين الأجانب فى القاهرة، أن قواتها المسلحة، اتخذت خطوات دفاعية، تحسبا لأى هجوم إسرائيلى بسبب «شوناو»؛ فى واشنطن، حيث «الحقائق» هى الشيء المتاح، وليست «المرامى»، ناقشت وكالة الاستخبارات الدفاعية «D.I. A» الاستعدادات العربية باعتبارها تمثل تهديدا، ونصحت الدكتور كيسنجر بأن الحرب غير محتملة الوقوع.

أما وكالة المخابرات المركزية «C. I. A.»، فكان لديها بعض الشكوك عن الموضوع، إلا أنها انساقت للتقديرات الإسرائيلية التى تتطابق مع وكالة الاستخبارات الدفاعية «D.I. A». ورغم ذلك، أتخذت القوات الجوية الإسرائيلية استعداداتها القصوى وبحلول ٥ أكتوبر، كانت جميع القوات المسلحة على قدم.

فى صباح ٦ أكتوبر، اقترح الجنرال اليعازر القيام بضربة اجهاضية جدية. - رفض هذا الاقتراح من الحكومة - على كل حال، كان للدفاع الجوى المصرى السيطرة التامة المانعة لتكرار الضربة الإجهاضية التى شنت فى ١٩٦٧. والأمر الأكثر خطورة، حقيقة أن الحكومة وقفت ضد اقتراح الجنرال اليعازر بإعلان التعبئة العامة واستدعاء الاحتياطى...!

الفصل الرابع

خطط اقتحام القناة

الهجوم عبر مانع مائى، ضد عدو يتحكم فى تحصينات معدة على الجانب الآخر، يعد أصعب وأعقد العمليات العسكرية، وما أقدم عليه المصريون، ليس مجرد هجوم عبر نهر، لكن هجوم متعدد الشعب، تطلب عمليات عبور عند عدة نقاط على امتداد ١٠٠ كم من جبهة محصنة.

فقط هؤلاء الذين خططوا ونفذوا مثل هذه العملية، هم الذين يستطيعون تقدير مخاطر هذا الاقتضاء. أعقد المشاكل حرجا، تظهر أثناء ثلاث مراحل العبور الهجومى للموجة الأولى من المشاة:

- التجديف عبر مياه قناة السويس المكشوفة للبنادق الآلية والقذف المدفعى فى قوارب مطاطية.
- اختراق خط بارليف بأفراد المشاة، فى مواجهة هجوم مضاد مدرع .
- مرحلة قيام المهندسين بمد الكبارى لعبور المعدات الثقيلة.

فجيمع الضربات الجوية ستتركز على خط المياه أثناء هذه المرحلة الثالثة، والسرعة التى يتم بها إقامة الكبارى، هى التى ستحدد مصير العملية بكاملها. المرحلة الأولى قد تتوافر لها ميزة المباغتة .. الشىء الذى حرص المصريون على إتقانه، أما المرحلتين التاليتين، فيتعين القيام بهما أثناء محاولة العدو الاستفاقة من الصدمة، والتى يتوقع عندها إطلاق كامل العنف المضاد لخطط الاختراق العكسى فى خط بارليف.

المراحل المبدئية:

وللبدء، إختار المصريون لأفراد المشاة، نقاطا بعيدة عن النقاط الحصينة الإسرائيلية، تحت ستار محكم من نيران المدفعية والطيران، تعبر المقدمة المسطح المائى متسلقة السد الرملى المواجه، وتلقى بسلالم الحبال للتدفقات المصاحبة، ثم تتحول إلى الخط التالى لدفاعات بارليف، دون الاكتراث بنقاطه الحصينة؛ لتنفيذ هذه العملية بنجاح، أعدت وحدات المشاة كمجموعات متكاملة، بها فصائل مساندة فى ١٠ إلى ١٢ فردا، تحمل قاذف لهب روسيا، صواريخ R.P.G7 مضادة للدبابات محمولا على الكتف، يمكنه

الإطاحة ببرج دبابة سنتوريون أو باتون، وميلوتكا (الاسم الحركى للناتو للصاروخ ساجر) الموجهة سلكيا، إضافة إلى مساندة مدفعية ثقيلة ومتوسطة عند الاشتباك بالدبابات.

بمجرد الاختراق فى العمق، بحثا عن دبابات العدو، تندفع الموجة التالية يمينا وشمالا على شكل مروحة، نحو النقاط الحصينة الإسرائيلية، وتحتويها بأفضل ما يكون، لهذا الغرض، يتطلب الأمر قنابل مدفعية دك ومباشرة (مثل المضادة للدبابات أو المدفعية المضادة للطائرات). لذا كان من المهم إدراجها فى خطة نيران المدفعية. الخطر الأكبر بالنسبة للموجات الأولى للمشاة، يكمن فى خطة إسرائيل فى إشعال سطح المياة بسوائل النابالم. اكتشفت الداروريات المصرية خط الأنابيب والمواسير، وصدرت الأوامر لوحدات الكوماندو بالعبور قبل الهجوم بليلتين، لقطع خط الأنابيب، وسد الفتحات التى على القناة بالأسمنت. وعندما حان الوقت، كان النجاح الناتج عن المهارة الفائقة، لدرجة أن أى نقطة حصينة لم تستطع تشغيل ميكنتها النابالمية. فقط نقطه واحدة اكتشف قطع أنابيبها، وذهب مهندسو الجيش الإسرائيلى صباح ٦ أكتوبر لإصلاحها، عندما بدأ المصريون هجومهم وقاموا بأسرهم كفاتحة لما تلاهم من أسرى فى هذا اليوم.

خطة النيران المساندة، استندت إلى استخدام حوالى ٢٠٠ طائرة لتغطية العملية الأرضية، ونيران مدفعية مكثفة فى الضفة الغربية. إجمالى مدفعية الجيش المصرى مقسمة إلى ١٣٥ كتيبة مدفعية، بالإضافة إلى ١٩٠٠ مدفع تقوم بتوجيه نيران مباشرة، مركزة تحت قيادة اللواء محمد سعيد الماحى، المدفعى الأول فى الجيش المصرى، وواحد من أكفأ اللواءات. فمن مقر قيادته فى بلبيس، تمكن من إدارة نيران مدفعية الجيشين، الثانى والثالث اللذين تحت قيادة كل من عميد أبو غزالة، والعميد منير شاش بالتبعية.

فى واحدة من أكبر وأشرس عملية تركيز مدفعى فى التاريخ، خطط الفريق الماحى، لتوفير ٥٣ دقيقة متواصلة لساتر نيرانى قوته ٣٠٠ طن رأس حربة، على مناطق الهدف، ١١٠٠٠ قذيفة تم إطلاقها فى أول دقيقة فقط.

عند ساعة الصفر، وهى التى تقرر فيها بدء الهجوم، بانطلاق القوارب على سطح المياه، كانت خطة إطلاق النيران بالمدفعية كالآتى:-

١- من س - ١٥ دقيقة إلى س	تفتح جميع قطع المدفعية نيرانها بعمق ١ إلى ١,٥ كم من الشاطى المقابل.
ب- من س إلى س + ٢٢ دقيقة	يرتفع مدى النيران من ١,٥ إلى ٣ كم فى العمق
جـ- من س + ٢٢ إلى س +٢٧دقيقة	يرتفع مدى النيران لأبعد من ٣ كم
د- من س + ٢٧ إلى س +٣٣ دقيقة	ينخفض مدى النيران ويعود إلى المدى «ب»
هـ- من س+ ٣٣ إلى س + ٣٩ دقيقة	يعود المدى إلى المدى (جـ) أعلاه

ثم تكون نيران المدفعية متاحة (عند الطلب) من ضباط المدفعية المصاحبين للوحدات، ويعملون كنقاط مراقبة لطلائع هذه القوات. القوات الجوية عليها ضرب الأهداف على مدى ٣ كم من س - ٥ دقيقة حتى س + ١٠ دقائق.

مهمة (النيران المباشرة)، تحييد النقاط الحصنية، وإعطاء دعم مباشر لإزالة الأسلاك الشائكة، وحقول الألغام، من أمام القوات المتقدمة. المدافع الثقيلة تحت قيادة الفريق الماحى - ١٥٥م، ١٣٠ مم روسية الصنع - خصصها كبطاريات مضادة، لتحييد المدافع الاسرائيلية الثقيلة فى مناطق العمق، إضافة إلى استخدامها لتدمير المدرعات. هناك عنصر هام، آخر، فى مساندة المدفعية المضادة للدبابات، هو طلعات بالهليكوبتر المزودة بالصواريخ - كان منها حوالى ٣٠ طلعة هليكوبتر بصواريخ ميلوتكا بطائرات M/1.4، وكل طلعة من طائرتين، وقد استخدمت فى عملية توجيه المدفعية، إضافة إلى الدعم المضاد للدبابات، متى أتيح ذلك.

كوبرة القناة (إقامة الكباري عليها):-

بينما واجهت المرحلتان الأوليان مشكلة، أساسا، للمشاة والمدفعية، كانت المرحلة التالية، - وهى عملية إقامة ونقل معدات مواقع الكبارى - وهى عملية هندسية خالصة في الأساس. من حظ الجيش المصرى، تواجد حفنة نادرة من المهندسين المحترفين، المخلصين، ككبير المهندسين فى السنوات السابقة للعمليات، وهو اللواء جمال على.

بمجرد وقع الهزيمة بالجيش المصرى، وتراجعه عبر قناة السويس فى ١٩٦٧، بدأ

اللواء جمال على حملته الخاصة. بدأ على الفور العمل فى خطة لعبور القناة، مؤمنا بأن القوات المصرية ستقوم بعبور هذا المسطح المائى، مقاتلة، لاستعادة ما سبق أن فقدوه. حتى خلال السنوات التى كان واجبه الأساس هو إقامة، وإعادة إقامة قواعد صواريخ سام فى منطقة القناة، وفى منطقة السد العالى بأسوان، دأب على حث ضباطه، على الانكباب على البحث عن وسيلة للتغلب على معضلة القناة، ويقول عن هذه السنوات: «احتلت مواقع سام ٩٠٪ من مصادرى ووقتى، بينما احتلت القناة ١٠٪، لكن ذهنى كان مشغولا بالقناة ٩٠٪ من الوقت الذى احتل فيه العمل الإنشائى ١٠٪». كل مسطح مائى بطول وعرض دلتا النيل، والذى يماثل منطقة القناة فى الحجم والشكل، تم إعداده ليكون نموذجا لموقع عبور، وتدريب لإقامة الكبارى. يقول اللواء على، أنه فى البداية استخدمت كبارى «بيلى»، وهى من مخلفات الحرب العالمية الثانية، استغرقت اختراق الساتر الرملى ثلاثة أيام، ثم إقامة الكوبرى، وبدء المدرعات فى العبور. فى ١٩٦٩ سلمت بعض الكبارى الروسية الأكثر حداثة من طراز PMP، وهى على شكل قوارب مطوية متميزة، ومعدة بخاصية توفير ثغرة طولها ١١٠ امتار. أثناء الأشهر القليلة السابقة ليوم الغزو، نبئ باستلام أحدث نوع من الكبارى العائمة الثقيلة طراز TPP، وتعتبر كفاءتها ضعف كفاءة P.M.P، ويمكن إقامتها بواقع ١٠٠ فى الساعة، ويمكن أسرع. فى نفس الوقت، خصص عدد من المهندسين الشبان، وعلماء حديثى التخرج من الجامعات، للتعامل مع الأجهزة على الأرض. كوبرة القناة، كان واحدا من جوانب المشكلة؛ فمعظم الوقت، قد يستهلك فى تحطيم التحصينات المقامة على القناة من الجانبين، وفى اختراق السائر الرملى المقام فوق القناة، إذ يبلغ عرض السد الرملى المقابل للجيش الثانى حوالى ٧ أمتر وبارتفاع من ١٠ إلى ١٨ مترا، تتطلب عمل حوالى ٦٠ ثغرة تحتاج كل منها إلى إهالة وإزالة حوالى ١٥٠٠ مترا مكب من الرمال. وجد أن البلدوزورات لا تفيد فى الرمال الناعمة، لذا وجد أن الحل العملى، هو إحداث ثغرات بواسطة متفجرات قوية، ثم نقل الكيمان المتخلفة من الرمال السائبة؛ هذه الوسيلة، تحت قصف نيرانى قد تستغرق من ١٢ - ١٨ ساعة، وقد تصل إلى يوم كامل قبل أن تتمكن المدرعات العبور؛ ثم طرأت فكرة رائعة ومنقذة، حسب التقارير، ذكر أن عرضها، كان بواسطة رئيس الوزراء صدقى، فهو كمندس ذو

خبرة، استرشد بممارسته الهندسية فى سد أسون؛ اقترح استخدام خراطيم ذات قوة «لإذابة» حوائط الرمال-! بعدها، أحد المهندسين الشبان، أدخل تحسينات على الفكرة، بناء مضخة توربينية قوية، قامت بالعمل فى وقت أقل بكثير. بعد أسابيع من التدريب، وجد أن ثغرة يمكن إحداثها فى ٣ إلى ٥ ساعات، شاملة إزالة المخلفات. ولمتابعة تدريبات المعركة، تقرر أن عملية الضخ. وهى التى ستستحوذ على معظم الوقت - يتعين بدؤها بمجرد بدء القوات الأمامية فى العبور، تحت غطاء من نيران المدفعية وسواتر الدخان، المضخات التوربينية على أرماس مثبتة بإحكام بعيدا عن الضفة (منعا لانقلابها فى الماء عند بدء الضخ)، وعن الرمال عندما تنهال، بعدها يتم تفجير وتشذيب الضفة وتسويتها بسطح المياة، لمساعدة العربات الحاملة للكبارى للتقدم للحافة. حوالى ٥٠ موقع عبور، أعدت للاستخدام، بمجرد تمكن القوات الأمامية من العبور؛ بداية لنقل معدات خفيفة، ثم تتوالى - عندما يتم فتح الثغرات - عمليات النقل الثقيل. بهذه الطريقة، يمكن تجنب تزاحم الحمولات المنقولة. إدارة وتوليف كل هذه النشاطات المختلفة فى تناسق سلس، يعد إنجاز هائلا فى حد ذاته، وبما يشبه الكومبيوتر؛ وفى هذا، قال الفريق الشاذلى: المشكلة السادسة، كانت فى كيفية تنظيم قواتنا على الضفة الشرقية، لكى تتمكن الدبابات والمدافع والذخيرة من اللحاق بالمشاة التى عبرت فى المقدمة.. كيف يمكن إنجاز كل هذا أثناء الليل وفى مواجهة ضغط العدو؟ كيف تتمكن الدبابات والأسلحة الأخرى من اتخاذ طريقها (على الجانب الآخر) وتتعرف على الوحدات (التى وجهت إليها)؟ نحن ندرك أهمية هذه المشكلة عندما تكون هناك الآلاف من الدبابات والعربات والمدافع يتعين عبورها لتنضم للمشاة، وحدات الإشارة والبوليس الحربى قدموا أفضل ما عندهم فى هذا، كوابل الإشارة مدت من اللحظة الأولى للعبور، طرق ومدقات للدبابات متباعدة، ألوان مختلفة لتحديد مختلف الطرق، شهور من الممارسة استغرقناها فى هذا التدريب المعقد، لكن فى النهاية، أتقن الجيش المصرى هذا التكنيك. بالمناسبة، أفضل التوقيتات لإقامة كوبرى هو ٧ ساعات - عندها تبدأ المدرعات فى التدفق فوقه متجهة إلى الضفة المقابلة «بالكاد بعد» منتصف ليلة ٦، ٧ أكتوبر».

أمر القتال المصرى:

اتخذت العسكرية المصرية، نظام توزيع المسئوليات القتالية كالمتبع فى الروسية. فعلى كل المستويات نزولا إلى الفرق، القائد يليه «نائب أول» يطلق عليه مجازا «الأركا نحرب» وهو مشارك فعلى فى مسئوليات القيادة بالتساوى، إضافة إلى الأركا نحرب، هناك القائد الثانى، وهو مستوى تال، ويشغلها لواء أو عميد.

القائد العام للقوات المسلحة هو الفريق أحمد اسماعيل، ومع قيادته العامة فى القاهرة رئيس أركانحربه، قبل وأثناء الحرب اللواء سعد الشاذلى. هذه القيادة العامة قادت الحرب من غرفة العمليات فى مدينة نصر.. الضاحية الشرقية للقاهرة. القوة العسكرية - طبقا لبيانات معهد الدراسات الاستراتيجية بلندن، هى: ٢٦٠ ألفا، مقسمة إلى جزئين (ومحتمل ثالث تحت التكوين) ثلاثة أقسام مشاة ميكانيكية، وخمسة مشاة. إضافة لواءين مدرعين ولوائى مشاة منفصلة، لواء مظليين، ٢٦ كتيبة كوماندو. المدفعية، مكونة من ستة ألوية مدفعية. (ألوية المدرعات والمدفعية المذكورة، زيادة، علاوة على الدبابات والمدافع الداخلة فى التشكيل بشكل عضوى. ذكر أيضا أن عدد ألويه المدفعية زاد من ١٠ إلى ١٢ بحلول أكتوبر ١٩٧٣).

يرقى حجم الدبابات قبل أكتوبر ١٩٧٣ إلى ١٧٠٠، معظمها روسية الصنع (T54-55) لكنها تتضمن T62 وحوالى ٧٥ PT76 استطلاع برمائية.

التشكيلات المدرعة الميكانيكية، تتضمن ٢٠٠٠ حاملة أفراد مدرعة. يمتلك الجيش صواريخ سطح - سطح، تشمل ... طبقا لمعهد الدراسات الاستراتيجية الدولية، FROG3,٢٤، بعض FROG7 بمدى ٥٠ كم و١٠٠ SAMLETS.

القوات الجوية (قائدها اللواء حسنى مبارك) لديها ٦٢٠ طائرة قتالية، تتكون من : ٢١٠MIG21 اعتراضية (١٤ إلى ١٥ سربا)، ٨٠SUKHOI7قاذفة مقاتلة (٦ إلى ٧ أسراب)، ٢٥TU16قاذفة متوسطة (٣ سرب) وعدد من M1G17 (٦ إلى ٧ أسراب) لم يعرف أن سلمت أى طائرات قبل العمليات. مجموعة من طائرات MIG 25 الخاصة بالاستطلاع العالى، يقودها روسيون، تم سحبها عند إخراجهم فى ١٩٧٢.

عنصر هام فى القوات الجوية، أسطول طائرات الهليكوبتر من ١٩٠ طائرة. MI.8٩٠كبيرة، ٢٠ إلى ٣٠ MI.6، وحوالى ٧٠ إلى ٨٠ MI.4.

الدفاع الجوى قائم على صواريخ SAM 2&.3 . لم يعرف الرقم الفعلى لمواقع الإطلاق، لكن نظامهم المحكم الذى غطى بشكل مخروطى، قاعدته منطقة القناة وقمته القاهرة، حتى المناطق القابلة للاختراق، كقاعدة غرب القاهرة والإسكندرية والسد العالى بأسوان، تم تدعيمها. المناطق شمال وجنوب القناة - القاهرة، تم نشر قواعد صواريخ، إلا أنها ليست على نفس الدرجة من الإحكام.

صاروخ SAM2 يستخدم ضد هجمات الطيران العالى والمتوسط الارتفاع، SAM3 للطيران المتوسط، ضمت إلى SAM2، لتغطية المناطق المعمية للأخيرة. يتبقى للعدو فرصة الهجوم بالطيران المنخفض. ولاتقاء ذلك فى المناطق المتقدمة، كانت صواريخ SAM6 المتحركة، SAM7 (STRELA) المحمولة. إضافة لذلك، كان نظام الدفاع الجوى مدعما بمدفعية حديثة مضادة للطائرات، تلك التى الحقت خسائر جسيمة بالعدو أثناء الحرب. نظام الدفاع الجوى الكامل، بما فيه بعض أسراب MIG21 ضمنا، تركزت قيادته فى اللواء محمد على فهمى. السيطرة المركزية والتنسيق بين الصواريخ على امتدادها، ونظام دفاع طائرات MIG21، قيل أنه اعتمد على معاونة متخصصة من بعض المستشارين الروس، لكن الوحدات على امتداد القناة، قادها ضباط مصريون وفنيون على مستوى عال جدامن التدريب. كنقطة فى غير صالح نظام الدفاع الجوى الصاروخى المحكم، هى أن يكون طيران النظام نفسه عرضة للنيران فوق منطقته، بالذات عندما تكون الطائرة تتقدم بضعف سرعة الصوت MACH2 أو أكثر. فلم يصمم بعد نظام يحدد الصديق أو العدو (INTERNATIONAL FRIENJFOE,I.F.F.) ليحمى الطائرة بسرعة الصوت، من التعرض للهجوم بواسطة صواريخها الدفاعية. الوسيلة الوحيدة لتأمين سلامة طيرانه هو إعداد منطقة «بدون نيران» عبر المنطقة، أى ممر مفتوح يتفق عليه مسبقا مع قواعد الصواريخ. مخاطر ذلك بالطبيعة، أن رادارات العدو ستكتشفه فورا، وبالتالى تستخدمه فى هجماتها المضادة للصواريخ. المصريون، باعتمادهم التام على التغطية الصاروخية، قرروا عدم السماح بمنطقة خالية من النيران. هذا القرار منع القوات الجوية من العمل

فوق المنطقة، إلا فى حالة الضرورة القصوى، وعند استخدامه، فببساطة، عليهم أن يتقبلوا مخاطر الإصابة بصواريخهم الدفاعية نفسها.

البحرية المصرية – اللواء فؤاد زكى–: تتكون من ١٢ غواصة روسية من نوع (W 6 & 6R)، ٤ حراسة بريطانية الصنع، ١ معونة روسية، ١٢ مطاردة للغواصات روسية، ١٢ كاسحات ألغام، ١٩ قوارب صواريخ نظام (OSA & KOMAR) روسية مسلحة بصواريخ STYX سطح – سطح، وبعض قوارب الإنزال. الأسطول مقره الرئيس الإسكندرية، خصص بالطبيعة نظاما دفاعيا فى شرق البحر المتوسط. مدمرتان، أرسلتا فى وقت سابق، حول رأس الرجاء الصالح إلى البحر الأحمر، حيث تمركزتا فى بورسودان – حتى وقوع الشقاق السياسى بين مصر والسودان – وعليه أرسلتا إلى كراتشى لبعض الوقت، ثم عادتا فتمركزتا فى عدن. هناك تقارير تفيد أن إسرائيل حاولت التفاوض مع الحبشة، لاستخدام جزر باب المندب فى إقامة قاعدة قوارب للداورية، لكن لم يتم ذلك. فمضيق باب المندب تمت السيطرة عليه بالمدمرات المصرية، وعدد من قوارب الداورية المصرية، وأخرى تمركزت على امتداد خليج السويس.

قوات الهجوم فى القناة:-

التشكيلات الميدانية فى الجيش المصرى مكونة من: الوية، وفرق، وجيوش. الجيش المصرى فى حقيقته، كتائب عسكرية، أو «كتائب» كالمعروف عن الجيوش الغربية وفى الهند. تجمع من الفرق تحت قيادة عمليات. القوات المخصصة للهجوم هى: الجيش الثانى، والجيش الثالث فى منطقة القناة، الجيش الأول كاحتياطى. (حقيقة الأمر لاتوجد قيادة عامة أو قائد للجيش الأول) القوات الاحتياطية، تمركزت بالقرب من القاهرة، التى تقع تحت القيادة المباشرة للقيادة العامة، وأطلق عليها مجازا، الجيش الأول.

الخطة العامة للهجوم، هى أن الجيش الثانى موزع على خمس فرق بقيادة اللواء سعد مأمون، فيما بين بورسعيد والبحيرات المرة الكبرى، ومقر قيادته الإسماعيلية. والجيش الثالث موزع على ثلاث فرق، بقيادة اللواء عبد المنعم واصل، إلى يمين البحيرات المرة الكبرى، وميناء السويس، ومقر قيادته فى الصحراء، جنوب البحيرات المرة الصغرى.

الجيش الثانى: القوات الأمامية من اليسار إلى اليمين:

الفرقة ١٨ مشاة، بقيادة العميد فؤاد غالى، فى منطقة القنطرة غرب.

الفرقة ٢ مشاة بقيادة العميد حسن أبو سعدة فى منطقة الفردان.

الفرقة ١٦ مشاة بقيادة العميد عبد رب النبى حافظ فى جنوب بحيرة التمساح.

الاحتياطى:

الفرقة ٢١ المدرعة بقيادة العميد إبراهيم عرابى.

الفرقة ٢٣ الميكانيكية بقيادة العميد حسن عبد اللطيف.

الجيش الثالث: القوات الأمامية من اليسار إلى اليمين:

الفرقة ٧ مشاة بقيادة العميد أحمد الزمر، فى منطقة البحيرات المرة الصغرى وجنوبها.

الفرقة ١٩ مشاة بقيادة العميد يوسف عفيفى، منطقة ميناء السويس وشمالها.

الاحتياطى:

الفرقه ٤ مدرع بقيادة العميد محمد عبد العزيز قابيل.

الجيش الأول: احتياطى القيادة العامة:

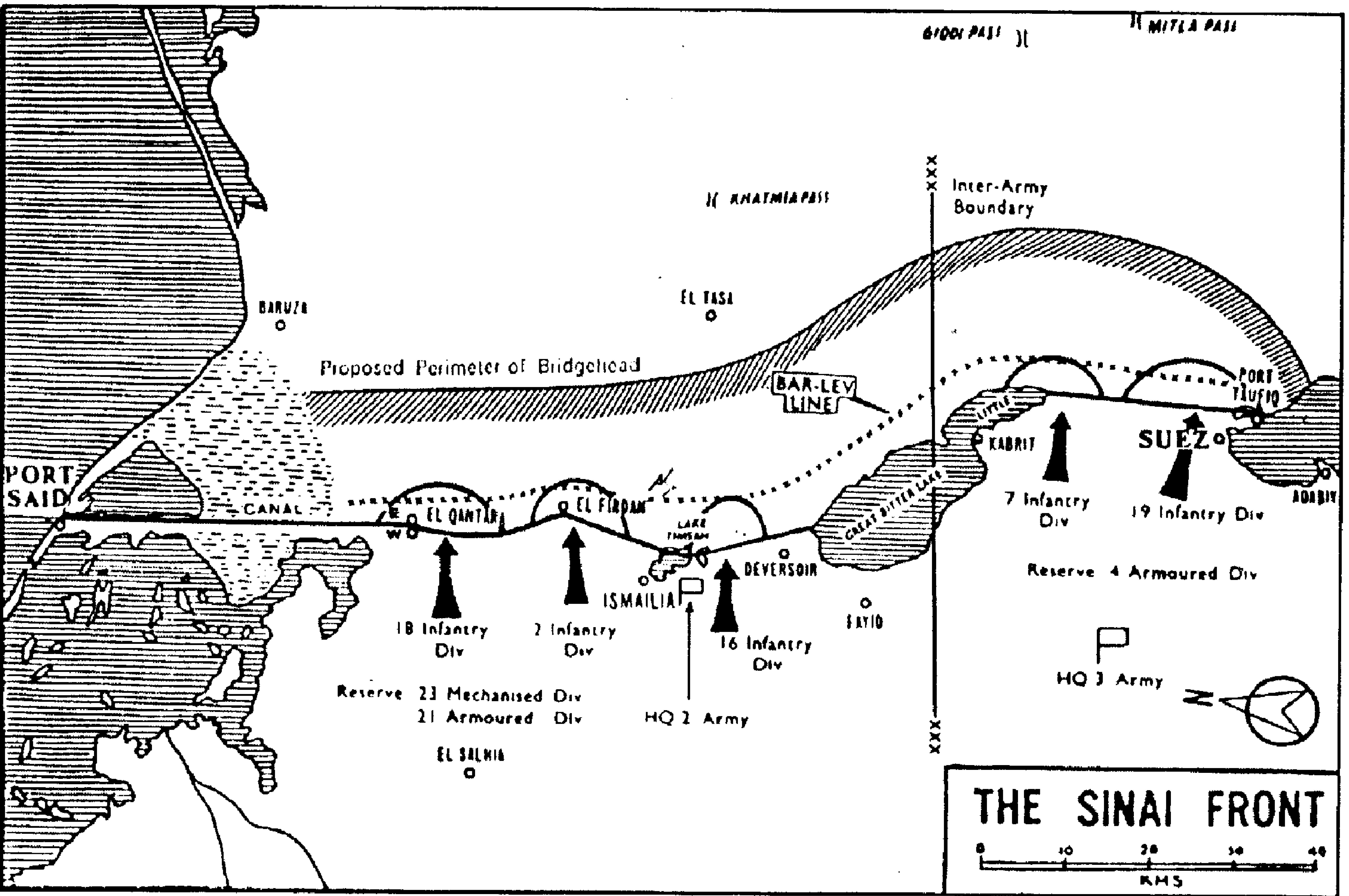
الفرقة ٣ الميكانيكية، بقيادة العميد محمد فرحات تلجانى.

الفرقة ٦ الميكانيكية، بقيادة ابو الفتح محرم.

الفرقة ١ قوات خاصة.

سنرى أن القوات المهاجمة كلها فرق مشاة؛ فرقة المشاة المصرية مكونة من ثلاث كتائب دبابات، واحدة بكل من الثلاثة ألوية، إضافة لكل مهمة رأس جسر، كل فرقة متقدمة من المشاة تطعم بلواء مدرع كدعم. الدبابات، وهى عصب الكتائب، وتلك الداعمة للألوية، يمكنها الانضمام للفرق المتفرقة، بمجرد إتمام إقامة الكبارى.

فى الحال الأول، الألوية المتقدمة من الثلاث فرق المهاجمة تقيم رؤوس جسور منفصلة، اثنان من بورسعيد والإسماعيلية، وواحد جنوب البحيرات المرة، عندها تتمكن الألوية الاحتياطية من العبور.



(خريطة جبهة سيناء)

وفى الحال الثانى، تقام خمسة رؤوس جسور منفصلة، لتشكل رأس جسر مستمر للجيش المصرى، يمتد إلى ٢٠ كم فى العمق، كما هو موضح فى الرسم؛

المهام الوحيدة، فيما يعد حدود رأس الجسر النهائية قد تكون:

الجيش الثاني: يقوم باستغلال جناحه الأيسر في احتلال رمانة، وهي موقع تدار منه عمليات قصف بورسعيد.

الجيش الثالث: ويقوم باستغلال ميمنته، جنوبا تجاه الشاطىء الشرقى لخليج السويس، ويحتل رأس سدر، التى تمثل عنق الزجاجة للاتصالات، حيث يجرى الخط العلوى نحو جنوب سيناء، ليلتقى بخط الشاطىء.

جانب هام من خطة الهجوم، خصوصا عند القيام بالهجوم على جبهة عريضة، هو دقة تحديد الشكل الداخلى للخطوط الفاصلة. الغرض من ذلك هو تجنب القوات المهاجمة اعتراض بعضها البعض، وتبيان حدود كل منطقة تدخل تحت سيطرة كل قائد تشكيل، ومدى امتداد سلطاته فى حالة وقوع هجوم مضاد من العدو. من المهم، أن أى ملمح جغرافى، مثل طريق أو قرية أوتل أو بحيرة تقع على مقربة من الخط الفاصل، تدخل بكاملها ضمن هذا التشكيل أو الآخر، ولا تقسم بينهما، وإلا فقد يفترض كل قائد، أن الآخر هو القائم بإجراءات الأمان. وقد يكون المأرب الأساسى - هو رسم الخط الفاصل بين الجيش الثانى والجيش الثالث، فيما بين البحيرات المرة الكبرى والصغرى، ومن المحتمل أنه تم التفكير فى أن يقبل الجيش الثالث، مدى أطول على الجبهة، أو احتمال أن اعتبر الوضع على غير قدر من الأهمية، وترك لعناية ضابط صف. مهما كانت المبررات، فالخط الفاصل للبحيرات المرة، وبامتداده المرسوم على الكروكى السابق، لا الجيش الثانى ولا الثالث أصبح مسئولا مسئولية كاملة عن البحيرات. سوء تقدير كلف المصريين غاليا.

اليوم والساعة:

توقيت الهجوم، قام على قرارين منفصلين، ساعة بدء العمليات الهجومية، وتاريخ اليوم الذى يبدأ فيه شن الهجوم. ورغم مسئولية القيادة العربية المشتركة الشكلية تجاه

هذين القرارين، فالثابت أن اليوم المعهود هو من اختصاص مصر، التي أمسكت بزمام المبادرة السياسية والاستراتيجية، وتقع على عاتقها المسئولية المباشرة.

اختيار الزمن في يوم الاقتحام، غلب عليه القرار التكتيكي، وبالطبع فهناك اعتبارات قيام صراع على الجبهتين، المصريون يهاجمون باتجاه الشرق، والسوريون باتجاه الغرب، حيث أراد الاثنان شن الهجوم والشمس خلفهما (وبالتالي في أعين العدو). كان هناك خلاف بين الهجوم في الفجر، أو في الغسق، كان لدى المصريين سبب ملح للبدء في الهجوم في وقت متأخر من اليوم، اعتماداً على ساعات الظلام، لاستكمال الكباري وعبور المعدات الثقيلة. لذا كان الهجوم في الفجر مرفوضاً. عامل آخر له وزنه، أنه يجب شن هجوم المشاة بالقوارب في الوقت الأمثل لحركة المد في القناة، وهي فترة عدم السكون بين المد والجزر. في النهاية، استقر رأي الفريق إسماعيل وأركان حربه، على تحديد ساعة ١٤٠٠ (الثانية مساء) للبدء في العمليات. عند هذا الوقت، تبدأ كلتا الجبهتين الهجوم، على الجانب المصري، تبدأ العمليات بالطيران والمدفعية (رغم أن الوقت المحدد لتقدم قوارب المشاة في القناة هو ساعة ٢٠ر٢). وعلى الجانب السوري، تقود الدبابات الهجوم، تحت ساتر من نيران المدفعية. ساعة البدء هي ـ ر٢ مساء بالضبط، اختيار يوم الهجوم، تم على أساس عوامل سياسية واستراتيجية. في وقت ما، في بداية عام ١٩٧٣، كان هناك كلام عن بدء الحرب في مايو، هذا الاقتراح تم تجاهله لأن الجبهة العربية لم تكتمل أوضاعها، وعلى كل، فلم تتسلم أي من سوريا أو مصر، رسائل كافية من الأسلحة والمعدات، خصوصاً معدات العبور .TPP ومن المحتمل أنه بحلول أغسطس، أن يكون أحد أيام أكتوبر الأولى قد تحدد بمعرفة السادات وإسماعيل للبدء في الهجوم، لكن ظل هذا سراً بين فردين أو ثلاثة على الأكثر. وقد اعتمدت عوامل التوقيت على بزوغ القمر (لأن الليل المقمر، يساعد على مد الجسور وعمليات العبور)، وكذا أوضاع مد مناسبة الساعة ـ ر٢ مساء، وهي الساعة التي اتفق عليها، أوائل أكتوبر تقع خلال شهر رمضان، وقت لا يتوقع فيه الإسرائيليون أية مبادرات مصرية.

٦ أكتوبر، يوافق العاشر من رمضان، في هذا اليوم من ١٣٥٠ عاماً مضت، أعد

النبى محمد غزوة بدر، التى أسفرت عن دخوله منتصرا مكة، بعدها بعشرة أيام، ولم يغب عن ذهن الفريق إسماعيل أن ٦ أكتوبر، هو يوم كيبور (يوم الكفارة عند اليهود)، أقدس الأيام فى التقويم العقائدى الإسرائيلى. يوم تكون فيه دفاعات خط بارليف ووحداته فى أدنى أوضاعها.

ظل هذا اليوم سرا، حتى على المجلس الأعلى فى القاهرة فى منتصف سبتمبر. وفى ٣ أكتوبر طار الفريق إسماعيل والفريق نوفل - رئيس عمليات القيادة العربية المشتركة - إلى دمشق، للكشف عن يوم البدء للرئيس الأسد والقيادة العامة السورية. الهجوم المشترك، الذى أطلق عليه الاسم الكودى «العملية بدر»، سيبدأ فى الساعة الثانية مساء ٦ أكتوبر.

عاد الفريق إسماعيل إلى القاهرة فى نفس اليوم (فعليه أن يفصح عن سره إلى ضباطه)، فى حين توجه الفريق نوفل إلى عمان فى ٤ أكتوبر ليتباحث مع اللواء شيخ شاكر، فالأردنيون لايجب أن يعرفوا بيوم العمليات، ولا أن تكون هناك نية لشن هجوم شامل. ولو أنه من المتوقع أن يخمن الملك حسين هذه الحولية. كل ما كان مسموحا للفريق نوفل الإفصاح عنه لزميله الأردنى، هو أن سوريا قد تشتبك فى حرب مع إسرائيل، وأن مصر قد تتدخل لمساعدتها. وطبقا لذلك، فيجب أن تتأهب القوات الأردنية.

فى مصر، قادة الفرق علموا فى ليلة ٥ أكتوبر أنهم سيحاربون فى اليوم التالى، قادة الألوية، عرفوا فى الساعة -ر٨ صباح ٦ أكتوبر، الحلقة الأخيرة فى السلسلة، وهم الرجال فى مقدمة الهجوم فى القوارب، عرفوا فى الساعة -ر١١ أنهم سيقودون حملة تحرير الأرض بعد ثلاث ساعات.

الفصل الخامس

عـــــودة إلـى سيناء

السبت ٦ أكتوبر، الزمن ساعة وجبة الغداء، المكان ضفاف قناة السويس، قرب كوبرى الفردان المعطل. مجموعة من الجنود المصريين يرتدون الطواقى، يتجولون على الشاطىء الرملى، يأكلون البرتقال ويرمون القشر على الجوانب، على مبعدة للداخل، سيارة نقل مياه معطلة، يدفعها رجال مرهقون، يتفصد منهم العرق. أحد المراقبين الإسرائيليين من فوق أحد الابراج، يتابع المنظر. شىء مماثل لما يحدث كل يوم. فلا يوجد مصرى على امتداد البصر يرتدى خوذة. خلف موقعه على الضفة الشرقية، يلعب الإسرائيليون كرة القدم فوق ملعب رملى. تحت فى موقع الإعاشة، يقام قداس لأهم ما فى العقيدة «يوم كيبور». فى تمام الثانية، فجأة تتقدم من جهة الشرق، أربع طائرات ميج، تصرخ وهى تطير على ارتفاع منخفض، ثم تعلو انفجارات تصم الآذان على امتداد ضفة القناة، فى نفس الوقت، بعيدا إلى اليسار وإلى اليمين من النقاط الحصينة، طوابير المصريين، تنحدر على الحاجز الرملى، حاملة قوارب مطاطية، يلقونها فى الماء ثم يركبونها مع البدء فى التجديف. عبر القناة. ثم يحجب الغبار كل شىء عن الرؤية.

الفرقة الثانية، بدأت هجومها، «العملية بدر» شنت بمفاجأة تامة. بدأ العبور بلواءين فى المقدمة، أربع كتائب فوقية، الضبط حسب ما سبق إجراؤه من تدريبات. القوات المهاجمة، عبرت القناة دون أن تتعرض لأى نيران، فلا دفعات مدافع رشاشة، ولاستار من النابالم على صفحة المياه، لاقذائف مضادة من المدفعية الإسرائيلية، عندما استقرت القوات المهاجمة على رمال سيناء، وبدأت صعود المانع الرملى؛ أنزلوا سلالم من الحبال لتسهيل وسرعة صعود باقى القوات، وبسرعة ارتفع العلم المصرى المثبت فى قوائم من الصلب فى الرمال، علامة نجاح، لكى تعبر القوات المتابعة. ثم موجة بعد موجة اندفع المشاة المصريون فى المياة، وعبروا القناه بسرعة فائقة.

لم يدهش قائد عمليات الفرقة الثانية، من انعدام رد الفعل الإسرائيلى، فخلال

الليلتين السابقتين للهجوم، مجموعات من الفدائيين عبروا سرا، وقطعوا اكوابل الاتصال والمواسير المدفونة فى تركيبة خط بارليف، كيف كان فعالا هذا القطع لوسائل الاتصال، حتى أن النداءات المذعورة التى تطلب المساندة النيرانية للنقاط الحصينة، لم تصل إلى المدافع فى الخلف. العميد فهيم شديد - رئيس الأركان وقائد القوة بعد ذلك. فى وصفه نتيجة المعركة يقول: إنه شىء مذهل، القوات التى اعتبرناها فى وقت ما خارقة، بدت وقد غلب عليها الخوف؛ المشأة هى التى قامت بالهجوم، والمشاة هى التى اخترقت محطمة خط بارليف. لساعات عديدة، لم يحمل رجالنا سوى صواريخ مضادة للدبابات وقنابل يدوية، صواريخ تطلق من الكتف طراز ميلوتكا، تلك هى التى حاربت ضد دبابات العدو وقلعته الماجينوتية. لقد اعتمدنا على عنصر المفاجأة، وبفضل الله حققناه، لقد انهار العدو تماما عندما رأى موجات المشاة المصريين، يعبرون القناة فى وضح النهار. وجرى .. صدقنى.. جرى، تاركا حصنه، تاركا دباباته... جماعات صيد الدبابات مكثت ساعات تطارد الدبابات الإسرائيلية بقنابلهم اليدوية وصواريخهم المحمولة. كثيرا ماحدث أن دبابة إصابتها طفيفة من قنبلة يدوية، لكن طاقمها يستسلم، حتى لايتعرض لأسلحة المدرعات.

«لم تكن هناك نبرة غطرسة فى كلمات العميد، ولانزعة عنصرية أو تحقير للعدو»؛ «بعد كل هذا الذى قادنا للاعتقاد بتفوق الإسرائيلى»، استطرد العميد شديد، «وجدنا أنه كأى جندى آخر. فى ١٩٦٧ عندما فوجئنا، وضربنا بعنف، جرينا، الآن جاء دوره، لقد وضعناه فى حجمه الحقيقى». الصورة متشابهة كلها عبر القناة، فى القنطرة، الفردان، امتداد بحيرة التمساح، وفى قطاع الجيش الثالث، ومع تقدم موجات المدفعية المدمرة من مستوى إلى مستوى، ثمانية آلاف جندى مشاة مصرى فى الموجة الأولى، زحفوا متقدمين شرقا. تقريبا، كل مصرى جاء متسلقا الساتر الرملى، كان محملا بأثقال من المعدات، البعض يحمل مواسير فوق أكتافهم، والبعض يسحب عربات

صغيرة، وآخرون يحملون ما يبدو وكأنه حقائب معدنية أو قماشية. المواسير هى التى تطلق صواريخ RPG7 المضادة للدبابات، أما الحقائب فهى المعبأة بصواريخ ميلوتكا «ساجر» السلكية التوجيه، والمضادة للدبابات، أما العربات، فتحمل صواريخ SAM7 المتطورة التى يستخدمها المشاة ضد الطيران واسمها الكودى «STRELA»، بذا كان المشاة مكتفين فى الوقت الحالى، دفاعيا، ضد الدبابات والطائرات - اندفعت القوات المهاجمة نحو الخط الثانى للدفاعات، وخاصة الدبابات، التى كانت تحت نيران المدفعية المصرية، من مواقع التباب العالية التى أقاموها فى مواقع على سدهم الرملى. خلال ساعة أو ساعتين كانت معظم الدبابات فى خط بارليف قد أعطبت. ورغم أن معظم النقاط الحصينة فى خط بارليف هوجمت بعد حلول ظلام هذه الليلة، إلا أن البعض تم الاستيلاء عليها فور عبور القوات. أول المواقع التى سقطت كان عند الكيلو ١٩ جنوب بورسعيد فى الساعه ٣,٤٥م، وأثناء الليلة الأولى تم الاستيلاء على ١٥ موقع حصين لم تسقط كل النقاط بسهولة، فبعضها تطلب تكرار الهجوم محتملا خسائر كبيرة. واحدة فقط، نقطة حصينة شمال البلاح، نجحت القوات الإسرائيلية فى استعادتها، لكن لفترة بسيطة قبل أن يجتاحها المصريون. أما نقطة بور توفيق فى الجنوب، فلم تسقط حتى ١٢ أكتوبر. هجمات كثيرة بالرشاشات قام بها الطيران الإسرائيلى، بعض الطلعات كانت بالفانتوم، قوبلت بتغطية صاروخية من الضفة الغربية، ومن صواريخ SAM7 مع القوات المتقدمة التى حدت من كفاءة هذه الطلعات. أعلن المصريون تدمير ٣٢ طائرة للعدو فى يوم ٦ أكتوبر؛ فى تمام الساعة ٢,٠٧، أعلن راديو القاهرة البيان رقم ٥:

نجحت قواتنا فى عبور قناة السويس، فى عدة قطاعات، استولوا على نقاط حصينة فى هذه القطاعات، وارتفع العلم المصرى على الضفة الشرقية للقناة. (البيان الأول، أعلن بشكل عابر عن تفجر الصراع... معلنا أن إسرائيل بدأت بالعدوان). من الصعب فهم هذا الادعاء المقلد، فإنه لم يتكرر. بتقدم المساء، كانت قد استقرت ثلاث رؤوس جسور عبر قناة السويس. المشاة فى الطليعة بتقدمها من ٣ـ٤ كم فى الصحراء.

الدبابات PT76 البرمائية، سبحت القناة، وانضمت إلى قوات رأس الجسر، غالبيتها استخدمت فى نقل معدات ثقيلة قبل إقامة الجسور.

التطور الثالث القاطع، هو الاستعدادات لإقامة كبارى عائمة، والتى بدأت بمجرد التلويح بإشارات النجاح. مجموعات منظمة من كل كتيبة، تشمل رجال إشارة ومعديات، بوليس حربى ومهندسين، اندفعوا إلى ضفة القناة فى تصميم مدرب، وأقاموا نقاط معدية على كلا الجانبين فى موقع كل كتيبة. المدقات مدت على الحوائط الرملية للدخول والخروج لموقع كل معدية. وقبل أن يحل الظلام، أصبح لكل كتيبة موقع لعمليات عبورها حاملة الرجال والمعدات عبر المياه. فى نفس الوقت، المضخات التوربينية تم تعويمها على الماء، وأخذت تهيل حائط الرمل الإسرائيلى بوصة - بوصة. المهندسون منهمكون فى تفجير ضفة القناة بالمتفجرات، بينما البلد وزرات تزيح الأنقاض لتجهيز أماكن رباط ومد الجسور. جملة مواقع المعابر عشرة، اثنان لكل فرقة رأس جسر فى طريقها للاكتمال، وتلك هى المناطق التى قد يركز عليها طيران ومدفعية العدو. عادة مثل هذه الأعمال، لا يمكن القيام بها إلا بعد حلول الظلام، إلا أنه فى هذه الحالة، فالساعات الثمينة بين الثانية مساء وآخر الليل، لايمكن إضاعتها سدى. المخاطر يمكن تقبلها مع تقليلها بنشر ستائر الدخان، وفوق كل شىء، خداع العدو. كان مقررا أن كل فرقة ستقيم كوبرى «دمية»، وذلك لخداع العدو، مثل هذا الذى أقامه المصريون عند الفردان. خط السكة الحديد القديم، القاهرة ـ القدس، كان يعبر القناة من فوق الكوبرى المتحرك «الفردان»، مازالت مواقع الخط الحديدى قائمة كما الكروكى، رغم أن الإسرائيليين انتزعوا قضبانه لتدعيم نقاطهم الحصينة.

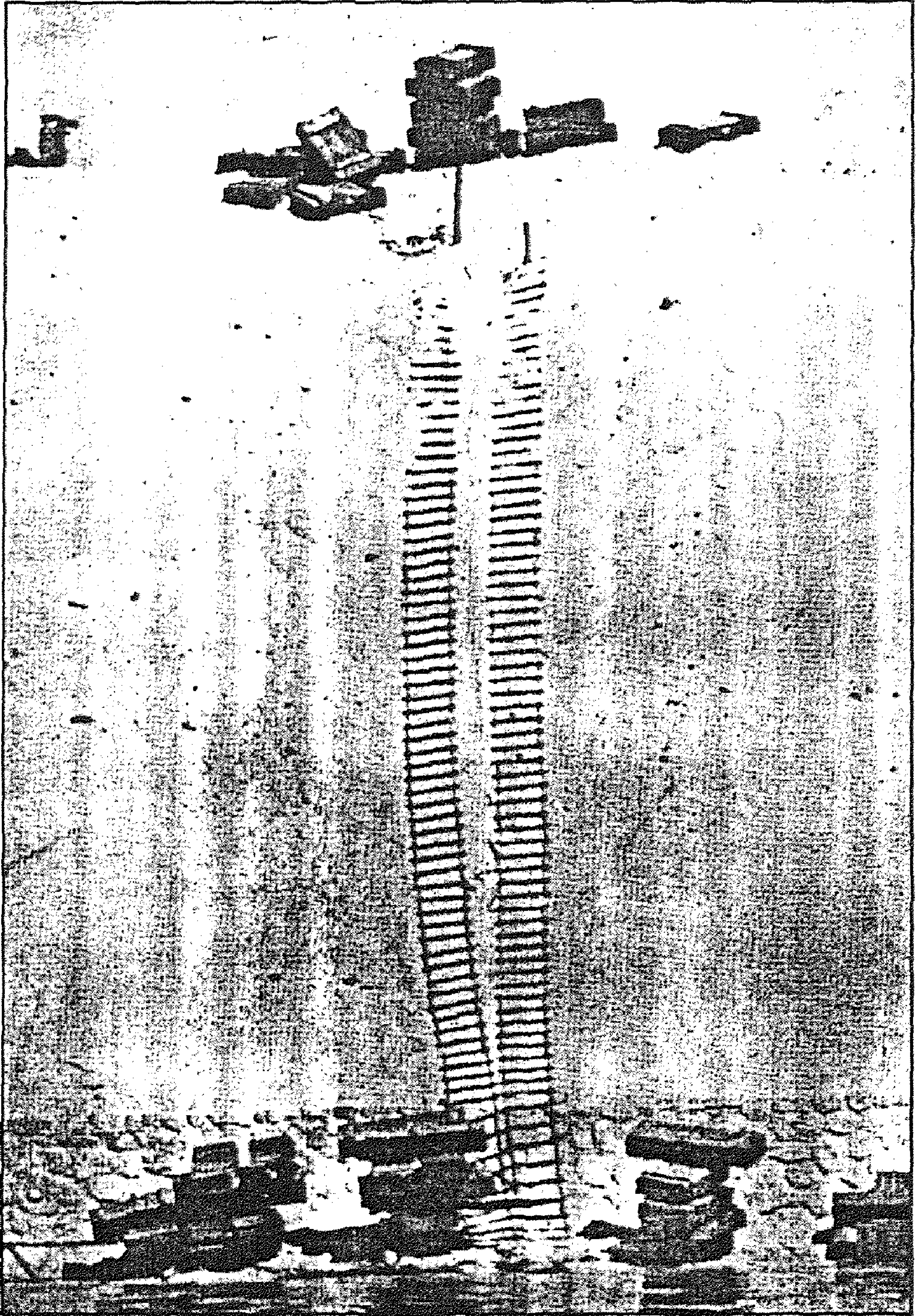
مدق من الإسماعيلية، جعل الأمر يبدو كمكان ملائم للعبور، ولهذا بنى الإسرائيليون نقطتين حصينتين على جانبى كوبرى «الفردان»، شمالا وجنوبا. قرر القائد الميدانى إهداء هذا الكوبرى الخداعى للإسرائيليين، أما مواقع كباريه فعلى بعد بضعة كيلو مترات واحد إلى الشمال والآخر إلى الجنوب. أقيم الكوبرى الخداعى بنفس



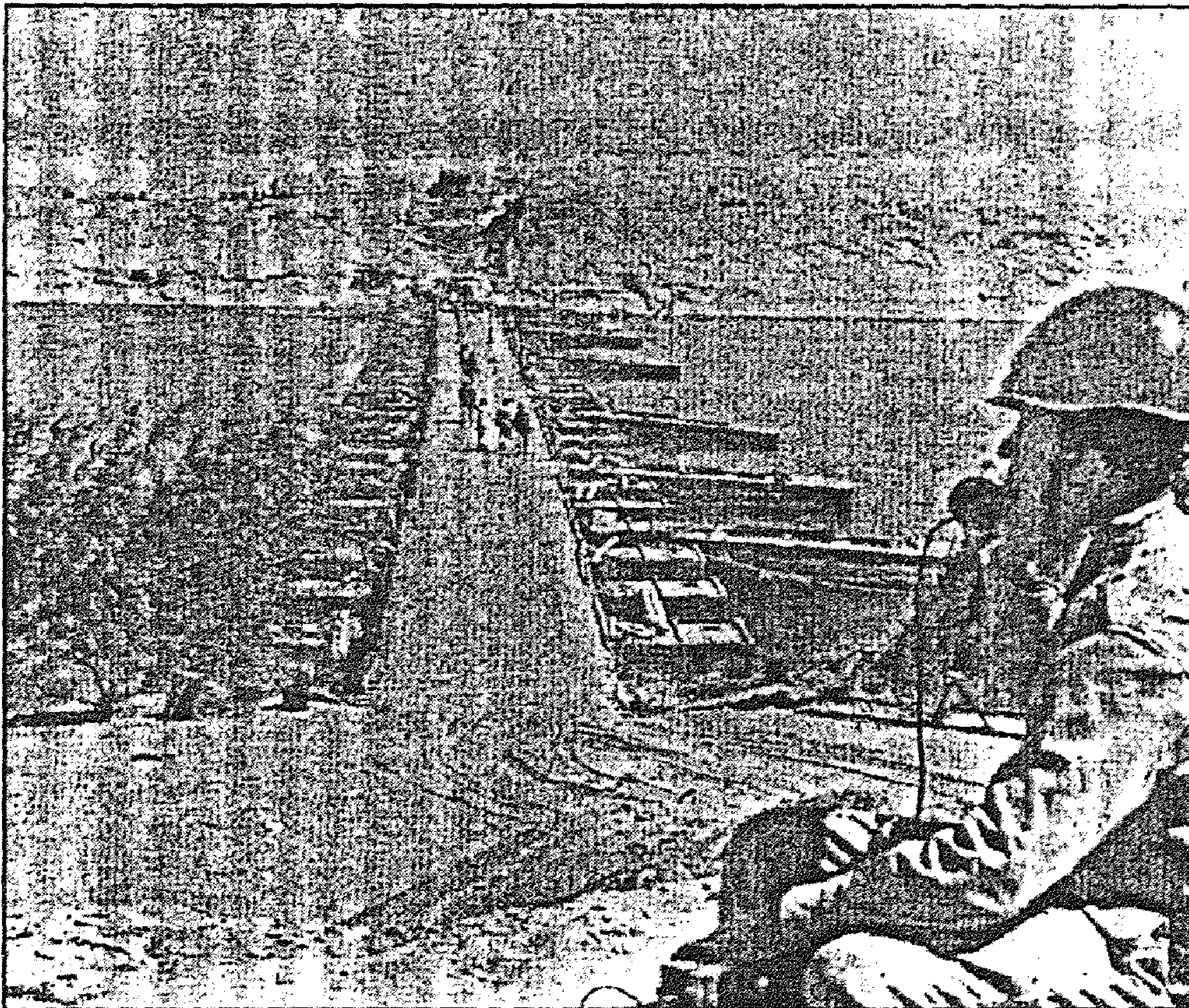
(سريعا ما ارتفع العلم المصرى على قوائمة الصلبة المغروسة فى الرمال)



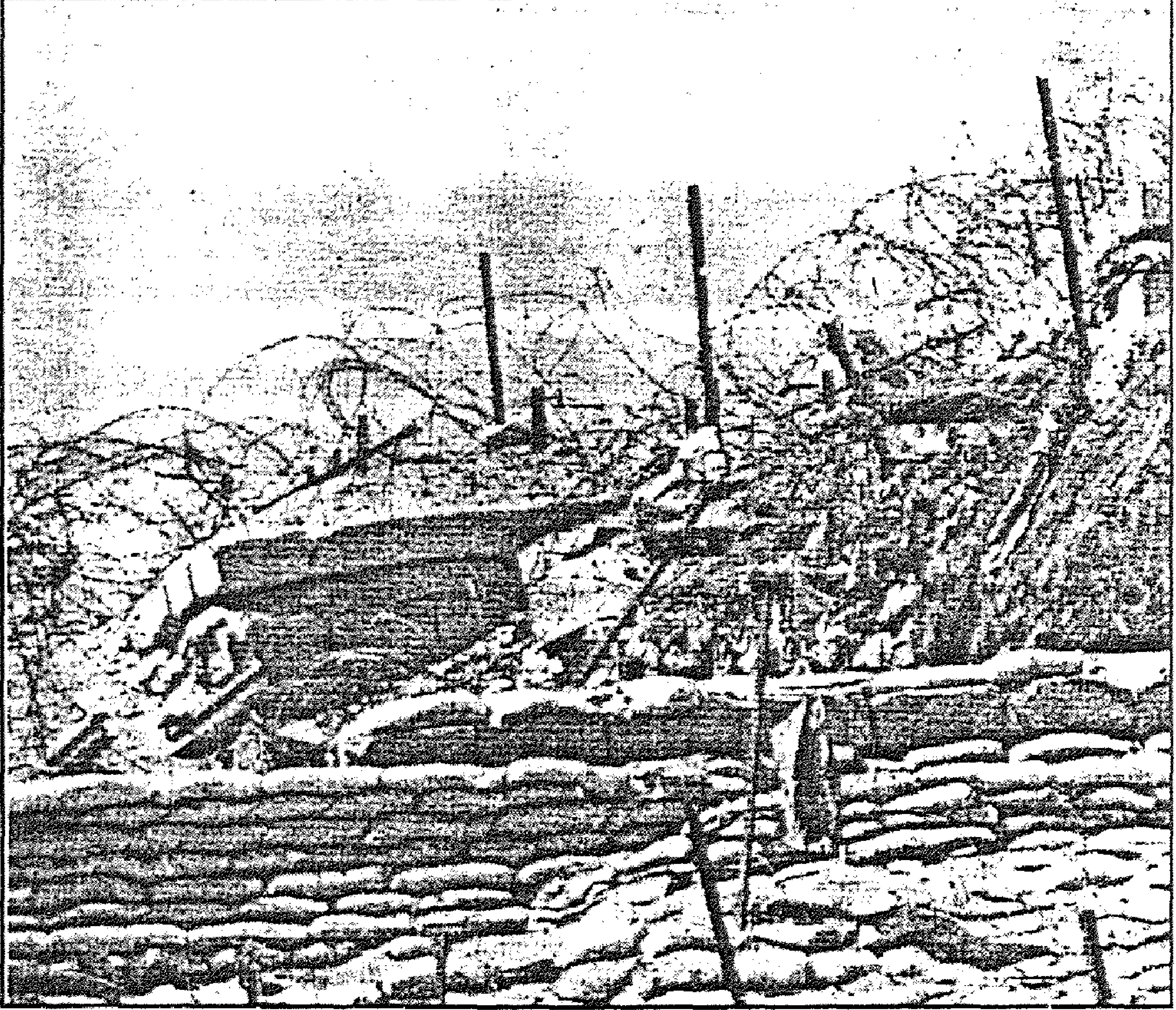
(إشارة النجاح من الضفة المستردة)



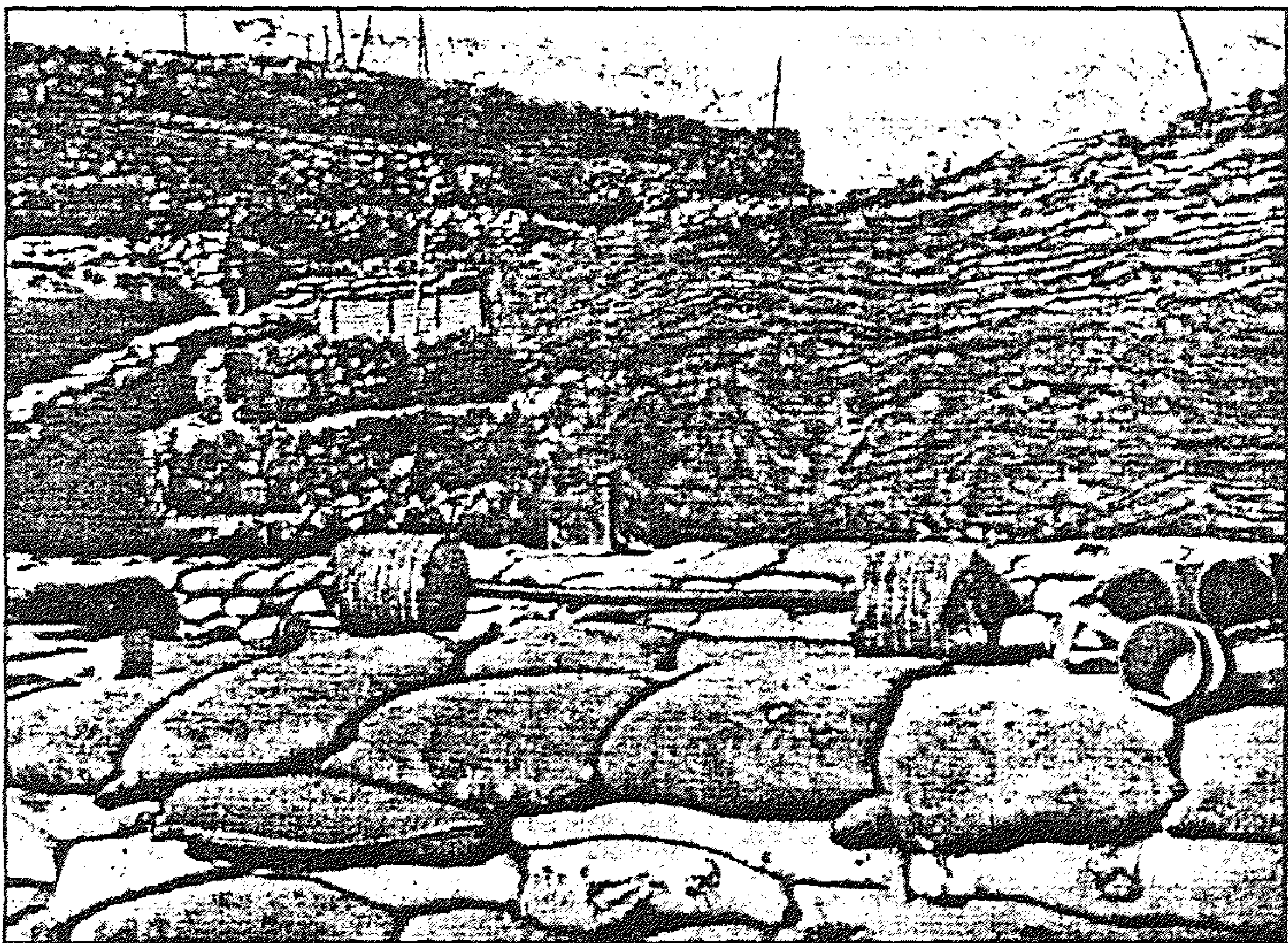
(دحرجوا سلالم الحبال للآخرين)



(كوبرى عائم P. M. P. عبر قناة السويس)



(الحائط الخارجى لنقطة حصينة من خط بارليف)



(الصرح بكامله يشبه هرما صغيرا وقد احتزت قمته)



(ضابط مصرى يقبل استسلام حصن بور توفيق من الضابط الإسرائيلى)



(مجموعة من الأسرى الإسرائيليين على الضفة الشرقية)

مواصفات الكبارى الأخرى، نفس مآخذ الخراطيم، نفس تحركات المهندسين إلى حافة المياة، نفس تدفق اللوارى المحملة بمعدات الكوبرة، وإذا أصيب بالقنابل، فيتم إصلاحه مرة أخرى. الخلاف الوحيد هو أن ساتر الدخان كان أكثر انتشارا، مما يعطى انطباعا لطيران العدو أن الخسائر ثقيلة. ورغم ذلك، كان هناك العديد من الذين تطوعوا للعمل في الموقع الكارثة. (وفعلا قام الطيران الإسرائيلى بتدمير هذا الموقع على الفردان مرتين فى ٢٤ ساعة، وأعلنوا بسرور فائق عبر إذاعاتهم، أنهم «دمروا معظم الكبارى..!» .

فى يومى ٦،٧ أكتوبر، كانت الخسائر حقيقية، ثقيلة فى الموقع الخداعى، لكن لم تذهب سرى، لأنها مكنت من بناء كوبريين لفرقتين أخريين فى زمن قياسى. كان أسرع زمن لبناء الكوبرى ٧ ساعات، فى يوم العبور، استغرق ٥ ساعات فقط..!. وعبرت فرقتان من الدبابات إلى الضفة الشرقية فيما بين ٦ إلى ٨ ساعات قبل منتصف ليل ٧/٦ أكتوبر بوقت كاف. الكبارى الروسية طراز PNP، تتكون فى أجزاء على شكل صناديق مطوية محمولة على عربات، تتقدم إلى الضفة، ثم تقذف حمولتها لتتحول إلى عوامات بواسطة محركات جانبية مثبتة فيها تعدها لاستقبال القطع التالية، وقد وصف الإسرائيليون ذلك بقولهم: «كان الكوبرى يكبر عبر المياه كذراع ممتدة». قصة الفردان لم تنته عند هذا الحد، فالفكرة الخداعية نجحت، حيث قام القائد الميدانى للفرقة الثانية باستخدامها فى وضع كمين للإسرائيليين بعدها بيومين، والذى أصابهم بواحدة من أكبر النكسات فى حرب سيناء. لم تسر الأمور كلها على الوجه الأكمل، فعلى جبهة الجيش الثالث، صادفت إهالة الساتر الرملي صعوبات عند معظم المواقع. فالرمال حصوية ومتلاصقة، مما يزيد من صعوبة «اكتساحها» بدفعات المياه، كان الحائط الرملى أكثر عمقا، بعضها بعمق ٦٠ مترا، حتى أنها قد تستغرق أياما لاختراقها. هذا التأخير سبب قلقا محزنا لدى الضباط العظام فى القيادة العامة، أثناء تلقيهم التقارير الواردة. فى الساعة الخامسة مساء، بدا وكأن الجيش الثالث قد تعثر. قام الفريق إسماعيل بإرسال اللواء جمال على، مدير سلاح المهندسين، إلى القطاع، وأصدر أمرا لمدرعات الجيش الثالث للدوران بطول الطريق شمالا حتى الإسماعيلية، لتعبر فوق كبارى الجيش الثانى، إلى الضفة الشرقية. فى النهاية، ولحسن الحظ، لم تقع أية

كوارث، لأن المشاة ومجموعات الصواريخ، تصدوا للهجمات المضادة حتى أكمل المهندسون إقامة الكبارى. قتل العميد محمد حمدى، نائب اللواء جمال عند أحد كبارى الجيش الثالث نتيجة لقصف جوى إسرائيلى. فى الوقت الذى كانت العمليات على القناة، تسير بشكل جيد، بدأ الطيران المصرى والفدائيون المحمولون بالهليكوبتر، مجموعة من الغارات، مستهدفة تدمير مراكز الاتصال والإدارة الإسرائيلية، ولما كانت هذه العمليات تقع فى مجال التغطية الصاروخية SAM، فكان من المتوقع حدوث خسائر ثقيلة، لكن كان هذا فى الاعتبار، لأن هذه المهام الاعتراضية كانت لازمة لإتاحة الفرصة لاستكمال عملية رؤوس الجسور. الطائرات الحربية المصرية، تجوب سماء شبه الجزيرة على ارتفاعات منخفضة، لتحاشى الرادارات الإسرائيلية، وتقذف الأهداف الاستراتيجية فى سيناء بدقة شديدة. طائرات ميج ٢١، سوخوى ٧، ضربت القواعد الجوية فى المليز وهازور والعريش، بل وأعلنوا إغراقهم لسفينة نقل عند «بات شيفا» على خليج السويس.

الغارات التى قام بها الفدائيون المصريون المنقولون جوا بالهليكوبتر، تستدعى الإشادة، لقد أعلنت إسرائيل أن خمس طائرات هليكوبتر من كل ستة، تم إسقاطها، إلا أن تلك التى نجت قامت بمهماتها على أكمل وجه. التأثير المباشر لهدف الغارات الاعتراضية بواسطة قوات الفدائيين، كانت الدعم الكامل لحقيقة أنه خلال ١٤ ساعة من بدء العمليات، لم تكن هناك سوى ٦ أو ٧ عمليات هجوم اسرائيلى مضاد على رؤوس الجسور المصرية، مما يعطى مؤشرا واضحا على مدى التفسخ والتصدع الذى أصاب المواصلات الإسرائيلية، حتى على مستوى مراكز القيادة. فى كل هذه التحركات فى اليوم الأول، لم تزد خسائر الطيران المصرى على ١٦ طائرة ميج ١٧، ٢١، وعدد لم يحدد من طائرات الهليكوبتر. (أعلنت إسرائيل أنها أسقطت ٢٠ طائرة..!).

مؤشر واضح للحرب، مخالف تماما للحروب السابقة العربية – الإسرائيلية، هو التغير العكس للمسار الدعائى والإعلامى المتشنج.

فى عامى ١٩٥٦، ١٩٦٧، كان الإدعاء الإعلامى المصرى الصاخب، بانتصارات مبكرة كاذبة، لم تقنع أحدا، يقابلها ويتشابه معها ما أعلنته إسرائيل فى أكتوبر

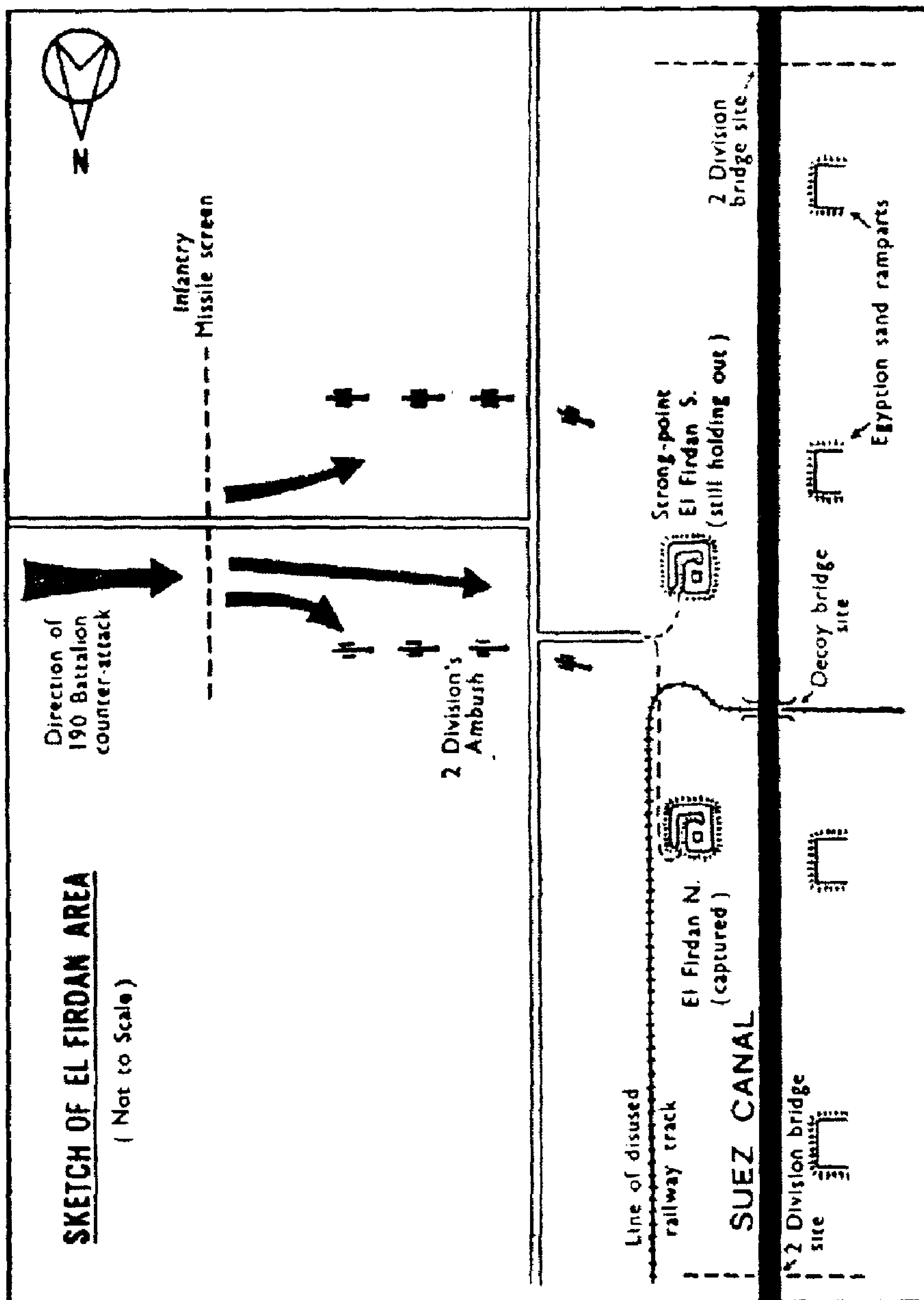
١٩٧٣ - حتى اللواء هيرتزوج، الذى لم يكن على علم تام بحقيقة الأوضاع فى الجبهة، أذاع ادعاءاته بانتصارات إسرائيلية يعلم تماما أنه سينكشف زيفها؛ فمرة قال بأن القوات المصرية تم دفعها للخلف عبر القناة، وتم تدمير من ١٠ إلى ١١ كوبرى، الأمر الذى تعارض مع الإعلان عن قيام ٢٠٠٠ دبابة مصرية بالعبور، كما لو كان ليست هناك علاقة بين الكبارى والدبابات العابرة، ادعاءات بتدمير طيران ودبابات بواسطة القوات الإسرائيلية، تجاوز جميع الاحتمالات، مما حدا بالسلطات الأمريكية بالتوقف عن قبولها، لعدم اقترابها من أية حقيقة.

بعكس الإعلام المصرى - حين يعلن عن أرقام - كان الأكثر معقولية - إضافة، اختفت النبرة الهائجة، أو المطالبات الشاذة «إلقاء إسرائيل فى البحر»، مثلما كانت أيام عبد الناصر. بيانات خسائر العدو، وبالذات، الدبابات والطائرات، كانت مقبولة، لوجود أكثر من مصدر يعطى نفس البيانات - فيما عدا البيانات الخاصة بتدمير الطيران الإسرائيلى، فمن المحتمل شمولها بعض المبالغة - لذا جعل الفريق إسماعيل الأمور واضحة من البداية، أنه لن يعتد بأى تقارير كاذبة أو مبالغ فيها. لذا كانت النتيجة - فيما عدا أرقام الطيران - أن البيانات المصرية عن خسائر العدو واعترافا بخسائرهم، هى الأكثر مصداقية بالنظر إلى ظروف عملية التقرير الحربى. هذا يوضح مدى تجاوز وتعارض البيانات الحربية الإسرائيلية . (الأمر المثير للاهتمام، هو أنه عندما قام المستر هيكل، بإجراء المقابلة مع الفريق إسماعيل، بعد الحرب، وسؤاله: لماذا - وقد قررت أن لاتعلن سوى الحقائق... استمررت فى إنكار قيام الجنرال شارون بعملية الاختراق للجبهة الغربية لمدة يومين..؟ فكان رد الفريق مباشرا وكاشفا: لم يخبره أحد حتى ١٦ أكتوبر، عندما عاد من جلسة الجمعية الوطنية، أن هناك وجودا محدودا على الجانب الغربى للقناة من حوالى ٢٤ ساعة، وحتى وقتها، كان التقرير يحدد قيام جماعة صغيرة بالعبور».

بعض الوحدات الاحتياطية الإسرائيلية، استطاعت الاندفاع للأمام لتعزيز قوات سيناء ليلة ٧/٦ أكتوبر، عموما، فلم يكن ممكنا إلا لعمليات هجوم مضاد خفيف فى ٧ أكتوبر، ولم يكن لها أى تأثير على التنامى المصرى، الذى بلغ حينئذ حوالى ٦٠٠ دبابة. وأول هجوم مضاد إسرائيل رئيسى أمكن القيام به فى ٨ أكتوبر، اتجه مباشرة إلى

كمين مصرى محكم ووقع فيه؛ كانت الفرقة الثانية، تلك التى نصبت الشرك الذى تم التفكير فيه أثناء انشغال الطيران الإسرائيلى بكوبرى الفردان، القيادة الجنوبية والقيادة العامة فى تل أبيب، بدا لهما أنهما بتدمير الكوبرى مرتين فقد منعوا المصريين من عبور القناة فى هذا القطاع، وبذلك فقد خلقوا نقطة ضعيفة فى الجبهة المصرية - كان ذلك مدعوما بفكرة أن نقطتهم الحصينة جنوب الفردان مازالت قائمة.

المصريين من خلال وسائل التصنت، التقطوا الاتصالات بين بير سبع واللواء ١٤ المدرع، والتى أوضحت قيامه بعملية هجوم مضاد صباح ٨ أكتوبر؛ أوقفواعامدين أى محاولات احتلال نقطة جنوب الفردان، مقتنعين أنه ما دامت النقطة الحصينة صامدة، فسيتجه الإسرائيليون إليها لتوجيه هجومهم المضاد الكبير. طريق فرعى مهمل، من الطريق الرئيسى المتجه إلى بير جفجافة، يقود إلى منطقة الفردان من جهة صحراء سيناء. قام القائد الميدانى للفرقة ٢ بنشر ستار من الصواريخ المحمل بها أفراد، على بعد ٢ كم، كامنة على هيئة جحور ثعالب، وأن لايقوموا بفتح نيرانهم على دبابات العدو، إلا بعد أن تعبر أخراهم خطوطهم، عندها فقط يقوموا باصطيادها من الخلف. أرسل أحد ضباط الأركان لشرح العملية التكتيكية لكمين رجال الصواريخ، وأهمية تحكمهم فى نيرانهم. فى نفس الوقت، ولإيهام العدو بالقيام بهجوم مبكر، أعطيت أوامر لافتعال تحركات وعمليات هندسية باستخدام معدات الفرقة الثانية عند الكوبرى الخداعى. أما بالنسبة للكمين نفسه، فدباباته ومجموعات صواريخه، تفرقت معتلية هذا الطريق بالعرض فى أماكن مخفية. وعودة إلى قيادة المدفعية، فقد أخذ اللواء الماحى على عاتقه قيادة المدفعية، وطلعات الهليكوبتر والتنسيق مع النيران المضادة للدبابات، فى مواجهة القوة المدرعة الإسرائيلية المتقدمة. فى تمام الثامنة، ثم التقاط رسالة تبين أن العدو يعد للقيام بالهجوم المضاد. وفى ٩٫٤٠ ص، التقطت رسالة أخرى من قائد اللواء ١٩٠ المدرع . يحتمل كونها بين القوات الخاصة، وتتكون من كتيبتين مدرعتين بقيادة العميد عساف ياجورى، مصدرا الأمر بالهجوم باتجاه كوبرى الفردان وبسرعة ٤٠ كم/ ساعة. وفى ٩,٤٠ ص، تم اعتراض مجموعة استطلاعية مكونة من ١١-١٢ دبابة كانت تتقدم تجاه الكوبرى. لم يصدر أى انذار. وفى -ر١٠ ص. بدأ الهجوم الرئيسى؛ قوة مكونة من ١٠٠ إلى ١١٠ دبابات تتقدم باتساع جبهة من -ر١ إلى



(صورة كروكية لمنطقة الفردان)

١٫٥ كم بعرض الطريق؛ احتجز الستار الصاروخى نيرانه طبقا للخطة، مثلما فعلت باقى مجموعات الكمين، إلى أن وصلت دبابات العدو إلى الخط الجانبى، وعندها، دبابات وصواريخ الفرقة الثانية، إضافة إلى المدفعية وهليكوبتر الصورايخ، تحت قيادة اللواء الماحى - كلها فتحت نيرانها على الدبابات الإسرائيلية. حسب تقرير شاهد عيان، أن المنطقة كلها، على اتساع الطريق، تمخضت عن كتلة ضخمة من المتفجرات؛ دامت النيران مدة من ٣ : ٤ دقائق، ثم خلالها القضاء على ٨٥ دبابة - قد تكون أكبر عملية قتل مدرعات - المدرعات الناجية، تركت المعركة. استدارات وبدأت فى الاندفاع على طريق العودة، وهنا تصيدها ستار الصواريخ. كانت دبابة قائد القوة الخاصة «UGDAH» ضمن اللاتى وقعت فى الشرك، لتلقيها إصابة مباشرة قرب منظار السائق. ترك العميد باجورى الدبابة، وحاول الفرار تجاه الشرق، عندما قبضت عليه إحدى مجموعات الصواريخ المحمولة وأخذته سجينا. مذهولا ومرتعدا، استسلم العميد باجورى دون مقاومة. مذبحة الفردان، تركت العقيد أمنون ريشيف ولوائه المدرع ١٤ ومدرعاته الـ ٩٠ من أصل ٢٥٠ ، وأطقمها المرهقة لدرجة الانهيار، عندما بدأت طلائع فرق الاحتياط فى الوصول، وحاولت القيام بعمليات هجوم مضاد متقطع، كان الفشل حليفها، مقابل امتداد رأس الجسر. ترتب على ذلك، أنه عند بروز أولوية استراتيجية اتفق عليها فى تل أبيب نحو الجبهة السورية، أن يكتفى الجنرال جونين باتخاذ الوضع الدفاعى التام على امتداد الجبهة السورية كلها. كانت هناك تقارير تفيد قيام مجموعات فدائية إسرائيلية بغارات صغيرة عبر قناة السويس فى ليلتى ٩، ١٠ أكتوبر، وأن بعضها تم إلقاء القبض عليه بواسطة الوحدات المصرية المتمركزه على الضفة الغربية للقناة. واحدة منها على الأقل، تصادف وقوعها فى منطقة الدفرسوار، بين بحيرة التمساح وكبرى البحيرات المرة.

بمجرد تأمين رؤوس الجسور بشكل مقبول، بدأت كل فرقة فى فرد أجنحتها لتلاقى الفرق الأخرى، يسار أو يمينا، إلى أن أصبح الحزام ممتدا من الملاحات فى الشمال إلى البحيرات المرة الكبرى، ومن البحيرات الصغرى حتى بور فؤاد وجنوبها. لم يكن واضحا بالضبط، ماهية الأوامر الصادرة التى تتعلق بالانتشار بين مناطق الجيشين، وعلى امتداد معظم الشاطىء الشرقى للبحيرات. (انظر كروكى الجبهة السيناوية).. لعل

الهدف هو تغطيتها بالداوريات المدرعة؛ لم يكن ذلك مقلقا للقيادة العليا المصرية، لاعتقادها بعدم إمكانية القيام بعملية اقتحام عبر البحيرات.

بمجرد تدعيم رأس الجسر، انطلقت عمليتا رمانة وراس سدر؛ طوابير واثقة، كتائب من الجيشين الثانى والثالث، من الشمال الشرقى والجنوب، للاستيلاء على أهدافها، كلتا العمليتين قوبلت بكارثة. فلأنها خرجت من حماية صواريخ سام ٢، ٣، قام الطيران الإسرائيلى الذى استعاد سيطرته على أجواء سيناء، بالهجوم المتواصل على الطابورين، الذين خسرا عددا كبيرا من الدبابات والعربات. وفى النهاية تقرر التخلى عن العمليتين؛ واكتفى المصريون بالانتشار المحدود شرقا، وبامتداد شامل لرؤوس الجسور، حتى عمق يتراوح بين ١٢ إلى ١٦ كم. العمق الأكبر كان فى قطاع الجيش الثانى. إحدى كتائب الجيش الثالث، استطاعت الاندفاع أماما لمسافة ٣٠ كم تجاه ممر متلا، دون أن تصادف مقاومة جدية، إلا أنها استدعيت للتراجع بواسطة القيادة العامة. فقد استوعبت درس رأس سدر ورمانة. فى المهم أن نسجل أنه حتى أثناء التقدم المبدئى، الذى استهدف إقامة رأس جسر، ورغم أن المقاومة الرئيسية المتوقعة من إسرائيل هى باستخدام المدرعات، إلا أن جماعات الأفراد حاملة الصواريخ، هى التى قادت الهجوم، فنجحت فى تدمير أعداد من دبابات العدو، التى لم تستطع أن ترد على هذه التكتيكات، معتمدين على خبراتهم السابقة، أساسا، فلم يحملوا قذائف شديدة الانفجار فى دباباتهم، فقط مخترقة للدروع. أياما عديدة مرت قبل أن يتم تصحيح هذا الوضع. استمر الهجوم المضاد الإسرائيلى على رأس الجسر لعدة أيام متتالية، وقام الطيران الإسرائيلى ببعض الاختراقات على طريق دمياط، وصل أحدها إلى مدارج الطيران بضواحى القاهرة. الخسائر كانت ثقيلة، والعديد من الطيارين الإسرائيليين وقعوا فى الأسر. بحلول اليوم الرابع، بدأت القيادة العليا فى اسرائيل، فى التيقن بأن الغزو المصرى لسيناء، ولو بشكله المحدود، أصبح واقعا، وأنه وبهذه القوة، لايمكن إعادته؛ وحتى لو استمرت المحاولات، فسيتسبب فى كارثة.

فى يوم ٩ أكتوبر، وفى لقاء مع محررى صحف إسرائيل اليومية، قال الجنرال ديان: الوضع الخاص بمصر، هو... ليست لدينا القوة لطرد المصريين عبر القناة. لانستطيع

القيام بالعمليتين (القتال على جبهتين) دون استنزاف قواتنا كاملة تقريبا. مصر لديها الكثير من المعدات الروسية.. أشك في وجود أى مكان فى العالم محمى بمثل هذه الكثافة من الصواريخ. أشك في وجود مكان حتى فى روسيا أو فييتنام مجهز بمثل الجبهة العربية، وعلى الأخص الجبهة المصرية على القناة - الحال .. أن المصريين لديهم دبابات على الضفة الشرقية أكثر مما لدينا، إضافة.. أن مدرعاتهم مدعومة بالمدفعية وبطاريات الصواريخ، ومشاة مسلحين بأسلحة مضادة للدبابات.

لقد أدركنا ذلك بعد أول تطوير بدفع قواتنا إلى منطقة القناة، محاولين إلقاء المصريين للخلف للضفة الغربية للقناة، فأيقنا بأننا سنخسر قواتنا، ونترك إسرائيل لا حول لها ولاقوة.

الفصل السادس

الهجـــوم الســـورى

هضية الجولان المحتلة من إسرائيل فى ١٩٦٧ ، هى الامتداد الجنوبى المقابل للمدى اللبنانى، تبدأ عند المنحدر الأدنى لجبل هيرمون (الإسم العربى جبل الشيخ). الذى شهد تجلى المسيح، ثم ينحدر تدريجيا حتى الضفة الشمالية لنهر اليرموك قرب الحدود الأردنية. وعلى الجانب الغربى، ترتفع بشكل رأسى من جهة وادى الأردن وبحر الجليل (بحيرة طبرية) مكونة مانعا طبيعيا، وسدا ممتازا لأى تحرك، خاصة من القطاع الشمالى المواجه لبحيرة «حوله» حيث لا توجد أى ثغرات فى جانب التل الشديد الانحدار. الطريق الوحيد الذى يربط شمال إسرائيل بمرتفعات الجولان، هو عبر كوبرى «بنات يعقوب»والذى يمتد حتى القنيطرة (بارتفاع ٩٠٠ متر)ثم إلى دمشق. المنحدرات على الجانب الشرقى أقل حدة، لاتوجد صخور، والامتداد الشرقى، ولو أنه تعترضه الشعاب، إلا أنه يوفر ميدانا لتحركات المدرعات. من الشمال حتى الجنوب، تبلغ المسافة حوالى ٥٥ كم عبر الهضبة، ومن الشرق إلى الغرب حوالى ١٨ كم عند القنيطرة، إلا أنها تبلغ أقصى إتساع بالتوازى لنهر اليرموك.

يمتد خط وقف إطلاق النار فى ١٩٦٧ من منطقة تلاقى الحدود السورية اللبنانية شمالا، حتى بانياس – على سفح جبل الشيخ – إلى الجنوب الشرقى لعدة كيلومترات شرق القنيطرة ، لذلك وبشكل عام، يكون الاتجاه الجنوبى إلى غرب «بوتيميا» وباتجاه الجنوب الغربى لنهر اليرموك، وفى نهاية الطرف الشمالى، وطدت إسرائيل، عند وقف إطلاق النار فى ١٩٦٧ ، خطا حصينا صخريا قويا، مقاما على السفوح المرتفعة لجبل الشيخ. هذه النقطة توفر رؤية كاملة، ليس لهضبة الجولان فقط، بل... بالفعل، لكامل الأراضى المقدسة الممتدة كخريطة مجسمة؛ هذه النقطة الحصينة احتلتها مجموعة من القوات الخاصة الإسرائيلية، تشمل أفرادا فنيين لتشغيل التجهيزات الرادارية. من هناك جرى الخط عبر منحدرات أكثر سهولة عن الجانب الشرقى للهضبة، مخترقا شعابا ونتوءات صخرية.

على الجبهة السورية، لايوجد خط دفاعى متصل مثل خط بارليف، بل مواقع

متقدمة، مدعومة ومقواة بالصخور والخرسانة، من طابقين مبنيين تحت الأرض، ولايبدو منها سوى مزاغل النار فوق سطح الأرض، والمنطقة محاطة بالأسلاك الشائكة الكثيفة وحقول الألغام، إضافة إلى حفرة معيقة للدبابات، باتساع ٤ أمتار وبعمق ٣ أمتار ، مظهرة بحائط ترابي بارتفاع ٨ أمتار على امتداد النقاط الحصينة. حصون أخرى انتشرت على التلال الخلفية بعمق ٣ إلى ٥ كم؛ خلف الخط الثاني تجمعت الدبابات والمدافع المضادة للدبابات والمدفعية في تشكيلات دفاعية مثبتة جيدا، ومحمية بالأسلاك الشائكة وحقول الألغام. بذلك تكون معظم الممرات مغطاة بشكل مناسب، خاصة القطاع الأوسط المواجه لدمشق. على العموم ليس من المتعذر إقامة رأس جسر عبر أى دفاعات، حتى الحفر المضادة للدبابات، إذا توافر استغلال عنصر المفاجأة الكاملة. التقدير السورى لعملية الاقتحام، أن تستغرق من ساعة إلى ساعة ونصف فقط.

قدرت المخابرات السورية، القوات الإسرائيلية الموجودة على هضبة الجولان بخمسة أو ستة ألوية، إلا أنها لم تكن بكامل قواها. عموما، كان من المعلوم أنه خلال الأسبوع الأخير من سبتمبر، صدرت أو امر برفع درجة الاستعداد، حقيقة، أن جماعة من قوات الاحتياط تم استدعاؤها، طبقا للمعلومات التى حصلت عليها دمشق، وتأكدت بعد ذلك من أسرى الحرب. كان تمركز ألوية الاحتياط، فى المنطقة الواقعة شرق بحيرة الحولة، «وفى القطاع الجنوبى قرب «صفد». تقديرات سواريا بحوالى ١٠ إلى ١١ لواء عند إتمام التعبئة العامة، لهذا قدرت قوات العدو القادرة على مجابهة أى هجوم سورى بحوالى ١٦ لواء - من جنوب بحيرة طبرية حتى سطح جبل الشيخ فى الشمال. القيادة الرئيسية الشمالية برئاسة الميجور جنرال إسحق هوفى، تقع عند كفار نوفاه. وتحت قيادته الميجور جنرال دان لانر ورفائيل إيتان، كلا القائدين من القوات الخاصة، التى تتجمع بعد بدء المناوشات - طبقا للنظام الإسرائيلى.

كان من المعروف، أن القطاع الأوسط، هو الأقوى استحكاما، وأن التهديد السورى يتمحور بامتداد الأحمدى - خوشنى ليتجه إلى القنيطرة، ثم يعتلى الطريق إلى جسر يعقوب، الذى يعتبر أقصر الممرات إلى شمال إسرائيل.

من وجهة النظر الاستراتيجية الإسرائيلية، الهجومية - الدفاعية، أن هذا القطاع هو الأكثر ملاءمة كنقطة وثوب، لتوجيه ضربة إجهاضية، توجه لمحاصرة دمشق من الجنوب

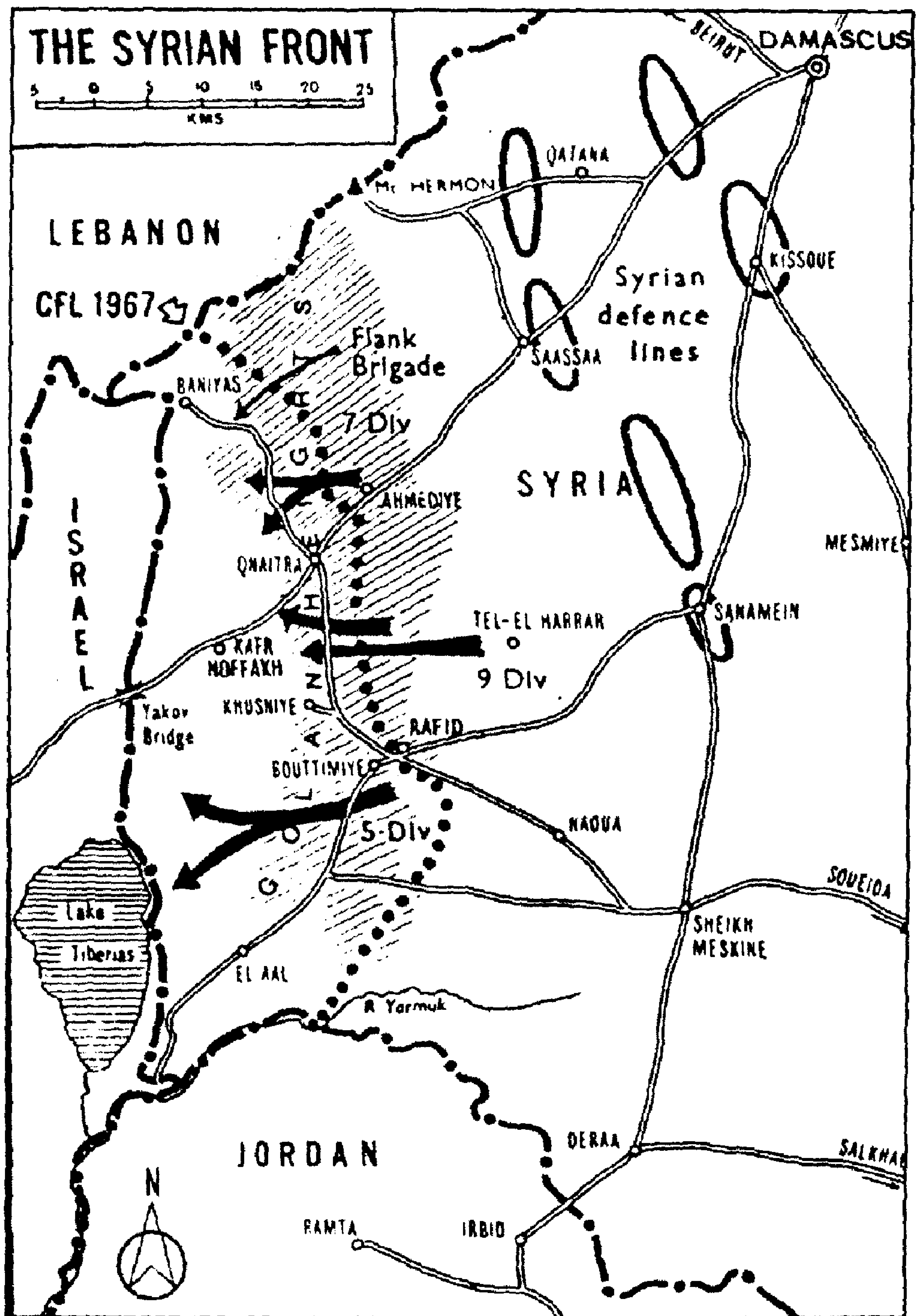
والشرق. القوات الإسرائيلية، في القطاع الأوسط، تقديراتها، بقدر الإمكان، مكونة من لواء مشاة ميكانيكية وثلاث كتائب مدرعة (حوالى من ١٠٠ إلى ١٥٠ دبابة) من اللواء ٣٧ المدرع، كان مكتملة تقريبا بحلول صباح ٦ أكتوبر، بعكس الألوية الأخرى في القطاعين الشمالى والجنوبى، التى لم تزد استعداداتها عن ٣٠ : ٤٠٪؛ اللواء السابع المدرع، الذى قام الجنرال ديان بإرساله سرا لدعم حامية الجولان قبل بدءا الحرب بعشرة أيام، كان قد استقر فى موقع متقدم فى كفار نفاخ، وخصص كاحتياطى قيادة. نشرة توضحية من المعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية فى (لندن)، عن قوة وتكوين القوات المسلحة السورية، أوضحت أن قوة الجيش مكونه من: فرقتين مدرعتين، ثلاث فرق مشاة، خمسة الوية منفصلة.(تتضمن لواءي فدائيين)، سبعة ألويه مدفعية، ١٢ بطارية صواريخ سام ٢،٣. القوات الجوية قدرت بـــ (٨٠ ميج ١٧، ٣٠ سوخرى ٧، ٢٠٠ ميج ٢١. هذه الأرقام – على كل – لا تتضمن إعادة التنظيم، أو الزيادات الجديدة التى واكبت استلام كميات كبيرة من الأسلحة المتطورة والمعدات من روسيا؟ نتيجة لزيارة الرئيس الأسد لموسكو فى ابريل ١٩٧٣. قدر أنه بحلول أكتوبر، كان قد تم تحويل فرقتى مشاة إلى فرقتين ميكانيكيتين (حمل فيها جميع أفراد المشاة فى مركبات أفراد مدرعة). أما القوات الجوية، حسب ماورد بالتقارير، حصلت على سرب إضافى من سوخوى ٧، إضافة إلى سرب آخر من أحدث الطائرات القاذفة المقاتلة، وهو الجناح المختلف تماما عن السوخوى (الاحتمال أن يقوده طيارون سوفييت). أما التعزيزات الحقيقية في أبريل، فكانت في تغطية منطقة الجولان – دمشق، بصواريخ سام، حقيقة ظلت طي الكتمان حتى بدء العمليات. فى ٢٦ سبتمبر، وأثناء زيارة قام بها الجنرال ديان لجبهة الجولان، لاحظ أن السوريين قدأ قاموا ستارا من الصواريخ المضادة للطائرات، تماثل فى كثافتها، تلك التى أقامها المصريون على قناة السويس. لهذا، كانت كفاءة الدفاع الجوى السورى، مفاجأة كاملة للطيران الإسرائيلى عند بدء قيامها بالهجوم على جبهة دمشق. منذ حرب ١٩٦٧، كان تقدير الإسرائيليين للقوات السورية ضئيلا. فأثناء مهاجمة مرتفعات الجولان السورية، ذكرت التقارير أن الجنود الســوريين تركوا استحكاماتهم ولاذوا بالفرار بمجرد بدء القصف المدفعى، ولم تحاول قوات الاحتياط التصدى للتقدم الإسرائيلى. فى الحقيقة أنهم يتجاوزون دفاعاتهم حول

دمشق، باعتبارهم جيشا «سياسيا»، وأن كفاءتهم الاحترافية ليست على قدر عال إضافة إلى وقوع بعض السلوكيات الوحشية العنيفة، نسبت إلى القوات السورية، تجاه الأسرى الإسرائيليين والجرحى، جعلت من القوات السورية هدفا للكراهية الإسرائيلية. قام الرئيس الأسد بالكثير لتحسين كفاءة قواته المسلحة خلال السنتين السابقتين. ورغم أن الكوادر القيادية، يمكن تسميتها «بالسياسية» إلى حد ما، فالتدريب والمعنويات تحسنت بدرجة كبيرة - سواء فى الجيش وفى القوات الجوية؛ المستوى التقنى، تم الارتقاء به بكفاءة والقيادة تحسنت بشكل ملموس. أعدت القوات السورية قوسين للدفاع غرب دمشق: الأول يمتد فى شمال «قطنة» مخترقا «سعسع» إلى جنوب «سنامين» (على طريق عمان)، والآخر امتد لمسافة من ١٠ - ١٥ كم شرقى القوس الأول، من شمال غرب دمشق، حتى نقطه التقاء «فيسو» والى الجنوب الشرقى حتى «مسمية».

المسافية بين الخطوط الإسرائيلية المتقدمة، والخط السورى الأول حوالى ٢٠ كم فى قطاع «سعسع».

جرى البحث فى وضع خطط للهجوم على إسرائيل فى بدء العام؛ فى مايو - خلال محادثات القيادات العليا بين العراقيين والسوريين، اقترح الأول أن تبدأ عملية الاقتحام الرئيسية من الجنوب، خلف الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية، وأثناء قيام القوات الشمالية بهجوم محدود على قطاعى «قطنه وسعسع»، لسحب الاحتياطى الإسرائيلى، يتحرك الهجوم المدرع الرئيس إلى الجنوب الشرقى من منطقة «تل الحرار». بوطمية»، ويلتف حول جنوب بحيرة طبرية، ثم يتحول شمال غرب لضرب «صفد» وأهداف أخرى فى إسرائيل. ومع أن مثل هذا الغزو، يعبر عن الخط الرئيسى لأهداف البعثيين وهى تصفية الكيان الإسرائيلى، فلم تخرج عن مجرد مادة للنقاش، حتى سوريا لم تحط العراق بأى خطط نهائية استقرت عليها.

فى النهاية قررت القيادة العليا القيام بشن هجوم جبهوى عبر هضبة الجولان. يشن الهجوم من ثلاثة قطاعات، يتكون كل منها من فرقة مشاة ميكانيكية مدعومة بلواء مدرع:



(خريطة الجبهة السورية)

القطاع الشمالي: الفرقة السابعة مشاة ميكانيكية - قيادة العميد عمر أرش - (قوات خاصة) للهجوم غرب وجنوب غرب منطقة «الأحمدية»، ثم إلى حافة هضبة الجولان، مسيطرا على شمال الطريق الرئيسي. الجناح الأيمن للفرقة السابعة، يحميه لواء مستقل، يتحرك معه بالتوازى حتى منحدرات سفح جبل الشيخ.

القطاع الأوسط: الفرقة التاسعة ميكانيكية - قيادة العقيد حسن تركماني - قوات خاصة - للهجوم عبر المنطقة الغربية لتل الحرار، مخترقة كفار نوفاه حتل تصل إلى كوبرى بنات يعقوب، ثم العمل على الطريق الرئيسي وجنوبه.

القطاع الجنوبي: الفرقة الخامسة مشاة ميكانيكية.. قيادة العميد مصطفى شربة - قوات خاصة - للهجوم عبر منطقة رافد إلى الجنوب الغربي لبحيرة طبرية. فرقة مدرعة خصصت كاحتياطي.

ومع أن رأس حربة أى هجوم، هى الميكانيكيات، وليست الفرق المدرعة، إلا أن هذا مجرد عملية مواءمة تنظيمة. ففى الحقيقة، كل فرقة، كان مخصصا لها دروعاً كافية لمعاونتها فى الهجوم بقيادة الدبابات، تتبعها عربات الأفراد المدرعة مباشرة. لم يكشف السوريون عن أى معلومات تتعلق بتفاصيل الخطط أو التكتيكات الموضوعة لقيادة العمليات، إلا أن العديد من المراسلين العسكريين الذين راقبوا المعركة فى أيامها الأولى، فسروا التكتيكات السورية بتكتيل المدرعات فى تشكيلات، كمحاولة لغشيان المدرعات الإسرائيلية بمجرد ثقل الوزن والعدد.

النجاحات الأولية: خلال الأسابيع التى تلت مؤتمر القاهرة فى سبتمبر، بدأ السوريون فى تركيز قواتهم فى منطقة دمشق، ثم الدفع بها شيئا فشيئا إلى مواقع المعارك. الفرقة التى تمركزت خلال فترة السلم على جبهة «درعا»، والتى كان واجبها الأول هو مواجهة أى تهديد محتمل من الأردن، استدعيت إلى منطقة الجولان. القوات الإسرائيلية فى المنطقة الساكنة فى القطاع الشمالي، يمكنها رؤية طوابير الدبابات وهى

تتجمع فى منطقة الأحمدى، شمال الطريق الرئيسى. وكان هناك أدلة ثابتة على أن غطاء صواريخ سام امتد غربا تجاه هضبة الجولان؛ مع ذلك، شعور الازدراء التقليدى لدى الإسرائيليين تجاه القوات السورية، منعهم من استشعار الخطر مما هو جار أمامهم. الجنرال ديان كان قد أمر بأن يعزز اللواء السابع المدرع القيادة الشمالية، واعتبر ذلك مناسبا للتعامل مع أى نشاط محتمل من السوريين.

قبل فجر السبت ٦ أكتوبر، حرك السوريون دباباتهم وحاملات أفرادهم المدرعة من مناطقه تجمعها الخلفية، إلى خط البداية، على بعد بضع مئات من الأمتار من خط وقف إطلاق النار. الضوضاء كانت مسموعة بوضوح للدوريات الإسرائيلية على منحدرات الجولان. لم يعرف عن السوريين قيامهم بإجراء تدريبات ليلية من قبل، لكن حتى هذا، لم يحرك أى استشعار بخطر.

باقتراب الساعة ١١ صباحا، أقلعت ٤ طائرات هليكوبتر MI. 8 من أحد المطارات القريبة من دمشق، حاملة جماعات اقتحام من لواء فدائيين. داروا دورة واسعة إلى الشمال، ثم اتجهوا إلى الحصن الرئيسى الإسرائيلى فوق جبل الشيخ، متقدمين من خلف الجبل، الأفراد القائمون بالموقع، كانوا لايزالون مرتدين خفافهم، يعلبون الطاولة، عندما بدأ السوريون الهجوم؛ دار القتال يدآ بيد فى الفناء والممرات بالحصن؛ لكن فى أقل من نصف ساعة، تم التغلب على المقاومة وتحييد مركز استطلا ع هام؛ طوال الأيام التالية، حاول الإسرائيليون استرداد هذا الموقع الحصين، بشن هجمات متتالية، إلا أنها باءت بالفشل، وذلك بسبب رئيسى، وهو الدفع بمجموعة مغربية - مؤثرة بشكل يثير الدهشة - لتأمين منحدرات الجبل.

فى تمام الثانية، شن السوريون هجومهم خلف ستار من نيران المدفعية الثقيلة، استمر تسعون دقيقة؛ طوابير وراء طوابير من الدبابات، تقدمت فى تشكيلات متقاربة تجاه الدفاعات الإسرائيلية. قدرت إسرائيل الحجم الكلى لقوة الدبابات المهاجمة على مدى اليوم الأول، من ألف إلى ألف ومئتى دبابة، رغم هذا، فالتقدير مبالغ فيه جدا، التقديرات غير الرسمية، بواسطة المراقبين فى دمشق، قررت الرقم بحوالى ٨٠٠. وفى كل الأحوال، عنصر التفوق كان حاسما، بدت المدرعات السورية بتشكيل مجموعات من ٧: ١٠ دبابات كل منها يرافقها من ٢ الى ٣ حاملات أفراد مدرعة. كانت

المجموعات متقاربة، متجاهلة طبيعة الأرض، مثل الشعاب والمطبات، متدفقة للأمام مباشرة نحو العدو. الغطاء النارى الوحيد الذى قدم، هو من ساتر المدفعية للدبابات نفسها، فنادراً ما اتبعت التكتيك التدريبي.. اضرب ثم تحرك. هذه التكتيكات، لم تثمر، لأن السوريين رغم أنهم يهاجمون بجهامة وإصرار، أصيبوا بخسائر ثقيلة من البداية. الطوابير، رؤوس الحربة، ظلت محتفظة بمسارها، بعيدا عن الطريق، مخترقة الدغل، متخذة طريقها حول النقاط الحصينة. إنها عندما وجدوا أنفسهم فى مواجهة الدبابات الإسرائيلية، بدأ السوريون فى المعاناة الحقيقية.

وصف أحد ضباط الدبابات الإسرائيلية الذين واجهوا بداية الهجوم السورى مؤخرا، مشهد المعركة وهو فى سرير المستشفى؛ فى تمام الثانية، فى يوم «كيبور»، شاهدنا من ١٥ إلى ٢٠ طائرة محلقة تجاهنا، وقبل أن نتمكن من تحديد هويتهم، بدأوا فى إطلاق النار علينا، أمرت رجالى بدخول دباباتهم، والتوجه إلى مرابض إطلاق النار، شاهدت سحابة ضخمة تتجه نحونا، قدرت أن خلف هذه النيران المتجهة نحونا، دبابات مهاجمة متخفية، بعد فترة استطعت التأكد من عبور ثلاث دبابات سورية خط وقف إطلاق النار باتجاهنا، تمت إصابة الثلاث من أول مرة، صوبت نحو رابعة، وبعد أول طلقة، شاهدت برجها طائرا فى الهواء اعتقدت أن فى هذا نهاية للمعركة، لكنها كانت البداية. خرج من ستار الغبار، ودرجت «دوزينات» من الدبابات، ودبابات بلدوزر، وحاملات أفراد مدرعة. وزعنا المهاجمين بين دباباتنا السبعة، وتصيدناهم الواحدة بعد الأخرى؛ لقد شاهدت إصابات مباشرة، تقلب الواحدة بعد الأخرى، وتحولها إلى حطام متقد. وقبل أن نلتقط أنفاسنا، تقدم نحونا حائط آخر من الصلب، أمرت أبنائى أن يدعوا المهاجمين يتقدمون إلى مدى قريب، قبل أن يفتتحوا المشهد الثاني. لقد تبارينا فى توجيه الإصابات المباشرة، حتى صارت المنطقة مبذورة بالدبابات المحترقة والمعطلة على الطريق. التكنيك السورى المستخدم بمواصلة الهجوم، وضعهم فى موقف غير متناسب فى مواجهة المدافع الإسرائيلية الأبعد مدى. ومدفعييها المتميزى التدريب. التفوق الإسرائيلى كان عظيما حتى أن معدل الخسائر كان عاليا بنسبة ٤،٣ إلى واحد. ليس فقط الدبابات الإسرائيلية – السنتوريون الإنجليزية، الباتون M. 48 الأمريكية – تتفوق فى المدى على الدبابات الروسية T54، T55. لكن الذخيرة المستخدمة بواسطة

الإسرائيليين، وبالذات القذائف المخترقة للدروع والشديدة الانفجار (APDS)، تلك التى كانت أشد قتلا. دبابات السنتوريون والأمريكية، مسلحة بأنماط مختلفة من المدفعية عيار ١٠٥ مم ذات المدى ١٧٠٠ إلى ٢٠٠٠ متر المؤثر بالترتيب. الدبابات الروسية تحمل مدفعية عيار ١٠٠ مم الأقل قوة، ولا يزيد مداها عن ١٥٠٠ متر. هذا بالإضافة، أن الأمريكيين لديهم نظام كومبيوتر بالغ الدقة فى كشف وتحديد الأهداف. قرر الخبراء أن المدافع الأمريكية ساعدت الدبابات الإسرائيلية فى أن تطول وتدمر الدبابات السورية على مسافة ٤٠٠ متر قبل أن تصل الأخيرة إلى المدى المؤثر لها، كذلك الصواريخ المضادة للدبابات المحملة على عربات «SSIOLN» (تم تطويرها بمعرفة الإسرائيليين أنفسهم)، أثبتت أنها سلاح فعال ومميت فى نفس الوقت. ورغم معدل القتل العالى، كان من المهتم على الإسرائيليين التراجع قبل وقت طويل، لأن دباباتهم كانت تعاقب بشدة، فقد نشر السوريون عددا من دبابات T62 الحديثة، المسلحة بالمدفع ١١٥ مم - أكبر مدفع دبابة محمول فى هذه الحرب - وأحرزوا عددا من الإصابات، والأكثر من ذلك، هذه الكتلة الساحقة الماحقة من الدروع السورية المتقدمة من خلف ساتر متواصل ومستمر من المدفعية (التى استمرت لمدة ٤ ساعات متواصلة فى بعض المواقع)، التى كانت أكثر من أن تقارن بقوة مدافعة صغيرة، علاوة على ذلك، وعكس التوقعات الإسرائيلية، قادة الدبابات السوريون، وبوازع شخصى، كثفوا هجماتهم تجاه الوطن باندفاع وحماس وشجاعة فائقة؛ حتى عندما تصاب دباباتهم، يبقى الطاقم بالداخل، ويستخدمون دباباتهم كقاعدة مدفع إلى أن تنفجر الدبابة إلى شظايا. سلوك ينم عن الشجاعة الفردية، وتضحية بالذات، نادرا ما شوهدت فى أى حملة سابقة.

بعكس جبهة القناة، حيث حرص المصريون على إبقاء معظم طيرانهم كاحتياطى، دفع السوريون بكامل طيرانهم من : سوخوى ٧ وأسراب الميج، لدعم المعركة الأرضية، بل وحاولوا اختراق الدفاعات الجوية الإسرائيلية لضرب وادى الحولة بالقنابل. فى المعارك الجوية التى تلت، تكبدت النفاثات السورية خسائر ثقيلة، مقابل الميراج والفانتوم. ونتيجة للهجوم السورى الساحق، كان من الطبيعى أن يتقهقر الإسرائيليون على الثلاث قطاعات، لكن النجاح الرئيسى كان على القطاع الأوسط. استعرت

المعركة خلال الغسق الخريفى؛ وخلال الساعات التالية، أعاد السوريون تجميع مدرعاتهم، فى حين أرسل الإسرائيليون أطقم صائدى الدبابات، لتتحرش بمجموعات المدرعات حاملات الأفراد، ولا ستفزاز الطوابير الطويلة من العربات التى تقاطرت بطول الطريق. القليل من الناس قد تمكنوا من الحصول على أى قدر من الراحة هذه الليلة على هضبة الجولان. بدأ التقدم صباح الأحد، دموى وبطىء.. قد يكون.. لكن لايمكن إيقافه. الفرقه التاسعة، تمكنت من الاختراق، واقتحام القيادة الشمالية فى كفار نوفاه، وبحلول منتصف اليوم، كانت الخطوط الأمامية قد وصلت إلى قمة الهضبة، واستمرت فى التقدم تجاه حافة المنحدر المطل على وادى الأردن. فى الجنوب، دبابات الفرقة الجنوبية بلغت «العال»، وأطلت على مياه بحر الجليل الزرقاء تلمع تحتهم.

كانت ساعة مظلمة لإسرائيل. قوات الاحتياط بدأت فى الالتحاق بوحدتها وتشكيلاتها غرب نهر الأردن. أطقم الدبابات وقادتها نقلوا بالطائرات لإحلالهم بدلا من الخسائر على مرتفعات الجولان، الأمر الذى يستغرق بعض الوقت حتى يتمكن الإسرائيليون من مجاراة السوريين فى العدد؛ التقدم السورى زحف بلا هوادة حتى بلغ مسافة ٥ كم من كوبرى بنات يعقوب. أيضا فى الجو، لقيت اسرائيل صدمة عنيفة، فالطيران الذى تعود على وضع السيطرة طوال حربين سابقتين، أدرك أنه قلل من تقديره لمدى التقدم الإليكترونى والتدميرى لدى السوريين بواسطة المعدات السوفيتية المعقدة؛ الطوابير المدرعة المتقدمة، حملت معها أعداد كبيرة من صواريخ سام ٦ محملة على عربات متنقلة. ومع أنهم تفوقوا فى المعارك الجوية على السوريين، إلا أن أعداداً كبيرة من الفانتوم والسكاى هوك تم إسقاطها فوق الهضبة بواسطة الصواريخ السورية. ومع ذلك، دفع السوريون ثمنا باهظا مقابل هذا النجاح المبدئى، خاصة المدرعات، التى تلقت عقوبة ثقيلة. لقد قدر أنه فى الـ ٢٤ ساعة الأولى بلغت الخسائر حوالى ٢٠٠ دبابة فى الثلاث قطاعات، أساسا، نتيجة للهجوم الجوى المتواصل، طبقا للتكنيك الذى اتبعوه. حتى المشاة التى لم تتبع تكنيك الترجل والالتحام مع الجيوب الإسرائيلية التى مرت بها رؤوس الحربة المدرعة، بل بقوا فى عرباتهم التى تبعت الدبابات المتقدمة وهى مغمضة الأعين، مقدمين أهدافا سهلة للدبابات والطائرات الإسرائيلية، حتى المشاة الذين ترجلوا، قاسوا من إصابات ثقيلة لفشلهم فى أغلب الأحيان فى حفر ملجأ أو

تغطية. القنيطرة.. رغم أنها هوجمت بشدة، إلا أنها استطاعت الصمود أمام كافة محاولات احتلالها. فقد قامت الفرقة السابعة بالهجوم على نقطة «تل الندى» الحصينة، وهو تل مميز، يسيطر على القنيطرة، ورغم أن القوات المهاجمة قاتلت على منحدراته حتى القمة، إلا أن هذه النقطة الحصينة لم تسقط. لذا فقد تجاوز المهاجمون المواقع الإسرائيلية دون بذل أى جهد جاد لاحتلال هذا المركز الهام للاتصالات. أيضا على المحور الشمالى، لاقت الفرقة السابعة نكسة غير متوقعة؛ هذه الفرقة كان عليها التقدم، بوجه عام، جنوب غرب، ثم تستدير جنوبا لتلتحم مع الرتل الأوسط، على يمينها يتقدم لواء مشاة فى خط مواز لحماية الجناح الأيمن من أى هجوم مضاد من قوات الجنرال إيتان .. القائد الإسرائيلى للقطاع الشمالى، بشكل ما، فشل اللواء المجنح فى الحركة، مما اضطر اللواء شكور .. رئيس أركان حرب القوات المسلحة السورية - لإصدار أمر بإيقاف الهجوم. نتج عن ذلك أن تحولت أجزاء من هذه الفرقة إلى الجنوب باتجاه القنيطرة..! وباقتراب مساء اليوم الثانى، وبإعادة تجميع طوابير الفرقة السابعة على حافة المنحدر أعلى كوبرى يعقوب، تعرضت لهجوم عنيف بواسطة الطيران الإسرائيلى الفانتوم والسكاى هوك وحتى الميراج.. مستخدمة أسلوب طيران يشيب الرؤوس، قذف قنابل على مستوى منخفض، مع تمشيط بالرشاشات؛ عانى الإسرائيليون من معدل خسائر طيران عال، إلا أنهم واصلوا هجومهم المنخفض، آخذين ضريبة ثقيلة من الدبابات والعربات السورية الأخرى - أحد الجنرالات الإسرائيليين أطلق عليها «المجهود الفائق لقوات طيراننا».. فى نفس هذا الوقت، بدأت أولى الوحدات من ألوية الاحتياط الإسرائيلية عبور كوبرى بنات يعقوب؛ باقتراب المساء كانوا يدقون طريق الصخرة المرهقة التى تؤدى إلى القمة، للتعامل مع مدرعات العدو، وأثناء مكابدتهم فى الصعود، بدت الدبابات السورية على أخاديد الجبل، على شكل ظلال جامدة «كأهداف فى حديقة ملاهى». وبينما التقدم السورى مستمر فى أماكن أخرى من الهضبة، حتى حل يوم الإثنين، فكانت نقطة التحول فى الحملة، بوصول قوات الاحتياط الإسرائيلى إلى قطاع الوسط مساء يوم الأحد. و. بمجىء الصباح، كانت المبادرة قد انتلقت تماما للجانب الإسرائيلى. إنه معلوم الآن من خلال النشرات الدعائية الإسرائيلية، أن بداية الهجومة المضاد، كانت صباح الاثنين بإجبار السوريين

على التراجع، كان المقصود بها دعم ورفع المعنويات القومية المنهارة، لكن الحالة أمكن السيطرة عليها بشكل عام. لن يكون هناك غزو سورى للأراضى الإسرائيلية، التى اعتقد أنها هدف السوريين.

ومع احتمال شعور السوريين بأن المبادرة قد تسربت من أيديهم، فبدءوا من صباح الأحد فى الهجوم على المستعمرات الإسرائيلية بصواريخ «فروج» ، الأمر الذى أدى إلى تصعيد حربى على هذه الجبهة، (صواريخ فروج تطلق من قواعد متحركة بمدى يصل إلى ٧٠ كم وتحمل ١/٢ طن من المتفجرات). الدمار الذى أحدثته صواريخ فروج، كان محدودا، لكنه جعل معنويات المدنيين، المنخفضة أصلا، أن تزداد تأثرا بشكل خطير. قرر الإسرائيليون الاقتصاص، باختراق العمق والقاء قنابلهم على مناطق فى قلب دمشق، مدركين لمخاطر خسائر الطيران، ومخاطر قيام العرب باستخدام قاذفاتهم الثقلية (TU16، 20Tu – ذكرت التقارير أنها قدمت من الروس إلى العراق) فى ضرب الأهداف الصناعية والعمرانية. فى ٩ أكتوبر، وبعد الظهر بوقت قصير، اندفعت طائرات الفانتوم من الشمال الغربى للمدينة، مطلقة قذائفها على أهدافها فى وسط دمشق وحمص – بررت اسرائيل ذلك بأن كل الأهداف «استراتيجية»، وأن الإصابات كانت دقيقة، ولم يكن ذلك حقيقيا تماما. ففى دمشق، رغم أن وزارة الدفاع قد أصيبت، فقدا سقطت بعض القنابل على أهداف مدنية ومناطق سكنية، قدر السوريون إصابة ٢١٠٠ شخص مدنى، اتضح بعد ذلك صحتها. هذا الفاصل من الهجوم، لم يدع مجالا للشك أنه بغرض الانتقام والتحذير.

فى المساء، أوضح الجنرال ديان ضرورة وأهمية ضرب دمشق: «هذه هى المرة الأولى التى تعاملنا فيها مع أهداف عسكرية فى دمشق. فهناك مربع معين فى دمشق، تتمركز فيه المبانى الحكومية، قيادة الطيران السورى، وزارة الدفاع وقصر الرئاسة. لاتوجد أماكن سكنية قرب هذه الأماكن، لكننى لا أقول أنه لم يصب أى من المدنيين هناك. هناك اعتبارات أساسية نتخذها ضد دمشق أولا نتخذها.. أحدها الفائدة من استخدام صواريخ فروج. لأنه بمجرد استخدام الصواريخ أرض – أرض، تصبح دمشق على رأس قائمة الأهداف، إلا أن ذلك لم يكن الهدف الرئيسى.. فقد أردنا وبشدة اسكات الجبهة السورية. إنها أولو يتنا الأولى، وقبل كل شىء، فهى فى قلب إسرائيل – عندنا لقد اعتبرنا تحركنا تجاه سوريا ملائما، واذا كان السوريون يريدون حربا، فعليهم دفع ثمنها الباهظ...».

الروح المعنوية لدى المدنيين السوريين .. بعكس تلك فى ١٩٦٧ .. كانت مرتفعة، واستمرت طوال فترة الحرب، فليس هناك أثر للفزع، والجماهير تتجمع على الأرض والنواصى لتراقب الفانتوم فوق رؤوسها، مترقبين إصابتها بصواريخ سام، ولا يشعرون بخيبة عندما لا تحدث، وعندما تصاب الطائرات، يسرعون للقبض على طياريها، بل ويجعلون منها مباراة.

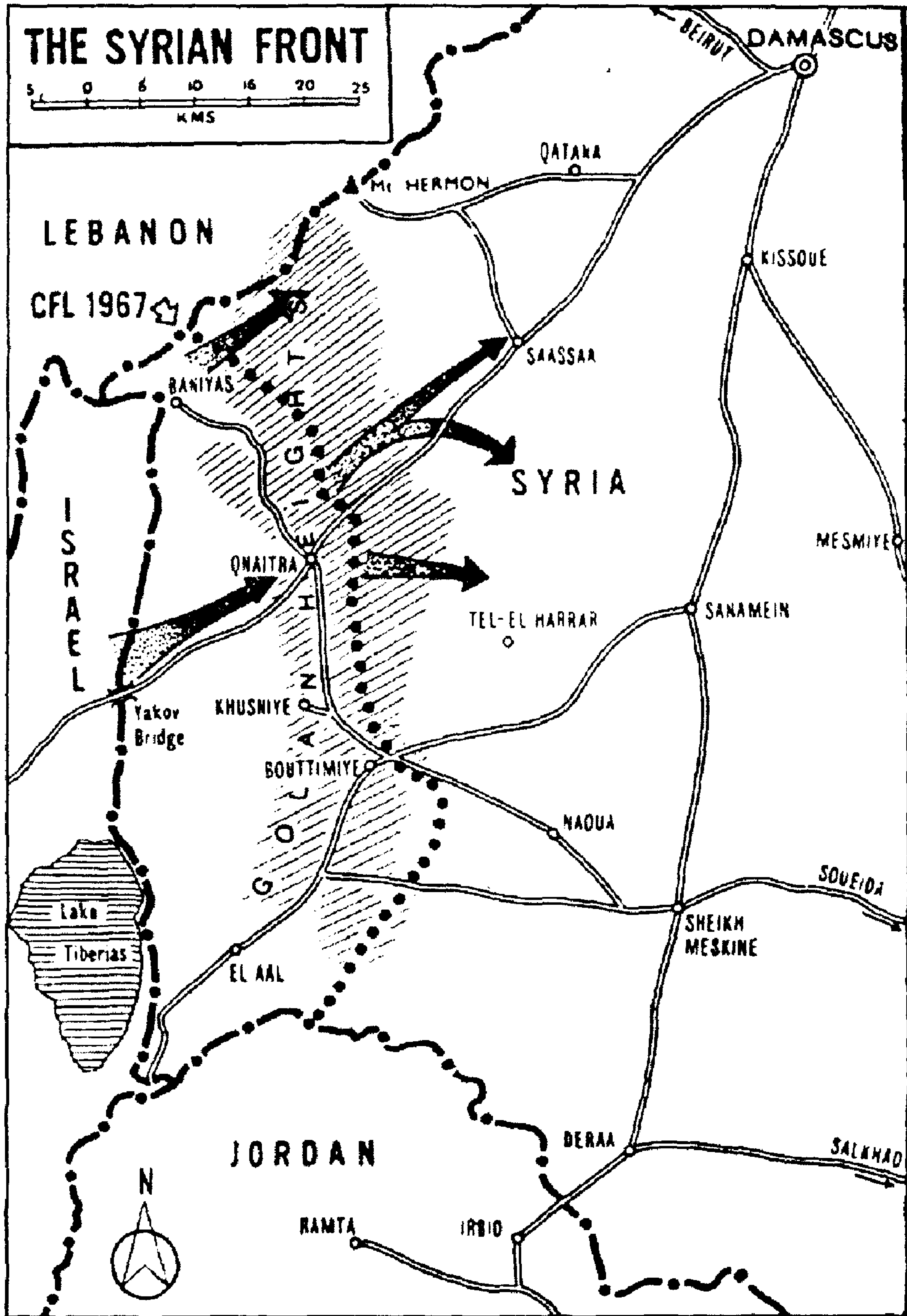
تأثر الاقتصاد السورى بشدة من جراء هذه الغارات. ففى غارتين تمكن الإسرائيليون من تدمير معمل تكرير البترول فى حمص، وأعطبوا محطة قوى كانت توفر ٢٥٪ من إجمالى احتياجات الطاقة فى سوريا، ومن عدة غارات متوالية، أعطبوا موانى اللاذقية وطرطوس ونهاية خط الأنابيب العراقى فى بانياس، حيث يتم تخزين الزيت فى ١٢ خزان تم تدميرها تماما. لم يتمكن الاقتصاد السورى من استعادة نشاطه لأشهر عدة نتيجة لهذه الضربات.

الهجوم الإسرائيلى المضاد

الاستراتيجية الهجومية الدفاعية الإسرائيلية، دائما ما توزعت على أساس أولوية توجيه ضربة إجهاضية للجبهة المصرية عبر قناة السويس، فى نفس الوقت الذى تقوم فيه بتثبيت السوريين والأردنيين فى الشمال وفى الشرق، وفى كل الأحوال، الفرضية الاستراتيجية، أن تبقى المبادرة مع إسرائيل من البداية. العرب بهجومهم العنيف المصحوب بقسوة الهجمات السورية، أبطل هذه الاستراتيجية. فى الجنوب، تقع الصحراء السينا وية حائلا بين اختراق مصرى محتمل والأراضى الإسرائيلية؛ أما فى هضبة الجولان، يظل التهديد السورى فى مناطق أقرب إلى أراضيهم.

وعندما تهاوت دفاعاتهم، أصبح على القيادة الإسرائيلية العليا أن تتحول فورا عن استراتيجيتها، وجعل الأولوية إلى الشمال بدلا من الجنوب، محدثة اختلالا ملموسا فى الخطة التعبوية. عبقرية ومهارة الأركان العامة الإسرائيلية واجهت التحدى.

لقد كانت «إلمس وامش» تلك فى ٧ أكتوبر، لكن بحلول ٨ أكتوبر تمت السيطرة



(كروكي خريطة للجبهة السورية)

على الأوضاع؛ اندفعت قوات الاحتياط عبر كوبرى بنات يعقوب، حيث بلغت التحركات مرحلة الفوضى، إلا أنهم تمكنوا من إيقاف التقدم السورى فوق حافة منحدرات الجولان. ثم بعد ذلك، تطلب بعض الوقت لإعادة تجميع الوحدات المتدفقة والتشكيلات لشن هجوم مضاد كامل. فى الشمال، قام الجنرال إيتان بهجومه المضاد فى ٨ أكتوبر، اعتبر ذلك كمقدمة، لكنها على الطريق.. الدعاية الإسرائيلية جعلتها «إتمام تدمير القطاع الأوسط بكامله»، بينما فى الحقيقة، أن الإسرائيليين وجدوا صعوبة كبيرة فى دفع الخطوط المدرعة السورية للخلف، تلك التى قاتلت بشراسة شديدة، وشنت هجمات مريرة بالدبات ضد التجمعات الإسرائيلية. لم يكن حتى ٩ أكتوبر، أن تمكن الإسرائيليون، وتحت غطاء شرير من القذف الجوى بقنابل النابالم من إجبار الجبهة السورية على التراجع. وخلال هذا اليوم، دارت معارك طاحنة بالدبابات، تكبد فيها الجانبان خسائر ثقيلة. طوال اليوم العاشر استعرت المعركة بدون توقف. دافع السوريون عن أوديتهم بعناد، لكن دبابة بعد أخرى تعطب وتشتعل فيها النيران. التسليح المتفوق لدبابات النثوريون وM.60يحصد، بينما السوريون يتراجعون للخلف شيئا فشيئا مجبرين. ورغم العنف الذى مارسه الإسرائيليون، فإنهم لم يتمكنوا من كسر الخط السورى المتماسك بقوة أثناء دفعهم لما بعد القنيطرة؛ بخلاف ١٩٦٧ ، عندما انسحب السوريون فى هرج كامل، كان هذا انسحابا متماسكا ومنظما. عملية محترفة، تنفذ دونما ذعر؛ وهذا الذى أنقذهم والعرب من الهزيمة الكاملة. فلو تمكن الإسرائيليون من اختراق هذا الخط، لأصبح الطريق إلى دمشق مفتوحا تماما، ولواجهت جبهة سيناء تهديدا أكثر خطورة. بحلول يوم الأربعاء، كان الإسرائيليون قد تجاوزوا خط وقف إطلاق النار فى ١٩٦٧ فى أماكن عدة فى شمال ووسط القطاعين، وبحلول الخميس ١١ ، كانوا قد سيطروا على خط متصل شرق خط وقف إطلاق النار فى القطاع الأوسط تجاه شمال وجنوب الأحمدى، ورغم محاولات بعض جيوب المشاة السوريون، ومجموعات صواريخ، تلك التى استمرت متمركزة فى التلال خلفهم. أصبح لزاما على إسرائيل تركيز جهودها على سوريا. أعطى الكهنة الإسرائيليون الإذن للقوات المسلحة الإسرائيلية، للاستمرار فى القتال فى اليوم التالى.. السبت.. ووعد الجنرال ديان السوريون بدرس فى الجغرافيا: «نفس الطريق من دمشق إلى تل أبيب،

يقود أيضا من تل أبيب إلى دمشق». فى نفس اليوم ضربت البحرية الإسرائيلية عدة أهداف على الشاطىء السورى، ما بين اللاذقية وطرطوس. ردت البحرية السورية، وبطاريات السواحل على المهاجمين، وذكرت التقارير السورية أنه تم إغراق ٨ قوارب داورية، فى نفس الوقت الذى أعلن فيه الإسرائيليون، أن صواريخهم من طراز «جابرييل» المحمولة بالهليكوبتر لدعم القوارب البحرية أصابت نفس العدد الذى ذكر السوريون أنهم أصابوه. وطوال النهار، واصلت الطائرات الإسرائيلية هجماتها على المدن السورية ومرتفعات الجولان. أعلنت سوريا أنها أصابت ٨٧ طائرة اسرائيلية، بينما أعلنت إسرائيل أنها أسقطت ١١ طائرة سورية. أعلن الجنرال هيرتزوج أن الدبابات الإسرائيلية أصابت حتى اليوم ٨٠٠ دبابة سورية. صباح الجمعة، استأنف الإسرائيليون تقدمهم، لكن أصبح واضحا مع كل ساعة، أنه سيكون تقدما دمويا على طول الطريق إلى دمشق.

كان التقدم محصورا فى جبهة ضيقة تعتلى الطريق، لاتبدو أى علامات على انهيار المقاومة السورية. فى الحقيقة، أن الجيوب السورية المتروكة خلف خط المواجهة الإسرائيلية، داومت على مهاجمة الطوابير الإسرائيلية المتقدمة على الطريق. وحتى الظهيرة، لم يعد الراديو الإسرائيلى يتحدث عن نزول التل إلى دمشق، حتى الجنرال هيرتزوج، المتحدث العسكرى الرئيسى غير فى أسطره: «مثل هذه الخطوط الدفاعية، لايمكن تدميرها بسرعة.. فالدفاع السورى شبكة ممتدة داخل البلاد وفوق كل بقعة وعرة». كان عنصر المصابرة هو العامل الذى قلل من الحماس الإسرائيلى للاندفاع نحو دمشق، ورغم تفوقهم فى معارك الأفراد، إلا أن السوريين كان ينالون نصيبهم المجزى فى القتل. كلما توغل الإسرائيليون، كلما صارت أجنابهم أكثر هشاشة، خصوصا الجناح الشمالى الذى سينكشف لأى هجوم مضاد من المغاربة، الذين تم تدعيمهم بكتيبة أخرى، وما زالوا قادرين على مواصلة القتال. لم يكن هناك نصر سريع على الجبهة السورية . انسحبت القوات السورية بنظام إلى أماكن خطوطها الدفاعية المجهزة، مقدمتها قرب شرق سعسع. قرية صغيرة فى واد ضيق على مسافة ٤٠ كم من دمشق. الطريق من الجانب الإسرائيلى يخترق ثغرة ضيقة فى التلال، لدرجة أن أى

انتشار للهجوم على سعسع، من الصعب إعداده، علاوة على ذلك، فالدفاعات السورية المقامة، قوية وبنظام تكنيكى سليم على أسس وتصميمات روسية. الملاجىء الخرسانية ومرابض الدبابات ومواقع المدفعية، محمية تماما من الهجمات الجوية، وفى نفس الوقت مدعومة ومجهزة بقوات عاقدة النية.

حتى ١٣ أكتوبر، كان الاسرائيليون قد استقدموا وحدتين مدرعتين من القوات الخاصة ولواء مشاة، بغرض عملية اجتياح خطوط الدفاع السورية؛ لكن فى النهاية لم تقع أية محاولة جدية.

فسر راديو إسرائيل ذلك، بأنه مادام الهدف الرئيسى هوتدمير المدرعات السورية.. والذى تم إنجازه بنجاح كبير، فأعلن أن مالا يقل عن ٥٠٪ من القوات المدرعة السورية التى عبرت خط وقف إطلاق النار فى ٦ أكتوبر تم تدميرها. تماثل كبير، ذلك الفشل الإسرائيلى فى اختراق الخط السورى والتقدم على جبهة ضيقة، الذى لو تكلل بالنجاح لأسفر عن نتوء خطير فى سعسع. على كل، لاح بديل واحد فى القطاع الجنوبى، حيث بدت ثغرة عريضة تخلقت بين الفرقة السابعة التى تعتلى الطريق الرئيسى والفرقة الخامسة من الجنوب؛ فالفرقة الخامسة لم تتعرض لهجمات مضادة بمثل القوة التى تلقاها القطاعان الأوسط والشمالى، لذلك لم تبدأ فى الانسحاب؛ حتى ١٠ أكتوبر، ثم للالتحام فى خط متواصل مع الفرقة التاسعة. ولأن محور الانسحاب امتد شرقا منحرفا عن المحور الأوسط، فقد أصبح من المهم فتح ثغرة بين الطريق الرئيسى وطريق بوطامية - السنامين. لو تمكنت إسرائيل من استغلال عدم التوازن هذا، لتمكنت من اختراق الطريق بين دمشق وعمان ثم الاستداره شمالا للإطاحة بالجناح الجنوبى للفرقة ٩ ثم الاتجاه لمحاصرة دمشق. كان لهذا التحرك، الأثر الاستراتيجى الأكبر بدلا من التهديد الجبهوى من سعسع.

الفصل السابع

العراق والأردن تشتركان في الحرب

رغم محادثات القمة التي انعقدت في دمشق، في وقت مبكر من العام، بين القادة أركان حرب سوريا والعراق، والتي نوقشت فيها خطط العمليات والقيادة، كان الهجوم السوري على مرتفعات الجولان مفاجئا تماما للعراقيين الذين لم يغفروا ذلك للسوريين. لقد سمع الرئيس بكر بقيام الحرب عن طريق الراديو مساء ٦ أكتوبر وكالعادة، ورغم كل شيء، أوقف العراق جميع عملياته، وكرس مساندته الكاملة للقضية العربية؛ اتصل الرئيس بكر فورا بالرئيس السادات والرئيس الأسد لعرض مساعدته، واتفق على أن يساهم العراق بوحدات عسكرية وتشكيلات طيران في الجبهة السورية (سرب من طائرات هنتر، سبق أن تمركزت في قناة السويس من عدة أشهر). وضع القوات المسلحة العراقية في حالة الاستعداد ليلة ٦ اكتوبر، وفي باكورة ٧ اكتوبر طار الفريق عبدالجبار شنشل، قائد الأركان العراقي، الي دمشق، مصطحبا فريقا من الضباط، لتنسيق المشاركة العراقية في الحرب، وفي نفس الوقت، صدر الأمر بتحرك فرقتين مدرعتين إلى سوريا، وسربين من طائرات سوخوى ٧ وآخرين ميج ٢١. قدرت القوات العراقية: فرقتين مدرعتين. إضافة إلى أخرى تحت الانشاء. وفرقتين جبليتين وفرقتين للمشاة.

الجيش؛ بالنسبة لسلاح الطيران، فهو مجهز بكامله ومسلح بمعدات روسية، الفرقتان المدرعتان، مجهزتان بدبابات T55, T54، أما التي تحت الانشاء فبالأكثر قوة T62. النزاع العراقي الإيراني، والمشاكل مع القبائل الكردية ذات التاريخ الطويل، خلفت حالة من التوتر المستمر على الحدود الشمالية، واستدعت تمركز ٤ فرق، اثنتان جبليتان وواحدة مدرعة وأخرى مشاة. وكان من الضروري التوصل الي اتفاق مع إيران قبل إرسال أي من هذه التشكيلات الى الجبهة السورية. قررت الحكومة العراقية التفاوض فورا مع شاه إيران، لإعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في هذه الساعة التي يحتاجها التماسك الاسلامي. استجاب الشاه بشكل فوري، فضمن هدوء الحدود

أثناء قتال العراق مع الاسرائيليين. واستجابة مماثلة من الأكراد فى الجبال الشمالية، الذين لم يكتفوا بضمان المسالمة والهدوء علي جبهتهم. بل عرضوا إرسال عناصر من «البش مارجا» الميليشيا الكردية، للعمليات النشطة ضد إسرائيل؛ هذه التحركات الدبلوماسية أمنت جبهة الوطن، فتقرر إرسال الفرقة الثالثة المدرعة، المتمركزة جنوب بغداد، رأسا الى سوريا، وأن يكون اللواء ١٢ المدرع طليعة الفرقة. أما الفرقة السادسة المدرعة والتى أعيد تشكيلها كفرقة مدرعة ميكانيكية، فستتبعها فى التحرك. تحرك هذه التشكيلات المدرعة، أفرز تداعيات خاصة بها؛ الفرق العراقية، تماثل فى تشكيلاتها الجيش السورى، مكونة من ثلاثة ألوية مدرعة، لكل منها كتيبتين مدرعتين وكتيبة مشاة ميكانيكية؛ (أو يمكن اعتبارها بعد إعادة تنظيمها لتعمل كلواءين مدرعين تماما ولواء ميكانيكى). العدد الكامل لمدرعات كل فرقة مابين ٢٥٠ ـ ٣٠٠ مدرعة، بالاضافة الي حاملات الأفراد فى وحدات الأفراد الميكانيكية. كل هذه المدرعات المقاتلة، يتعين نقلها على حاملات لمسافة ١٠٠٠ كم على طريق يفصل منطقة القتال عن موقعها الأصلى قرب بغداد. مشاكل الحركة والإدارة المتعلقة بالتوجه إلى جبهة القتال تطلبت تنسيقا كبيرا، وخططا سابقة الإعداد ليمكن التينفيذ بسهولة. هنا، عمل الجيش العراقى تحت ظروف غير مواتية. رغم أن المحادثات انعقدت فى وقت مبكر من العام بين القيادات العامة السورية والعراقية، فلم تكن الحكومة العراقية على علم كاف بالدور المحدد الذى يقوم به جيشها، وبينما تعلن الحكومتان توجهاتهما البعثية المشتركة، إلا أنهما دائما ما يكتنف علاقاتهما الفتور. ورغم أن المعروف عن العراق موقفها المتصلب تجاه إسرائيل وعروضها المتكررة للمشاركة على «الجبهة الشرقية» فى أى مواجهات، حرصت سوريا على ممارسة الحرب السياسية، وتبعا لذلك تحفظت فى السماح للقوات العراقية دخول الأراضى السورية. إضافة للأنباء الواردة من الجبهة السورية، التى أبرزت التقدم المتواصل نحو حدود إسرائيل، كان هناك شك محسوب بين القيادات العليا العراقية عن: ماذا سيقولون فى مجلس القيادة عند اتخاذ القرارات العسكرية فور وصول قواتهم للجبهة. المفاهيم فى هذا الوضع لم تستقر عندما رفض تعيين اللواء ناصف السامرائى، الذى سبق تعيينه للقيادة والمنسق مع القيادة السورية، على اعتبار أنه الأعلى رتبة، واحتل

مكانه العميد «لفته». وهكذا بدا أن منظمة القيادة العربية المشتركة المساندة لمصر وسوريا، مطلوب منها العمل تحت القيادة العامة المصرية والسورية، ولطارئ على مثل هذا القرار من الضخامة، كان لمثل هذا الترتيب أثر مغيظ. الأبعد من ذلك، أن الجيش العراقى يعانى من نقص فى الضباط العظام، وذلك لعدم ثبات المنصب فى الرتب العليا، نظرا للحالة السياسية السائدة؛ فمن شهرين ماضيين، أحيل ضابطان للاستيداع لأسباب لا تتعلق بحرفتهما، أحدهما مدير العمليات العسكرية، الذى سيكون رئيسا لادارة العمليات والمنسق فى مثل هذه الحالة الطارئة، إضافة الى نقص خبرات هؤلاء الضباط الكبار، فقد ذكر أن الفرقة التى كان قد تقرر تحركها أولا، كانت تحت قيادة عميد، وأول لواء مدرع بقيادة عقيد، أما الثانى فبقيادة رائد مرقى حديثا؛ وكنتيجة، بدا أن هناك تغييرات فى وحدات أعدت للعمليات، لكنها اعتبرت الآن متدنية فى خدمات نقلها ومن معداتها الأخرى. إضافة إلى أن ناقلات الدبابات لم تكن كافية كجهاز نقل وعبور على طريق طوله ١٠٠٠ كم.

طار وزير خارجية العراق الى عمان ليطلب السماح باستخدام الطريق من الرطبة الأردنية، حيث رفض طلبه، لكنه وعد إقراضه ناقلات من الأردن لتسهيل عمليات نقل الدبابات. للجيش العراقى ثلاث شركات ناقلة للدبابات جملتها ٢٧٠ عربة، لكن منها حفنة لا تصلح، من الوقت الذى كانت فيه معنويات الجيش العراقى عالية، قامت بعض الدبابات بالتحرك ذاتيا من بغداد على أن يتم تحميلها بعد ذلك، بينما جماعات الاستطلاع فى التشكيلات المتقدمة طارت الى دمشق لتكون مستعدة لاستقبال تشكيلاتها. فى معظم الأحيان، نقلت حاملات الأفراد المدرعة على متن ناقلات ثقيلة، يقودها مدنيون.

تحرك اللواء ١٢ المدرع فى مساء ٧ اكتوبر، وطلائعه عبرت دمشق متجهة إلى القطاع الجنوبى فى ليلة ١٠/١١ اكتوبر، وغادر اللواء الثانى بغداد فى ٨ اكتوبر، فى نفس الوقت الذى سبقت الوحدات الجوية الطيران والمشاركة فى المعركة.

القوات الجوية العراقية مكونة ـ على الورق ـ من ثلاثة أسراب سوخوى ٧، أربعة

ميج ٢١، واحد ميج ١٧/١٥، اثنين هنتر البريطانية المتبقية وسرب Tu16 قاذف، البعض منها ناقص القدرة. ومع أن النية كانت إرسال سربي سوخوي وسربي ميج ٢١، إلا أنه ذكر أنه قد أرسلت حوالي ٤٠ مقاتلة ـ ٢٦ سوخوي و١٤ ميج ٢١ ـ، توجهت مباشرة الى أتون المعركة، أصيب منها ٢٥ خلال بضعة أيام.

وطبقا لبعض التقارير، لم يتم تنسيق أجهزة الاستشعار (IFF) المجهزة بالطائرات سوخوي ٧ مع أجهزة الرادار السورية، ولقيت عددا من الإصابات تبعا لذلك.

وبطبيعة الحال، وجب إحلال سرب من طائرات ميج ١٧/١٥ مكانها.

كما ذكر أن محاولات اختراق الدفاع الجوي الإسرائيلي لم تنجح سوى بطائرتين عراقيتين قاذفتين من طراز Tu 16، لكنهما لم تنجحا في بلوغ تل أبيب، وتم اسقاط إحداهما.

وعلي الأرض، عندما بلغ وضع الجبهة السورية مرحلة الخطر، تمركز اللواء ١٢ المدرع عند سنامين ـ حوالي ٥٠ كم جنوب دمشق ـ، قبل ظهر يوم ١١. وبالرغم من مواصلة القوات السورية مقاومتها التصميمية على المحاور الرئيسية، إلا أن انسحاب الفرقة الجنوبية بعيدا عن طريق الحدود الاسرائيلية وفي اتجاهات مختلفة، وسع الجبهة بشكل كبير، فانفتحت ثغرات خطيرة في الخط السوري بين الفرقتين ٥، ٩، ومنح العدو (المعروف بنزعته الى العمل من الحركة) الفرصة لعملية تطويق واسعة من الجنوب.

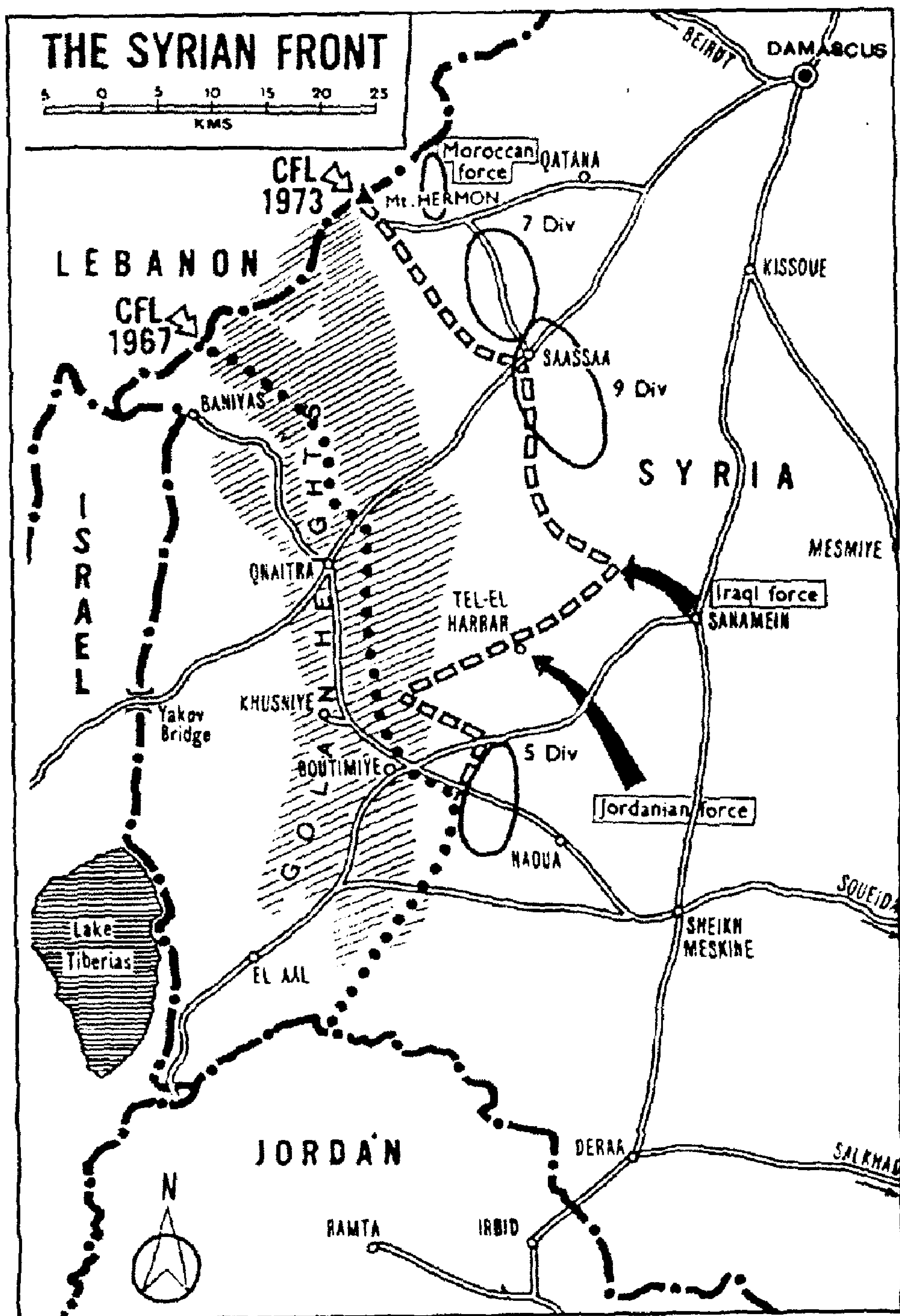
إذا ـ حسبما بدا ـ أراد الإسرائيليون في هذا الوقت، التخطيط للقيام بهجوم محاصر لدمشق، فقد قدمت الثغرة بين الفرقتين الفرصة التي يحتاجونها، ولإغلاق هذه الثغرة، دفع باللواء ١٢ المدرع العراقي فيها، حيث لا وقت للاستطلاع، أو إصدار أوامر تشكيل مناسبة. تقدم اللواء ١٢ المدرع من سنامين مباشرة الى خط الدفاع الأول، وبالكاد وصلوا في الوقت المناسب هنا كان الهجوم المضاد الإسرائيلي الرئيسي قد تم إيقافه أمام «سعسع»، وليست هناك أي بادرة لانهيار الخط السوري.

لهذا قرر الاسرائيليون ـ طبقا لاسلوبهم العسكري المألوف.. القيام بعملية اختراق

عميقة متحركة في الجنوب، فأرسل طابورا مدرعا باتجاه «حرار وسنامين»، فالمحتمل أنهم حصلوا على تقارير وصور استطلاع عن تحرك اللواء المدرع العراقي وتمركزه في «سنامين»، فتقرر القيام بهجوم مضاد، (كمين اسرائيلي ناجح من طائرات الهليكوبتر كشف طابور الدبابات العراقي شرق دمشق، وقد يكون ذلك الذى نبه الإسرائيليين الى التواجد العراقي). أما اللواء ١٢ المدرع السيئ الحظ، باندفاعه برعونة، هوجم في جناحه الأيسر الضعيف بطابور مدرع إسرائيلي. الأرض في هذه المنطقة، تعد من أفقر المناطق في العالم ـ صحراء من صخور البازلت الأسود، المليئة بالوهاد والأودية الضيقة والجرداء. ليس بالمكان الذى يساعد على رفع معنويات قوات وصلت حديثا، بعد رحلة متقلقلة عبر الصحراء، ومع ذلك، فقد تصرف العراقيون دون تردد، وباستشعار الحالة الملحة، دخلوا المعركة.

أعلنت بعض التقارير العراقية، أن القوة الإسرائيلية التى هاجمتهم تتكون من لواءين، لكن بالتأكيد هناك مبالغة. فمن العسير أن نفهم كيف يستطيع الجيش الاسرائيلي وهو في هذا المعترك، يستغنى عن لواءين مدرعين من أجل مجس أو هجوم مطوق ـ عموما كان الطابور من القوات الخاصة يتكون من ١٠٠ـ ١٢٠ دبابة، لكنها أمسكت بالعراقيين في ظروف غير مواتية. فبالكاد أتم العراقيون تحركا غير مسبوق بطول ١٠٠٠ كم، وفي ظروف غير مواتية وفي يومين، لذا كان اللواء المدرع مجبرا على القيام بدوره الخطير دون راحة أو إعادة تنظيم، بالعديد من دباباته في حاجة الى صيانة وإصلاح، فليس غريبا أن بدا العدو أكبر حجما وضخامة. خسر العراقيون نتيجة للضرب الاسرائيلي بنيران وصواريخ الدبابات، عددا من الدبابات في الدقائق الأولى.

وبسرعة، استدار العراقيون إلى اليسار لمواجهة الخطر، اشتبكوا مع الإسرائيليين في معركة ضارية، دارت لما يزيد على الساعة، لاح خلالها أن المجابهة ليست في صالح العراقيين. فدباباتهم الروسية، لم تصمد للمدافع الإسرائيلية، وصواريخ «كوبرا» (الألمانية الغربية) المضادة للدبابات، لم ترق الى صواريخ العدو «تاد» وخارج نطاق دفاعات سام الجوية، كانوا مكشوفين للهجمات الجوية الإسرائيلية. في كل الأحوال، لم



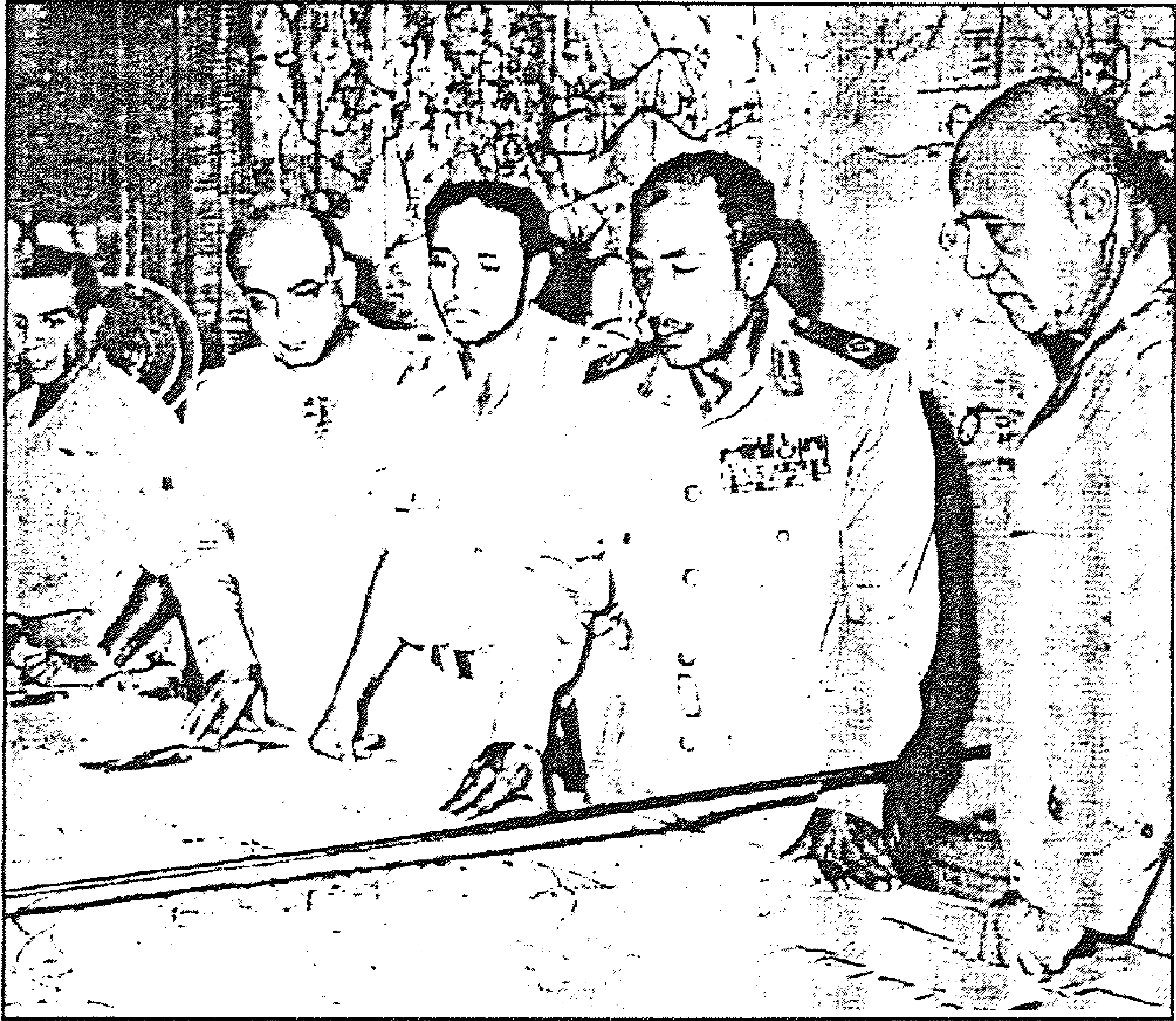
(كروكي خريطة للجبهة السورية)

تكن معركة متكافئة من البداية حتى النهاية.. لكن صمدت ببسالة رجال الدبابات العراقية، دون ترك موضع قدم للإسرائيليين.

وجاء الليل منقذا للواء العراقى الممزق الأوصال؛ أقر أحد المصادر العراقية، أن ٨٠ دبابة قد دمرت أو أعطبت فى هذه المعركة الأولية. ولولا وصول اللواء الآخر العراقى أثناء الليل، لضاعت السيطرة على هذا القطاع المخصص للعراقيين صباح اليوم التالى؛ فقد وصلت طلائع اللواء المدرع من الفرقة السادسة ليلة ١٢/١١ اكتوبر، وأعيد تجميعها مع بقايا اللواء ١٢، لتكون فى النهاية لواء مختلطا. وبحلول صباح ١٣ اكتوبر كان هذا اللواء المختلط مسئولا عن الحفاظ على قطاع ممتد من «تل الحرار» جنوبا حتي «سعسع». وحتى ١٣ اكتوبر، اخترق الإسرائيليون خط وقف إطلاق النار على امتداد الثلاثة محاور؛ لذلك، بمجرد صد هذا التهديد عند «سنامين»، بوصول القوات العراقية، حتى برز آخر فى المنطقة الجنوبية ـ جنوب «حرار»، على امتداد طريق «بوطامية ـ الشيخ مكين»، وفى هذه المرة كانت القوات الأردنية التى سارعت للنجدة.

فى عمان، لم يحط الملك حسين بخطط الهجوم العربية، ومع ذلك، ففى زيارة للواء نوفل «عضو القيادة العربية المشتركة» للقيادة العامة الأردنية فى ٤ اكتوبر، ألمح الي أنه فى حالة قيام حرب ضد اسرائيل، فبامكان الأردن القيام بحماية الجناح الجنوبى، تماما حيث أن السوريين سبق أن وضعوا فى اعتبارهم احتمال مهاجمة اسرائيل عن طريق الأراضى الأردنية، جنوب بحيرة طبرية، لذا كان احتمال قيام اسرائيل بالمناورة بانتهاك الأراضى الأردنية قائما. مثل هذا الهجوم يشكل مسئولية مخيفة: فخط الدفاع الأردنى يمتد من ميناء العقبة جنوبا، حتى بحيرة طبرية شمالا ـ حدوداً طولها ٦٠٠ كم تقريبا ـ القوات المتاحة لهذا العبء، عبارة عن: فرقتين للمشاة، فرقة مدرعة، لواء مشاه مستقل، ولواء سعودى.

هذا بالإضافة إلى فرقة مدرعة وأخرى ميكانيكية تحت الإنشاء بالقرب من عمان. تعزيزات فى العربية السعودية ترقى إلى لواء مشاة وكتيبتين مدرعتين تتمركز فى تبوك. الطيران الأردنى يتكون من سربين هنتر وسربين F 104 ستار فايتر القوات المسلحة



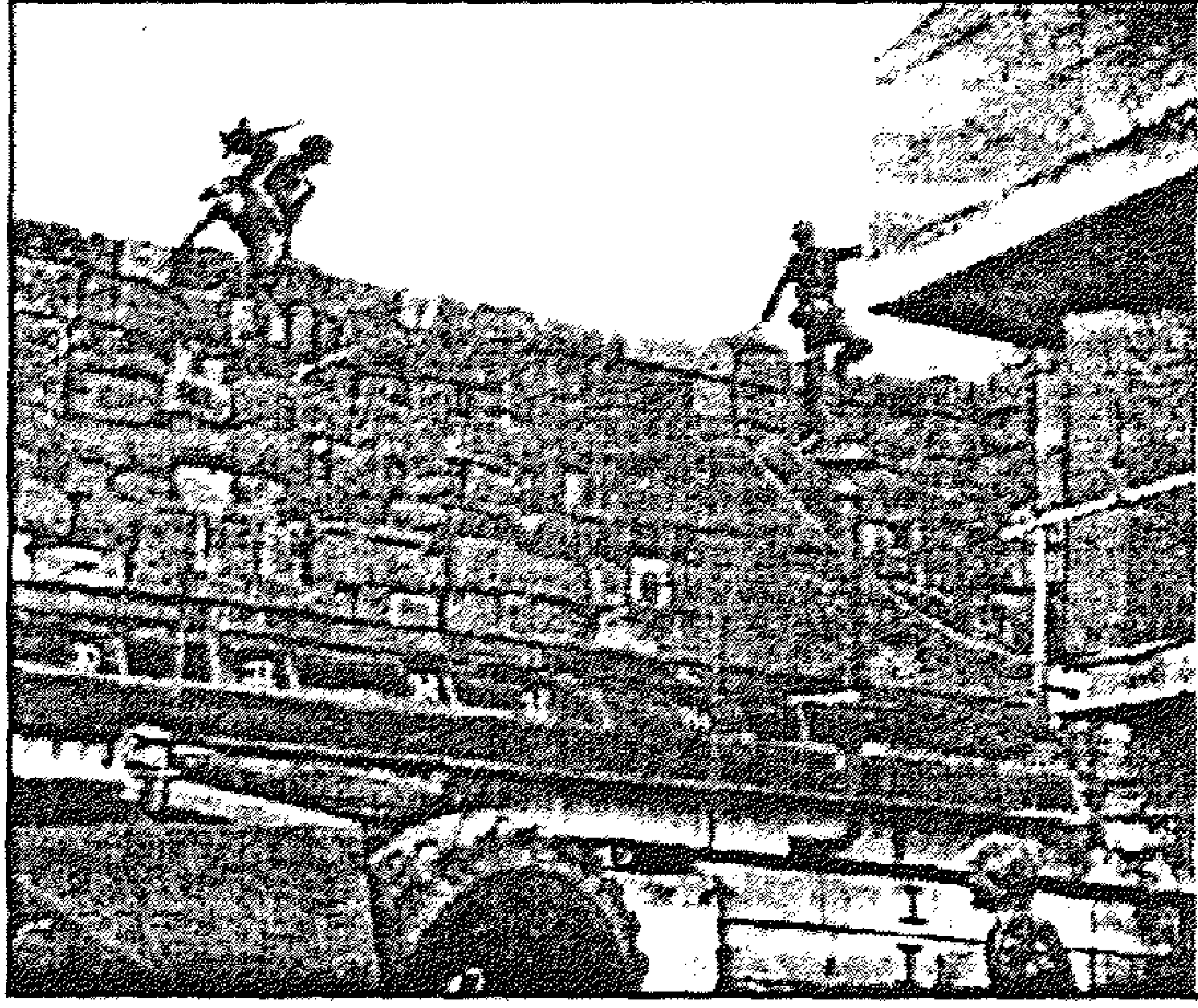
(صوره للفريق اسماعيل يعرض على الرئيس السادات في غرفة العمليات
تحت الأرض، والفريق الشاذلى على يمين الرئيس)

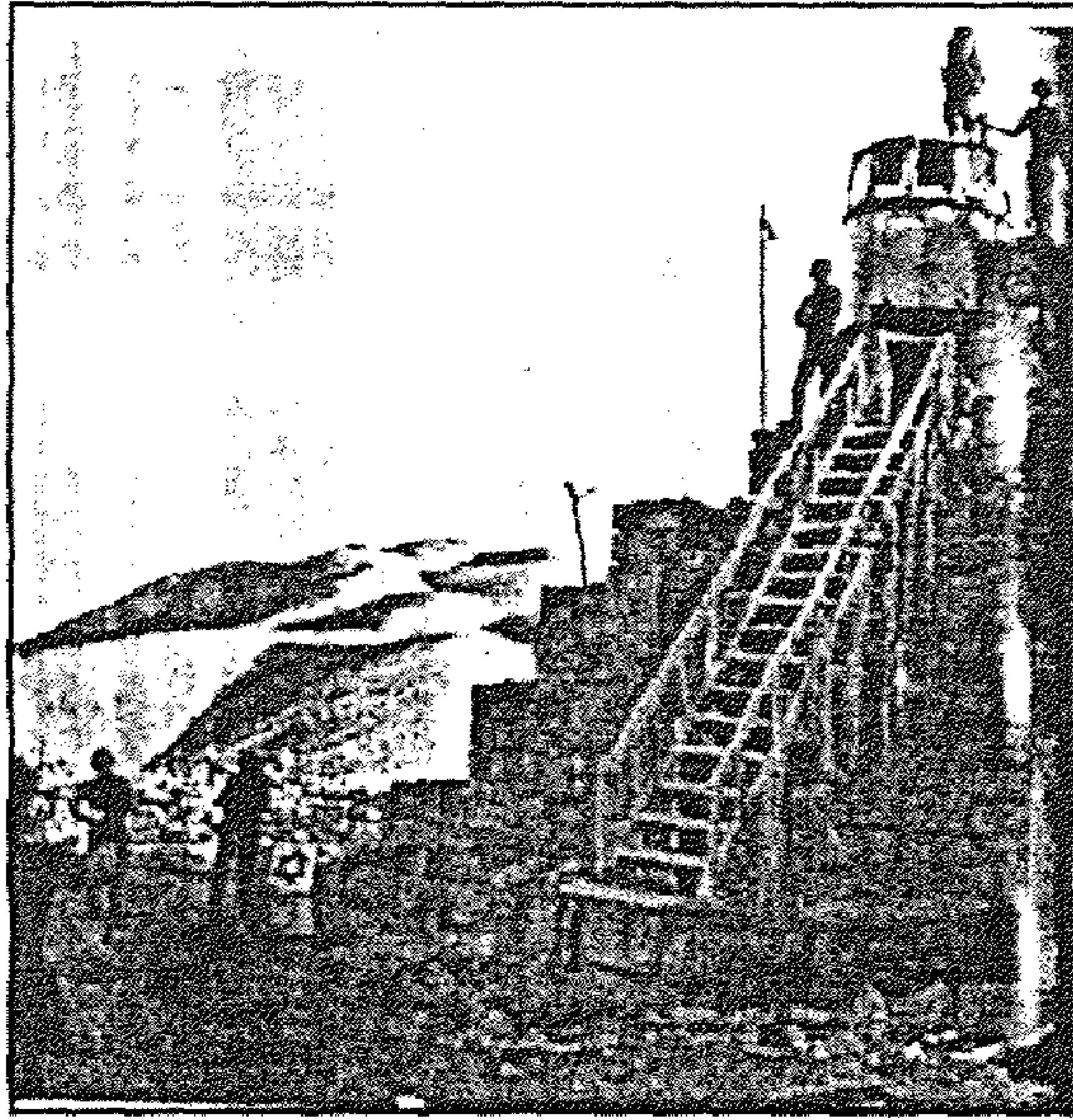


(صورة للرئيس حافظ الأسد)

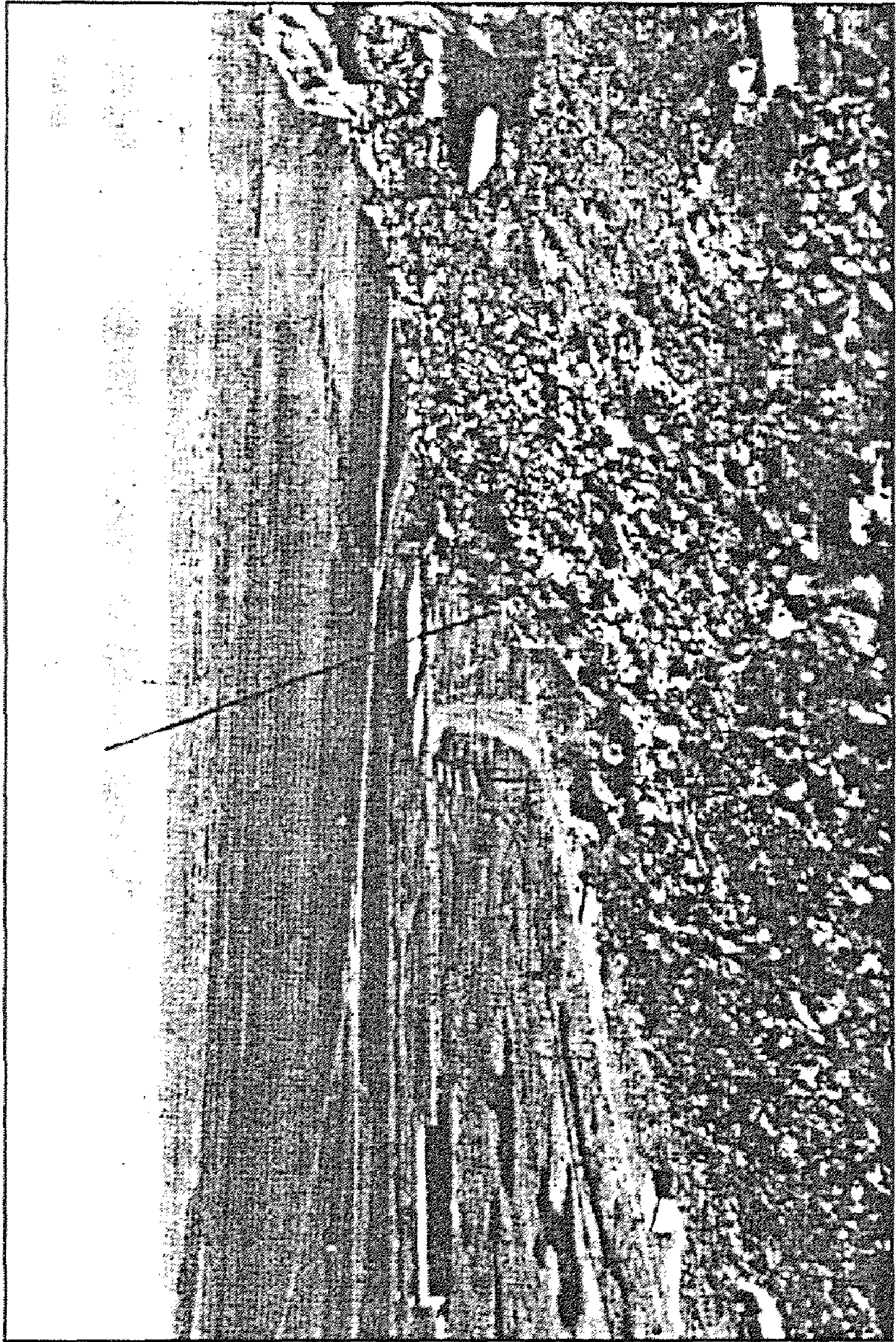


(صورة للملك حسين ورئيس الأركان الفريق شاكر)

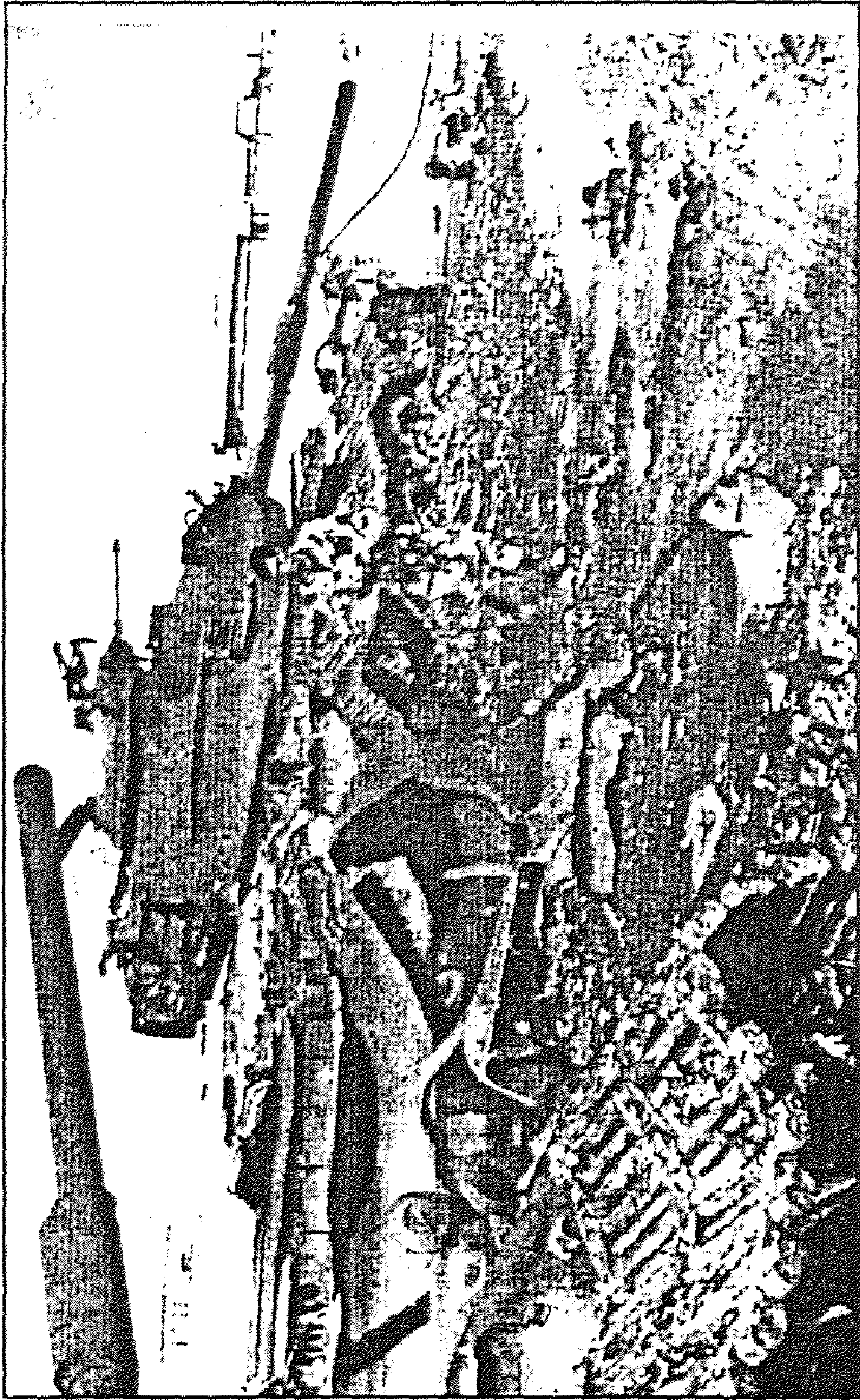




(صورتان للفدائيين السوريين واحتلال حصن جبل الشيخ)



(صورة مركز مراقبة فوق هضبة الجولان)



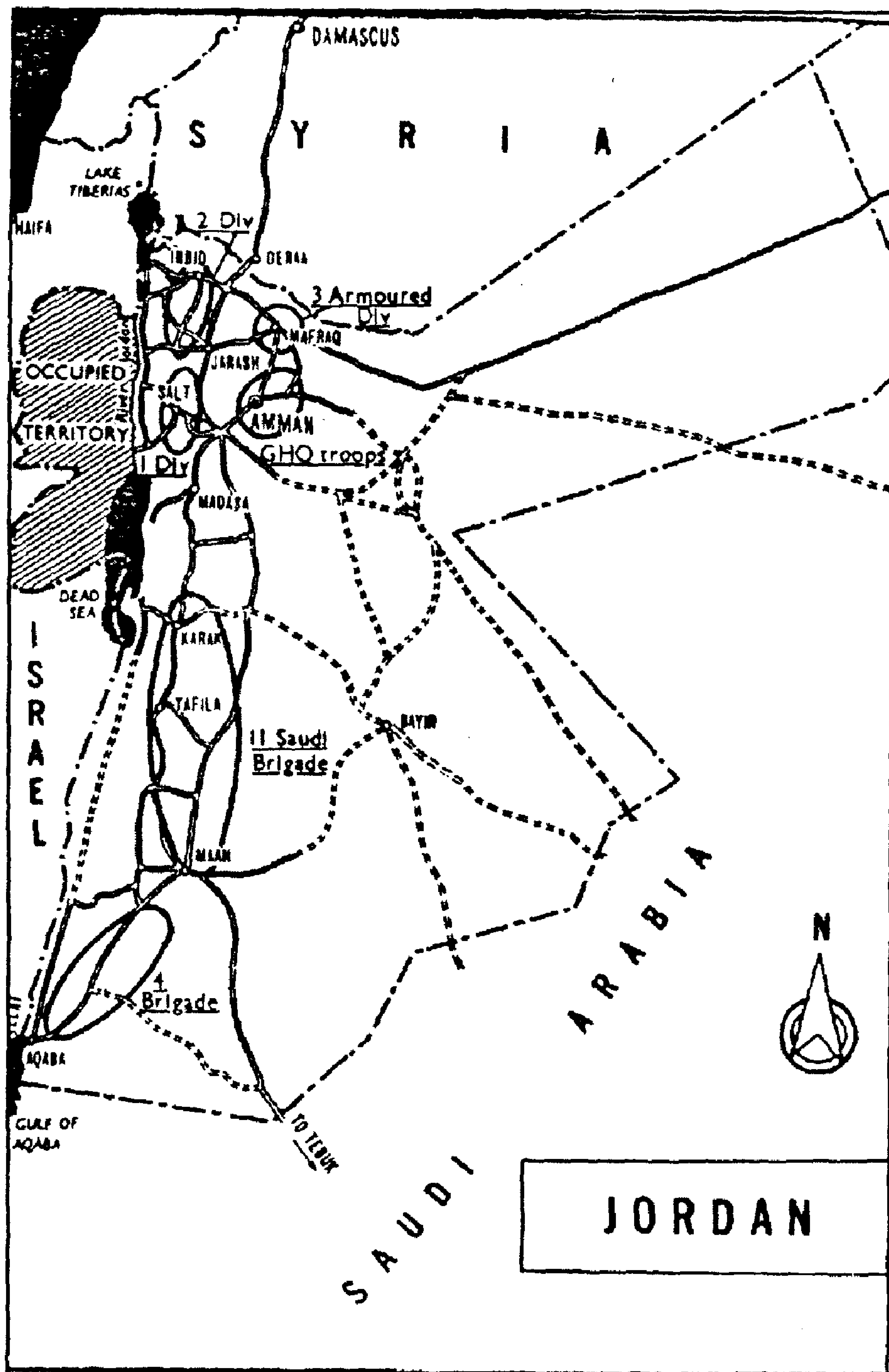
(صورة حطام المعركة)



(صورة الفدائيين المصريين أثناء عملية إنزال)

الأردنية دائما ما كانت متماسكة ومدربة طبقا للنظم البريطانية (ورثة تقاليد فيلق جلوب باشا العربي) ، ودائما ما حافظوا على حسن تصرفهم خلال عمليات ضد إسرائيل. لقد نالوا بالطبيعة، ضربة قاسية في ١٩٦٧ ، خسر فيها ثلثي الجيش ودمر طيرانهم عندما دفعوا الى خارج بيت المقدس والضفة الغربية بواسطة الإسرائيليين، خصوصا جيش البدو. الأخلاقيات القبلية والولاء للملك كانت بالغة، لكن الرجال خضبوا بالهزيمة بسبب التفوق التكنولوجي لجيش اسرائيل، كما أن جيش الأردن لايملك صواريخ. الوحدات المدرعة تشمل حوالى ٦٠ دبابة M - 60، أما الباقى فدبابات سنتوريون عليها مدافع، لكن فى العموم، افتقر الى المعدات الحديثة والمتطورة الروسية الصنع التى يمتلكها الجيش المصرى والقوات السورية. ليست هناك تغطية رادارية لأن محطة رادار عجلون دمرها الإسرائيليون في حرب ١٩٦٧ ، لهذه الأسباب، أعلن بصفة رسمية فى قمة سبتمبر المنعقدة بالقاهرة، أن القوات الأردنية غير قادرة علي القيام بأى هجوم على إسرائيل، وأن حتى قدراتهم الدفاعية فمحدودة، أما أقصى ما يمكن توقعه منهم على أساس الخطة الشاملة، فهو تكبيل القوات الإسرائيلية على طول نهر الأردن، والعمل كعنصر تعويق لضربة إسرائيلية محتملة لسوريا جنوب بحيرة طبرية عبر الأراضى الأردنية. توزيع هذه القوات كالآتى: ـ

الفرقتان الأولى والثانية مشاة، احتلتا مواقع دفاعية ثابتة تغطى أى تقدم إسرائيلى نحو الأردن عبر نهر الأردن. الفرقة الأولى بمنطقة إربد وعجلون، والفرقة الثانية فى المنطقة حول «سولت» وعبر طريق القدس. عمان. وفى العمق، الفرقة الثالثة المدرعة حول «المفرق». الفرقة الرابعة الميكانيكية أقامت فى عمان. الفرقة الخامسة المدرعة أقامت فى «الزرقا» ـ شمال عمان مباشرة. الاثنتان كانتا هيكليتين ولا تزيدا كثيرا عن لواء لكل. القطاع الجنوبى، الممتد فى جنوب البحر الميت حتى ميناء العقبة، يغطيه اللواء (١١) مشاه السعودى من «الكرك» حتى «معان»، ثم اللواء الأردنى المشاة الحر بين «معان والعقبه».



(كروكي خريطة الأردن)

أخذت القوت الأردنية وضع الاستعداد فور الأنباء بالهجوم العربى فى اليوم السادس. فى اليوم السابع، صدرت الأوامر بالتعبئة العامة، وفى اليوم التالى، كان البلد بكاملة قائم على أهبة الاستعداد. فى نفس الوقت، توقعا لضرية جوية إجهاضية، أخلى الملك حسين مطاراته من قواته الجوية إلى مطارات السعودية والخليج العربى؛ والحادث أن كان هناك نشاط محدود فوق: الأردن، باستثناء عمليتى اختراق خلال الأيام الأولى، عندما قامت القاذفات الإسرائيلية بهجمة كاسحة من الجنوب، وطارت فوق الأراضى الأردنية، مستهدفة الهجوم على المدرعات السورية فوق هضبة الجولان من الجناح، لكن بطاريات المدفعية المضادة للطائرات، اليقظة فى الجيش الأردنى والتى أعلنت إسقاط طائرتين اسرائيليتين، اثبطت التفكير فى أية محاولات أخرى. فى نفس الوقت، وتطبيقا لقرارات سبق أتخاذها فى مؤتمر القاهرة، على الأردن تخصيص قوة ترسل إلى الجبهة السورية إذا دعت الحاجة لذلك. هذه، وفى الحقيقة، لم تمثل مشكلة فى التخطيط لسابق تكليفها بها، ولأنه فى الحقيقة كان معدا للتعامل مع السوريين فى الشمال ـ! كان الملك حسين قد عين وحدات من الفرقة الثالثة المدرعة لهذا الغرض وعقد النية على قيادة هذه الفرقة بنفسه.

ونتيجة لتدهور الأوضاع بسرعة فى ١١ ـ ١٢ أكتوبر، أمر بفصل اللواء ٤٠ المدرع عن الفرقة الثالثة المدرعة (كتيبتى دبابات)، لتتحرك إلى الجبهة السورية. وصل التشكيل إلى «الشيخ مسكين» فى ١٣ أكتوبر، فى الوقت الذى انكشفت فيه الثغرة ين العراقيين عند قطاع» «سنامين ومحور بوطامية». لسوء الحظ، صاحب هذا التحرك، والإرتباك المألوف الذى يصاحب ترتيبات آخر دقيقة. كان هناك اتفاق مسبق على إشارة استدعاء، ولأن التجهيزات اللاسلكية لم تعين، والأبعد من ذلك، لم يخطر العراقيون بقدوم القوات الأردنية، لذا، فعند قيامها بمهامها بالتحرك صعودا بالدبابات (طراز سنثوريون.. مماثلة لتلك التى يمتلكها الإسرائيليون ولا تمتلكها القوات العراقية ـ السورية)، اعتقد العراقيون خطأ بأنها طابور إسرائيل، وقاموا بأطلاق النيران عليها. ذكر أن خمس دبابات دمرت فى هذه اللحظة. وحتى انقشاع هذا السوء فهم، كان الإسرائيليون قد هاجموا الجناح الأيسر المكشوف للواء الأردنى. اشتباك لم يجد ردا من

الأخير على صواريخ «Tow, s.ssll» الإسرائيلية وأسفر عن خسارة فورية ٢٠ دبابة؛ مع ذلك حافظ الأردنيون على مواقعهم، واصلح الخط الدفاعي، ثم قاموا بإدخال ٩٢ مدرعة، تلتها في النهاية باقي الفرقة المدرعة الثالثة التي اتخذت موقعها عند «شيخ مسكين». بعد يوم ١٤ أكتوبر هبط إيقاع القتال بشكل ملحوظ. وبدأ الإسرائيليون في نقل قوات إلى منطقة سيناء، ولم تعد هناك اختراقات نحو دمشق أو إلى الجنوب. استمرت الإمدادات في الوصول من البلاد العربية؛ أرسلت السعودية لواء من تبوك والمغاربة كتيبة أخرى لتنضم لزميلتها التي قاتلت ببسالة في الشمال. في ١٧ أكتوبر، وصل لواء الجبل العراقي إلى الجبهة، وبعد يومين، وصل لواء دبابات من الفرقة السادسة المدرعة مصحوبا بقيادة الفرقة، بعد ذلك وضعت جميع القوات تحت قيادة الفرقة السادسة المدرعة. بحلول صباح ٢٠ أكتوبر، صارت هناك قوة عربية متماسكة على جبهة الجولان.

تفاصيل هذه العمليات في هذه المرحلة، لم يكشف عنها بعد. عموما، فقد عرف أنه في يوم ١٦ أكتوبر قامت قوات مشتركة سورية ـ عراقية ـ أردنية، انطلقت من «تل حرار»، عاقدة النية على قطع خط الإمدادات الإسرائيلي غرب القنيطرة؛ الخطة، أن يكون اللواء الأردني رأس حربة، تهاجم وتخترق لتفتح ثغرة ضيقة. لسوء الحظ، واحتمال نقص الإعداد، صادف الهجوم بداية سيئة، استطاع اللواء الأردني فتح طريق مبدئي، لكن ـ حسب التقارير ـ دخل في سد من المدفعية العراقية التي كان مقررا لها الضرب من نصف ساعة ماضية، وبصعوبة تلافى هذا الخطأ، حتى قامت طائرات ميج سورية، استدعيت لدعم القوات الأرضية، باكتساحهم بالمدافع الرشاشة ـ بالخطأ ـ، عند وصول الأمر إلى هذه المرحلة الحرجة، أوقف الهجوم.

لا سوريا، ولا العراق قبلتا قرار وقف إطلاق النار الذى كان مقرارا سريانه مساء ٢٢ أكتوبر (قرار الإيقاف الأول)، وصمما على استمرار الحرب ضد إسرائيل، فقامت عدة اشتباكات شرسة بين المدفعية والدبابات استمرت لعدة أيام، لكن دون حدوث أى تغيير رئيسي في الوضع ـ فيما عدا أقصى الشمال، حيث كان الاسرائيليون يعدون للهجوم على الموقع الحصين على جبل الشيخ. في يوم ٢٢ أكتوبر، أعلن الراديو الإسرائيلي استيلاءه على «المواقع التي سبق أن استولى عليها السوريون فوق جيل الشيخ في بداية

الحرب)، فذكرت أن الهجوم قام به المظليون الذين أنزلوا من طائرات إلى الهلكيوبتر «مشاة الجولان»، تدعمهم المدفعية والطائرات ومع وحدات مدرعة؛ بدأ الهجوم بعد ظهر الأحد ٢١ أكتوبر، واستعرت طوال الليل في قتال يدبيد بين فصائلنا والسوريين.. كانت معركتنا بالأمس، واحدة من أعقدها حتى الآن.

في يوم ٢٣ أكتوبر، أعلنت سوريا أن الحكومة تدرس قرار مجلس الأمن (الثانى) بوقف إطلاق النار. كان معلوما أن الحكومة العراقية حاولت إثناء الرئيس الأسد عن قبول العرض، بل وعرضت تعزيز الوحدات العراقية في سوريا بوحدات أخرى من بغداد؛ ومع ذلك، فعندما قبلت سوريا فى النهاية وقف إطلاق النار، قامت العراق بسحب وحداتها من جبهة القتال ـ وفى ٢٥ أكتوبر، اختتم راديو العراق تعليقه الإخبارى بقوله: لقد أدركنا كل هذه الحقائق لحظة مشاركتنا فى القتال بكل جهودنا دون اعتبار للتضحيات، نحن، مع ذلك، وحيث كنا على خطأ فى تقديراتنا، اعتقدنا أن إخوتنا وأصدقاءنا رأوا كيف أن العراق وضعت كل إمكانياتها فى المعركة، ورغم أن انباء انفجارها بلغتنا من خلال الإذاعة، ندرك ونرى حقيقة أن العراق، بكونه عضوا أصليا فى المعركة، لايوافق على أن هدف ونتيجة المعركة يتقرران تعسفيا بواسطة عضو شقيق أو صديق دون مشورتنا أولا.

الفصل الثامن

عمليات رؤوس الجسور فى سيناء

مع أن حرب الجولان كانت من الحركة، إلا أن معاركها كانت سهلة المتابعة بواسطة المؤرخ؛ لكن القتال فى سيناء، الذى تلا توطيد رأس الجسر المصرى، كان أكثر صعوبة فى شرحه، محيرا بسبب ملامحه المتكررة، شرسا.. لكن متوازن لحد كبير. فقد شمل سلسلة من معارك الدبابات الطاحنة حجبت أكبر عمليات اشتباك بالمدرعات على الجبهة الروسية فى الحرب العالمية الثانية. فخلفت خسائر موجعة فى الدبابات لكلا الجانبين، إلا أن هذا كان هدف المصريين ـ حرب الفريق الشاذلى «مفرمة اللحم»؛ أثناء يومى ٩، ١٠ أكتوبر، عندما صدت مصر الهجمات الإسرائيلية المضادة، واصلت تعبئة احتياطى مدرع ضخم، فى نفس الوقت، كان الجيش الإسرائيلى قد تم تدعيمه بوصول الاحتياط ووحدات الاحتياط، ورغم أن الأولوية الاستراتيجية أعطيت للجبهة الشمالية، إلا أن اسرائيل أصبحت قادرة على القيام بهجوم مضاد مركز فى سيناء. بدأ هذا الهجوم بعد ظهر اليوم العاشر بقليل، استمرت المعركة طوال الليل وامتدت لبضع ساعات من صباح ١١ أكتوبر، عندما أعلن أن الفريق الشاذلى كان حاضرا؛ أعلن المصريون استيلاءهم على ١٥ دبابة M,60 ودمروا ٢٣ دباية وعربة مدرعة فى هذه المعركة. فى نفس الوقت ازدادت العمليات الجوية والبحرية وارتفعت حدتها، هاجمت قوة بحرية فى ١٠ أكتنوبر، الشاطئ الشمالى المصرى وأعلنت إغراقها ٣ قوارب صواريخ مصرية. أعلن المصريون تدمير ٣ قوارب داورية إسرائيلية وإسقاط ٤ طائرت هليكوتر طراز «seaking» (يفترض أنها مزودة بصواريخ جاربيل). فى اليوم التالى، فى مواجهة أخرى، أعلن المصريون إغراق ٣ قوارب صواريخ مقابل خسارة قاربين لهم. فى يوم ١٢ أكتوبر، وقعت اشتباكات فى خليج السويس وهناك فى بورسعيد على البحر الأبيض، فى الأولى أعلن المصريون إغراق ٣ قوارب صواريخ، وفى الأخيرة كان الإسرائيليون هم الذين أعلنوا إغراق قاربين مصريين (نفى المصريون ذلك). فى ١٣ أكتوبر أعلنت القيادة العامة فى القاهرة نجاحا كبيرا باستسلام حامية إسرائيلية هامة على الشاطئ الشمالى لخليج السويس لقوة بحرية فدائية مصرية. تحفظت القوات

الجوية الإسرائيلية فى محاولاتها اختراق دفاعات دلتا النيل بامتداد فرع دمياط. فى ١١، ١٢ أكتوبرو هاجمت طائرات الفانتوم والسكاى هوك محطات الرادار ومرابض الطائرات في قويسنا وأبو حماد، وغارة ثقيلة على قواعد الصواريخ وأهداف أخرى فى منطقة بورسعيد؛ أعلنت مصر خلالها عن إسقاط ٢٣ طائرة قاذفة مقاتلة.. لم تنف إسرائيل ذلك.

عند هذه المرحلة، أحست القيادة العامة فى القاهرة بأن هناك نية لدى القوات الإسرائيلية تجاه منطقة بورسعيد، هذا القذف الثقيل لأهداف داخل وحول هذه البقعة في المتوسط ونهاية القناة، مصحوبا بغارات بحرية متواصلة بطول الشاطئ إلى الغرب، بدا وكأن هناك محاولة وشيكة، لعملية إنزال بحرية فى مكان ما قرب بورسعيد. قامت القيادة العامة فى القاهرة بتحريك فرقة ميكانيكية من الإحتياطى الأوسط إلى الصالحية. إلا أنه تم سحبها بعد ذلك عند انحسار الخطر؛ فالمحتمل أن إسرائيل وضعت فى اعتبارها مثل هذا الغرض، إلا أنها استبعدته لحين مواتاة فرصة لعملية عبور للقناة.

وسرعان ماعاد التهديد لإلقاء ظلاله الثقيلة على بورسعيد، نتيجة مشكلة أكثر حدة؛ فرغم أن الفريق اسماعيل قد قرر عدم قيام الجيش المصرى بأية عمليات فى سيناء، فيما وراء مجال غطاء الصواريخ، إلا أن الانتكاسة التى أصابت الجيش السورى فوق هضبة الجولان، قلبت الأوضاع الاستراتيجية. بناء على اتفاق سابق، فالعمليات على الجبهات السورية والمصرية لا تعتمد على بعضها البعض (حتى لاتكون للقيادة العربية المشتركة أية سيطرة عليهما)؛ لكن أدرك الفريق اسماعيل أن انهيار الجبهة السورية قد يمثل كارثة لمصر، لأن كامل قوة قوات الدفاع الإسرائيلية ستتركز على جبهة سيناء، لكن الأبعد من ذلك، هناك الالتزام الأخلاقى لحليف، خصوصا وأن القيادة العامة السورية بدت فى اعتناق فكرة أن المصريين يتثاقلون فى التقدم حتى خط الممرات. يبدو أن أحد ضباط الاتصال السوريين من الذين حضروا أحد الإجتماعات التخطيطية العديدة فى القاهرة، فهم بشكل أو بآخر أن هدف المصريين فى سيناء، يقتصر على خط المواجهة الحصين وحتى الممرات. وبناء على ذلك، وبعد ضرب مقر القيادة العربية المشتركة، أصبحت شكوك دمشق فى متى سيتحرك الجيش المصرى،. فى

مثل هذه الظروف، وجد الفريق اسماعيل لزاما عليه القيام بهجوم رئيسى عن طريق رئيس الجسر، لسحب احتياطيات إسرائيل. استدعى ذلك الخروج من مجال تغطية صواريخ سام ٢، ٣، والعمل فى منطقة أبعد، تكون لإسرائيل فيها السيادة الجوية التامة، ومهما كانت التكلفة، فالواجب القيام بها. بلغت القوات المصرية التى تمت تعبئتها شرق القناة: ثلاث فرق مشاة، ثلاثة الوية مدرعة ولواء حر، كما أقيمت على الضفة الشرقية سبع بطاريات سام ٦ متحركة، وعدد من صواريخ سام ٧ المحمولة بالأفراد، موزعة على التشكيلات المختلفة. وقبل القيام بهجوم رئيسى فتطلب تعزيز المدرعات بالنقل من الضفة الغربية، لهذا تم إرسال الفرقة ٢١ المدرعة بكاملها عبر القناة، للانضمام إلى قوات رأس الجسر. فى فجر ١٤ أكتوبر، وتحت ستار القصف المدفعى لمدة ٩٠ دقيقة، والذى شمل الجبهة من رمانة فى الشمال حتى وادى حابوق فى قطاع السويس، تحركت طوابير المدرعات فى تشكيل هجومى نحو الدفاعات الإسرائيلية. هذا الهجوم لم يكن فى أعقاب فترة سكون، لأن القتال كان مستمرا بشكل أو بآخر منذ ٧ أكتوبر، لكنه شاهد تصعيدا دراميا فى معدل القوات المشاركة. إجمالى المدرعات المشاركة فى المعركة فى هذه المنطقة من٦٠٠ إلى ٨٠٠ دبابة. ومع أن الهجوم بدأ على جبهة عريضة، إلا أن المحتمل أن يتجه المجهود الرئيسى نحو «الطاسا» على طريق بير جفجافة. ذكر أن الفرقة ٢١ المدرعة قادت هذا الهجوم، وأثناء تقدم الدبابات خلال الغبار المثار بواسطة ساتر المدفعية، بدأ الطيران المصرى فى ضرب المواقع الإسرائيلية حيث كمنت الدبابات فى مراضبها انتظارا للمعركة. ومع أن المصريين نجحوا فى دفع العدو للخلف فى بعض المواقع، إلا أنهم تكبدوا خسائر ثقيلة. فمن خلال الضرب من الجو ومن مدفعية وصواريخ القوات المدرعة الإسرائيلية، بدا وكان الدائرة تحولت، فأصبح الاسرائيليون هم الذين يقومون بتشطير الطوابير المدرعة المصرية أثناء تقدمها عبر الصحراء. خلال ساعة من بدء الهجوم، كان راديو إسرائيل يعلن أن الهجوم المصرى قد تم إيقافه، وعند الظهيرة تحدث راديو القاهرة عن «قتال ضار» على امتداد الجبهة، وحتى ما بعد العصر بدا واضحا أن الهجوم قد تعثر، أعلن الاسرائيليون أن قواتهم قد دمرت ٢٠٠ دبابة، أما إذاعة صوت العرب فى القاهرة.. التى وصفت

المعركة بإيضاح مذهل، فاعترفت باصابة ١٠٠ دبابة؛ الخسائر الإسرائيلية، ولو أنها ليست بحجم المصرية.. كانت كافية لإثارة القلق. كان الميجور جزال أ. مندلر قائد القوات المدرعة الإسرائيلية فى سيناء، والذى أسندت إليه أيضا قيادة جانب من القوات الخاصة فى هذه العمليات ـ كان بين القتلى فى ١٤ أكتوبر، بل وتجاوزت الخسائر على جبهة سيناء تلك التى أصابتهم فى حرب الأيام السنة. والآن، وقد استقرت الجبهة الشمالية عند سعسع، أصبح فى إمكان الإسرائيليين سحب بعض القوات من الجولان إلى قطاعات سيناء. وطبقا لتقديرات المخابرات المصرية، أنه تم نقل ثلاثة ألوية ميكانيكية وواحد مدرع أثناء ١٥/١٤ أكتوبر. كان هناك نقد كثير فى الصحافة الغربية لحرص الفريق اسماعيل الزائد، أثناء الأسبوع الأول للحرب، ولفشله فى مواصلة التوغل فى سيناء بعد النجاح المبدئى للهجوم عبر القناة. كتبت جريدة الصنداى تلجراف فى ١٦ أكتوبر: كانت هذه الفلسفة الحريصة فوق كل ما قنع العرب من كسب الحرب. وكما أعطت حرب الأيام الستة، الثقة العالية للاسرائيليين، فقد جعلت المصريين أكثر حرصا. كان إسماعيل متخوفا فى مواجهة السلاح الإسرائيلى فى حرب تتم تحركاتها بدون مظلة من صواريخ سام وضد الفانتوم والسكاى هوك، ليفقد فرصته التى كانت تجعل من أى جنرال اسرائيلى يهلك فى أرجاء الصحراء، وقد تجعل الجنود المصريين يقرعون أبواب تل أبيب.

الأسس التى قام عليها نقد التلجراف، كانت بزعم أن: «لدى المصريين خطط للاستيلاء على سيناء بكاملها. هذه إذا سنحت الفرصة»، فتكون إسرائيل قد انهارت كدولة، وتسلم للفسطينيين مع دول عربية أخرى تفوز بشريحتها».

هذه المقولات عكست بوضوح خط الفكر الإسرائيلى، ولم تكن قائمة على أى دليل متاح، أو معرفة بخطط المصريين واستعداداتهم السياسية أو العسكرية، كما أن الضباط الشبان الذين يخدمون فى الصفوف الأمامية، ما كانوا ليتحدثوا مع المراسلين الحربيين عن «التقدم إلى تل أبيب»؛ فهذا يعتبر حديث جندى أثناء المعركة؛ لكن.. لا نشر الفرق على الضفة الشرقية. ولا أى دلائل استراتيجية أخرى، أظهرت ولوسببا ضئيلا للاعتقاد أن لدى المصريين أية خطط للخروج عن رأس جسرها، ولا أن تنقل

الحرب إلى الأراضى الإسرائيلية. وما قد يكون مقبولا، هو الانتقاد الذى وجه للهجوم الذى شن لمساعدة السوريين، فكان يمكن القيام به قبل ذلك بيومين أو ثلاثة. عموما، دع الفريق اسماعيل يتحدث بنفسه عن هذه الواقعة؛ فى مواجهة صحفية قام بها هيكل «الأهرام» بعد انتهاء الحرب، وعندما سئل الفريق اسماعيل «لماذا لم يتم تطوير هجومنا الشامل بنفس السرعة التي يجب أن يكون عليها، وعما إذا كانت الخطط المصرية المقصورة على.. افتتاحية العبور الكبرى للقناة.. توضح الأمور بالضبط»؛ فأمر بأنه رغم أن عمليه عبور القناة، احتلت الجانب الأكبر في اهتمامه، إلا أنها كانت مقدمة، لأن هناك خطة أكبر بكثر. الحرب هى حوار بين خطة وأخرى.. بين قوة ضاربة وأخرى ـ لقد حسبناها بدقة، إلا أن العملية تعتمد بشكل عام على ماسيقوم به العدو، بالنسبة لي ـ لم تكن الفرصة، بل الحساب، ومهما كانت الظروف التى سنحت لنا، فمن واجبى عدم المخاطرة. لقد بدأنا العمليات فى حماية صواريخنا الشهيرة، وإذا كان على أن اتجاوزها فيجب أن أتريث حتى أجد الفرصة التى قد بدأها غيرى أو أراها بنفسى، وحتى أتأكد من أن قواتى تتوافر لها الحماية المناسبة. لقد قام طيراتنا بأعمال باهرة، لكن إذا دفعت بجيش بمجرد سنوح فرصة مواتية، درن أى تغطية جوية ضد تفوق العدو الجوى، فمعنى هذا أننى ألقى العبء بكامله على القوات الجوية وأكلفها بمهام تفوق تحملها.. لذلك ـ التزمت بخطتنا.. أقصد الأصلية ـ التى تواجه فترة توقف بعد إكمال العبور، توقف أتمكن من خلاله إعادة تقييم الوضع على ضوء رد فعل العدو، فما زال أمامنا القيام بهجوم على جبهة عريضة قبل سنوح هذه الفرصة. هدفنا من ذلك هو تخفيف الضغط على سوريا، وعندما شعرت بأننا نجحنا فى إجبار العدو على سحب بعض هذه القوات من الجبهة السورية، فضلت العودة إلى رؤوس الجسر لمواصلة توطيدها.

من الموكد أن اسماعيل كان حريصا.. لكن لديه من الأسباب ما يجعله كذلك. قوات الطيران المصرية تقوم بواجبات المساندة الأرضية عند الحاجة إليها، لكن اسماعيل يعلم أنها لا تصمد أمام الميراج والفانتوم الإسرائيلية عند الاشتباك، دون التعرض لمخاطرة شديدة وخسائر مرتفعة، لذا فلم يكن بقدرته انتزاع السيادة الجوية فوق صحراء سيناء من الإسرائيليين. المناسبات الوحيدة التى تمكنه من ذلك، هى التى تخسر فيها اسرائيل

عددا كبيرا من طائراتها خلال توزع الهجوم العربي، حيث لا تكون فى وضع الدفاع عن سيطرتها فى الجو، لذا كان عليه الانتظار ليرى إن كان الأمريكيون سيقومون بالدفع بامدادات كبيرة من الفانتوم والسكاى هوك وصواريخ جو ـ جو. على كل، الهجوم فى ١٤ أكتوبر كان قدتم تحديده، ولو شن قبلها بيومين أو ثلاثة، بالتسليم بأن لكمته المدرعة لن تكون بنفس قوتها فى ١٤ أكتوبر، لكن الإسرائيليين سيكونون أيضا أقل استعدادا لتلقيها، ويتمكن رأس الجسر المصرى من كسب بضعة كيلومترات إضافية فى العمق، لكن هذا هو الموقف. وكان الاندفاع الكامل نحو الممرات يعنى المجازفة بالنجاح المحدود للهدف السياسي للرئيس السادات؛ وعززت تدفقات الأسلحة الأمريكية لإسرائيل تحوطات الفريق اسماعيل.

«المعونة فى الدول العظمى»

بناء على تحليلات «الحنداى تايمز» كانت اسرائيل على يقين من حصولها على المعوتة العسكرية الأمريكية، حتى قبل أن يبدأ الصراع. ظهر ذلك فى الساعات الأولى من السبت ٦ أكتوبر عندما التقطت أجهزة المراقبة إشارات متبادلة بالراديو، كشفت بما لايحتمل الخطأ أن هناك استعدادات للهجوم. رئيس الأركان الإسرائيلى الجنرال اليعازر، حبذ القيام بضربة إجهاضية ضد العرب، ولو حدث، وبوجود هذا الغطاء الصاروخى فمثل هذا الهجوم، يكتب له الفشل فى إحراز نفس الأثر المدمر الذى حدث فى ١٩٦٧. ومع احتمال وقوع خسائر خطيرة، فيعد هذا هجوما عاثرا؛ وعى المسز جولدا مائير بردود الأفعال المضادة الذى قد يثيرها مثل هذا العمل فى الولايات المتحدة، منع الاقتراح، لكنها استدعت السفير الأمريكى «المستركينيث كيتنج» للقاء فى الساعة السادسة صباحا. ذكر أن الأخير حذر المسزمائير بعدم قيام إسرائيل ببدء العدوان، والرأى العالمى سيجعل من العسير على أمريكا إمداد إسرائيل بمعدات القتال «إذا تراجعت اسرائيل عن الضربة الإجهاضية ـ هكذا ذكر على لسانه ـ مع ترك العرب ليقدموا دليلا لايقبل الدحض بأنهم المعتدون، هنا يكون لزاما أخلاقيا على أمريكا تقديم المساعدة».

ورغم أن الاستجابة المبدئية الأمريكية فى (٧ اكتوبر) لطلب إسرائيل المساعدة كان «سلبيا»، فالسبب ـ كما أكده الدكتور كيسنجر لاحقا ـ أن الأمريكيين توقعوا فوز إسرائيل بأى كيفية. وليس قبل مضى يومين، حتى بدا بوضوح أن العرب أحرزوا نجاحا رئيسيا، وأن الروسيين سيواصلون إمدادت السلاح لسوريا ومصر، حتى وافق الرئيس نيكسون على برنامج مواز للإمداد الأمريكى. (يعود هذا إلى برنامج المعونة، يزيد ويتجاوز الاتفاقات العادية للإمداد، القائم بين إدارة الدفاع الأمريكى وقوات الدفاع الإسرائيلية المتعلقة بتوفير قطع الغيار والذخائر والبنود الأخرى دون انقطاع. فى الحقيقة، مد خط أنابيب الإمداد لتلبى حاجة الإسرائيليين فى الثانية الأولى لبدء الحرب. صواريخ ومعدات اليكترونية معقدة لمساعدة الفانتوم على اعتراض التهديد الذى تسببه صواريخ سام ٦، فى نفس الوقت، فى واشنطن، وتحت ضغط من مناورات اللوبى الإسرائيلى، بولغ فى تضخيم حجم المساعده الروسية للعرب، ذلك لتقديم مبرر للقيام بعملية امداد جوى ضخم لإسرائيل،متعللين بأن روسيا تبعث بـ ١٠٠ رحلة طيران يوميا فور انتهاء الأسبوع الأول من القتال. وأخيرا، ذكرت إدارة الدفاع الأمريكية، «أن رحلات الطيران الروسية لم تكن حقيقة كما اعتقدنا سالفا». التقدير الذى تم التحقق منه هو ٢٥ ـ ٣٠ رحلة طيران يوميا، لكن هنا كان تدفق السلاح الأمريكى متواصلا. ويبدأ الأسبوع الثانى للحرب، أقلعت طائرات النقل هيركيوليز وجالاكس من قواعدها نفى جميع أنحاء الولايات المتحدة، لتهبط كل ١٥ دقيقة لإعادة ملء خزاناتها بالوقود من المراكز المخصصة فى الأزور، حاملة ما يبلغ إجماليه ألف طن يوميا. سربين من طائرات الفانتوم، وعدد غير محدود من السكاى هوك بطياريها الأمريكيين، يتم امدادهم بالوقود من الجو، ولا تتوقف سوى مرة واحدة فى هولندا أو الأزور فى طريقها إلى مطار اللد فى إسرائيل؛ وحتى قبل أن يعتمد الكونجرس الأمريكى مقدار المعونة بمليارين من الدولارات، أسلحة، معونة خالصة.

هذه الإمدادات التى سلمت فى الأسبوع الأول من الحرب، أقنعت القيادة العليا المصرية، بأن التفوق الاسرائيلى لن يمكن كسره بواسطة قوات الطيران المصرية. فقدت إسرائيل حوالى ١٥٠ طائرة، طبقا للتقديرات المتحفظة العربية، خلال الأسبوع الأول،

وتقلص مخزون الذخائر لدرجة أنه بحول ١٤ أكتوبر كان الاحتياطى العام منها لايكفى أكثر من أربعة أيام للقتال؛ لكن بدءا من الأسبوع الثانى، استعادت إسرائيل قدراتها على مواصلة الحرب، ليس هذا فقط، شحنات حديثة من القنابل الموجهة بالليزر وصواريخ فائقة الكفاءة من طراز «Tow» المضاد للدبابات، وكلاهما سبق تجربته بنجاح كبير فى فيتنام. كل هذا جعل إسرائيل فى وضع أفضل إعدادا للحفاظ على تفوقها العسكرى التكنولوجى، عن وضعها فى بدء الحرب. الفريق اسماعيل، الذى شعر بضرورة التريث حتى يتمكن تحديد حجم عملية إعادة التسليح الإسرائيلية، قبل الإقدام على أى عملية اقتحام على نطاق واسع، أدرك أنه كان على حق فى تحديد أهدافه بجعل العملية «بدر» قاصرة على البقاء «كمفرمة لحم» عند رأس الجسر حتى ٢٠ كيلومتر. يمكن قياس ملاءمة عملية النقل الجوى الأمريكية، بكون، أنه فى يوم السبت ١٣ أكتوبر، كانت الذخيرة والامداد فى وضع حرج للغاية، حتى أن اسرائيل كانت على استعداد لقبول وقف إطلاق النار على الوضع الراهن. كان من الواضح عندها، أنه رغم إيقاف الهجوم العربى بشكل نهائى، بل وقمعه فى الشمال، إلا أنه لاتبدو نهاية سريعة للقتال.. كما أملت إسرائيل. التقارير التى صدرت من بيت المقدس، أوضحت أن وضع الذخيرة أصبح خطيرا، وأن بعض أنواع الذخيرة الخاصة بالدبابات، تقلص المخزون إلى ما يكفى يومين بالحفاظ على القليل الواصل فى خلال القنوات العادية من الولايات المتحدة؛ فى مساء هذا اليوم ، ظهرت المسز مائير على شاشة التليفزيون، لتعلن أنه فى حالة اقتراح العرب لوقف إطلاق للنار، ففى خلال بضع دقائق سنعقد اجتماعا وزاريا، لكى نتخذ قرارنا»، مشيرة إلى قبولها لخط وقف النار شرقى رأس الجسر المصرى عبر القناة. تجاهل المصريون هذه المبادرة التوفيقية، وبهذا فقدوا فرصة قدلا تلوح مثلها مرة أخرى. على العموم، كانت الحرب تسير بشكل جيد جدا حتى أنهم قاوموا نشر هذه الفرصة فى الوطن؛ فقواتهم تتدفق عبر القناة لتدعم استراتيجية «مفرمة اللحم»، حتى بدون مكاسب أرضية أخرى. كانوا ينفذون بنجاح ـ رغم التكلفة الباهظة.. عملية وهدفا أساسيا، هو تدمير الدبابات الأسرائيلية، «الهدف المباشر، هو إيقاع أثقل الخسائر بالإسرائيليين». كان هذا تعليقا للأهرام. كان هناك أيضا

عامل التضامن العربى لوضعه فى الاعتبار، فإيقاف إطلاق النار فى هذه الآونة، لن يجد استحانا فى بعض العواصم العربية، فالعراقيون جاءوا للحرب بقلوب مفعمة، وكانوا على استعداد للقيام بإشراك قوات إضافية لجبهة القتال الشمالية.

والملك حسين، رغم تردده لحوالى أسبوع، بادر بإرسال واحد من أحسن تشكيلاته، لمساعدة السوريين، كذلك لواء سعودى وكتيبة مغربية أخرى بدأتا فى الوصول إلى سوريا. كان النقل الطائر الروسى، يستجمع قوة دفعه؛ طائرات الأنتونوف ١٢، ٢٢ العملاقة، تهبط فى القواعد الجوية فى القاهرة ودمشق وبغداد، محضرة بدائل اشتدت الحاجة إليها، تشتمل على أعداد كبيرة من صواريخ سام ٦. وعلى الجبهة الاقتصادية، أطلقت نيران حرب البترول. فى يوم الثلاثاء ١١ اكتوبر، طلبت الكويت عقد اجتماع فورى للدول العربية، لمناقشة دور البترول فى الصراع. كان العرب متفائلين بشكل فائق للمكانة الاقتصادية والسياسية التى يمكنهم تبوءها بفرض خفض إنتاج البترول للضغط على العالم الغربى واليابان الذين سيتأثرون بشدة، فيستخدمون نفوذهم لدى الولايات المتحدة، وبذلك يضعون حدا للإمدادات التى تقدمها لإسرائيل. هذا لم يحدث بالطبع، لأن الولايات المتحدة صممت على تجاهل حلفائها، وواصلت سياستها تجاه غرب آسيا. رغم ذلك ستحدث استراتيجية البترول أثرها على المدى الطويل، عندما يحين الوقت للحديث عن تسوية نهائية لقضية الأرض المحتلة؛ وطبعا ستكون عاملا هاما يبقى على التضامن العربى حيا. لهذا، فمن الواضح أن الوقت غير مناسب للحديث عن وقف لإطلاق النار. فقد رفض الرئيس السادات نصيحة كوسيجين، رئيس الوزراء الروسى. فى الساعة الرابعة من مساء السبت، قام السفير البريطانى، بطلب من واشنطن، بالاتصال بالرئيس السادات، يطلب منه يأن يستدرك رد فعله تجاه عرض وقف إطلاق النار على أساس الواقع القائم؛ رفض الرئيس السادات العرض، فلم يكن قد اقتنع بعد بأن إسرائيل هزمت تماما لتأتى إلى طاولة التفاوض لتتحدث عن تسوية نهائية للأراضى المحتلة

الفصل التاسع

العملية غـــزال

العملية التى كيلت لإسرائيل، بالنجاح العربى المبكر، قدمت الكثير لقادتها. ليس لتطبيبهم فقط من غطرستهم العسكرية، بل أيضا فى الميل لتبسيط الفروض التى تتعلق بالحروب المستقبلية مع العرب؛ الانتصارات السهلة فى ١٩٥٦، ١٩٦٧، وقرت فى أنفسهم أن أى اشتباك فى المستقبل لن يتطلب سوى بعض الإجراءات البسيطة: «أخذ زمام المبادرة بالضرب أولا، مطاردة العدو الهارب والاستمرار فى التوسع فى بيئة مستسلمة» .الهجوم العربى نسف كل هذه الفروض: كان العرب هم البادئون بالضرب، كانوا هم. ولو فى المعارك الأولى ـ الذين طاردوا عدوهم، وصمدت البيئة بدلا من استسلامها. اهتزت ثقة الحكومة فى عسكريتها، والتى عبرت عنها باستدعاء ستة من جنرالاتها المتقاعدين للخدمة. هذا التطعيم العالى المستوى بهؤلاء الضباط العظام، الذى يشمل رئيس الأركان السابق الجنرال بارليف ورئيس الطيران الجنرال هود ورئيس المخابرات السابق الجنرال أهارون ياريف، لم يكن مألوفا، وأوضح بجلاء عدم رضاء الحكومة عن قصور القوات المسلحة أمام الهجوم العربى. ربما كان الفشل الأكبر، عند القيام بالهجمات المضادة فى الجنوب. انتهى معظمها بكارثة ـ لدرجة أن المصريين دهشوا فى انعدام أى أثر لرد فعل اسرائيلى على جبهة القناة. حتى الصخب الذى أثاره جنرالات المنطقة الجنوبية، كان مثمرا فى استعادة الثقة. الجنرال شارون، كان يعلن استهجانه لدماثة خلق الجنرال جونين، الذى أخذ مكانه قبل بضع شهور، كانت العاقبة غير مألوفة. وعندما بلغ النزاع وزارة الدفاع فى ٨ أكتوبر، قدم الجنرال ديان اقتراحا غير عادى لمعالجة مشكلة القيادة، فهو كوزير للدفاع اقترح على أركا نحربه الجنرال اليعازر، أن يستبدل كلا من جونين وشارون مكانه مع الآخر..! أجفل اليعازر من هذا الاقتراح غير المألوف، وطار إلى قيادة الجبهة الجنوبية ليتحقق من المشكلة بنفسه، وعاد ومعه حلوله؛ ولأنه وجد أن القائدين الآخرين فى القيادة الجنوبية، افرام آدان وكالمان ماجن بدءا أيضاً معارضة أوامر الجنرال جونين، قرر اليعازر أن.. لاشارون المتباهى أو الجنرال جونين الدمث، هو الرجل الذى يحفظ تماسك جبهة سيناء، فأرسل الجنرال

بارليف ـ حديثا وزير التجارة فى حكومة المسزمائير ـ إلى القيادة العامة الجنوبية ورغم أن مهمة بارليف الرسمية التواجد هناك «فى مهمة خاصة»، إلا أنه المنوط باتخاذ القرارات، رغم الجنرال جونين، الذى سمح له باستعادة مكانته، وإصدار الأوامر بحسب دوره. هذا النسق الجديد اتخذ فى الوقت المناسب، لمنع أية خطوة متهورة فى جانب الجنرال شارون. فمن بدء انضمام شارون للقيادة الجنوبية، وهو يلح على القيام بهجوم فورى عبر القناة لاستعادة الأوضاع.. إعطائه دبابات ومظليين، هكذا يحاجج، سيتمكن من تدمير العدو فى ظرف ٤٨ ساعة.

كما ذكر أنه قال «إذا لم يمنح هذا الإذن، فبإمكانه القيام به منفردا». تطلب هذا تدخل الجنرال ديان بنفسه، لإثناء شارون عن اتخاذ هذه الخطوة؛ لكن جونين صار متوجسا فى هذا التابع الصلب الرأس حتى أنه «تصنت» على شبكة اللاسلكى الخاصة به، لالتقاط أية رسالة قد يرسلها للخارج. ورغم أن الجزال شارون هو الذى قام بالهجوم الجرئ للاستحواذ على موطئ قدم على الضفة الغربية، وتلقى كل الثناء عليها؛ فالمفهوم كان متطابقا مع الفكر العسكرى الإسرائيلى قبل حرب ١٩٧٣؛ والقيادة العامة فى تل أبيب حرصت فى ملفات خططها على عمليات كهذه، وكأخرى للهجوم المضاد عبر القناة. فالجنرال شارون، عندما كان قائدا لجيش الجنوب، أخذ على عاتقه القيام بعمليات استكشاف وإعداد لمثل هذا الهجوم؛ فى ٩ أكتوبر، كانت الصورة فى سيناء مختلفة عن أى شئ سبق لإسرائيل أن استظهرته، وحتى على الجبهة الشمالية، ورغم أنهم أوقفوا السوريين فى النهاية، وكانوا يتوقعون دفعهم للخلف، إلا أن خسائرهم كانت ثقيلة، سواء فى الرجال أو المعدات؛ ليس هذا بالوقت الذى نفكر فيه بالقيام بهجوم رئيسى ضد المصريين ـ قال الجزال ديان فى ٩ أكتوبر: «إن أوضاع قواتنا دفاعية، وهى بسبيلها لتقوية خط دفاعها لاحتواء المصريين حتى تتغير الأوضاع خلال الأيام القليلة القادمة.. لقد أخليت مواقع خط بارليف الحصينة، ولن نستطيع الحفاظ على اتصالات منتظمة مع الخط، وقد تخلينا عن ذلك؛ نحن لسنا فى قوة المصريين، أن الهالة الراسخة عن تفوقنا السياسى والعسكرى، وأن إسرائيل أقوى من العرب، وأنهم إذا تجاسروا على بدء حرب سيلقون هزيمة محققة، لم تتحقق هنا.. وما لن

نتمكن من القيام به، هو إجبار المصريين على التراجع وهزيمتهم الآن، وأنا اؤكد على «الآن». مع ذلك، بدت الأمور فى التحسن بالنسبة لإسرائيل فى الخميس ١١ أكتوبر، فقد تم إجبار السوريين على التراجع مع عدم تمكن المدرعات الإسرائيلية من اختراق خطوطهم، وكانت خسائر الدبابات التى لحقت بهم تؤكد أن السوريين، سيصبحون غير قادرين على القيام بأى هجوم كبير فى الوقت القريب. أما فى الجنوب، فقد احتل المصريون القنطرة، وقاموا بترتيب أوضاعهم للانطلاق من مرابضهم للقاء المدرعات الإسرائيلية، لكن المعارك كانت تدور فى نطاق رأس الجسر. لقد نالوا منهم واثخنوا فيهم، لكن خسائرهم كانت تقل شيئا فشيئا. المشكلة الاستراتيجية الأساسية كانت في ما إذا كانت اسرائيل قادرة على تعبئة القدر الكافى من الرجال والمعدات اللازمين لحرب مصابرة ـ؟ هذا ما كان يقلق رئاسة الأركان. وعلى الجانب الآخر، كانت البوادر الأمريكية تعطيهم دافعا للتفاؤل. فكان من الواضح أن يحولوا أولوياتهم نحو الجبهة المصرية، والبدء في التفكير فى شن هجوم؛ لم يكن بالأمر اليسير، فالقيادة الجنوبية الإسرائيلية ما زالت تحت تأثير الهزيمة التى لحقت بالكولونيل راشيف ولوائه ١٤ المدرع في معركة الفردان، فاللواء بعد أن تقلص إلى ٩٠ مدرعة.. بعد أن كان ٢٥٠، وضح أن ليست له اليد العليا فى التصدى للصواريخ المصرية المحملة لمجموعات الأفراد التى كانت تواصل التقدم في ما وصفه راشيف بهجوم «زاحف متسلل». خطط لعمليات عبور للقناة، سبق إعدادها من مدد طويلة بواسطة الجنرال بارليف، لم تكن قائمة على إطلاق شارون، ففى هذه الظروف، قد تكون حمقاء وسابقة لأوانها؛ مع ذلك، ففى باكورة ١١ أكتوبر، بدئ فى الاستعداد لعملية محتملة للاندفاع للأمام فى الجنوب؛ سيل من عربات المهندسين، تحمل معدات وأرماث للكبارى، شاهدها المراسلون الصحفيون، تسد الطريق المتجه جنوبا فى العريش. الاستطلاع الجوى والفدائى للضفة الغربية سبق البدء فيه.

قبل شن هجومه عبر القناة، حرص الجنرال بارليف على أن يكون لهذا الهجوم فرصة مقبولة لنجاح. فبخلاف شارون العنيد الواثق من نفسه، لم يقبل بما يشبه التسليم المتفسخ والفورى للمقاومة المصرية أمام أى هجوم إسرائيلى، فالمخاطر الرئيسية،

قد تعترض مرحلتين حاسمتين: الأولى.. هى أن يكون موقع العبور عرضة لهجوم مضاد من الضفة الشرقية بواسطة الجيش الثانى المصرى؛ والثانى.. عند مرحلة إقامة رأس جسر، وقبل تدعيمها، تكون عرضة لهجوم مضاد بواسطة احتياطى القيادة العامة فى القاهرة على الضفة الغربية. وقبل أن يرخى عنان فورة شارون، كان على رئيس الأركان الاسرائيلى تأمين مستوى من السرية تحسبا لهذين الاحتمالين الحاسمين. قدمت نتيجة معركة المدرعات الكبرى فى ١٤ أكتوبر للجنرال بارليف التأكيد الذى كان يسعى إليه؛ خسائر المصريين كانت ثقيلة، والجيش الثانى يركز جهوده على المعارك المحيطة به، فقد قام الإسرائيليون بعدة هجمات بالمدرعات لشغل الجيش الثانى فى هذا الاتجاه. وعند هذه المرحلة، كان الاستطلاع الأمريكى بواسطة الاستشعار من البعد أثبت ظنون المخابرات الإسرائيلية، بأن المصريين قد خفضوا من الحراسة على شاطئ البحيرات المرة الشرقية والغربية. جان الوقت لرفع اللجام عن شارون؛ من المحتمل أن كان هناك عامل، ذلك الذى جعل بارليف يتريث حتى ١٥ أكتوبر. فرغم بجاحة كلمات شارون عن القضاء على الجيش المصرى فى ٤٨ ساعة، أدرك اليعازر أنه يواجه عدوا جديدا.. يقاتل بإصرار، ويعرف كيف يستخدم المدى الذى تقدمه الأسلحة المتقدمة التى يستخدمها ضباطه بكفاءة. ومهما بلغ نجاح شارون فى إقامة رأس جسر، فلن يصمد مالم توف أمريكا بالتزاماتها بإمدادات الأسلحة والذخيرة.

وبحلول ١٥ أكتوبر، أبلغت قرارات أمريكا بتقديم كل المساعدة إلى تل أبيب، والأكثر من ذلك، علمت القيادة العليا فى إسرائيل أن قرار القوى العظمى إيقاف إطلاق النار، أصبح مستبعدا، لقد كان منطقيا افتراض أن هذا كان ضمن التخطيط لكسب الوقت.

«الثغرة فى الدفاع»

بحول ١٥ أكتوبر، ورغم عدم الإلمام بأوضاع الخمس فرق بشكل تام، فقد كان الجيش المصرى قد نفذ بشكل أساسى ما هو مخطط لقواته على الضفة الشرقية. مع ذلك فالانتكاسات التى حدثت فى اليوم السابق، أثرت بشكل مؤقت على برنامج

التقوية. في نفس الوقت، تزايد الهجمات الجوية الإسرائيلية التمهيدية «للعملية غزال». وهو الاسم الكودى لمشروع شارون الهجومى ـ بدأت فى إحداث ثغرة فى حائط صواريخ سام ٢، ٣ الدفاعية.

معنويات الجنود مازالت مرتفعة، لكن قوة رأس الجسر كانت فى حالة مؤقتة من عدم التوازن الناتج عن ضرورة إعادة التجميع والتنظيم فى الجيشين. وكان من سوء الحظ، أنه خلال هذه المرحلة الحرجة للحملة، أن ترك الجيش الثانى دون قائد. ففى ١٣ أكتوبر، تم إجلاء الفريق مأمون صابته بنوبة قلبية، وظل المكان شاغرا حتى يوم ١٥ أكتوبر عندما عين اللواء عبد المنعم خليل بديلا له. على الضفة الغربية، كان هناك اهتزاز مشئوم مر دون ملاحظة. فمن العسير أن تحصل على معلومة رسمية من المصادر المصرية تتعلق بالأسباب الرئيسية التى خلقت الثغرة فى المنطقة غرب البحيرات المرة، لكن السبب الجذرى يكمن فى حقيقة أنه بمجرد بدء العملية «بدر»، لم يعط الاهتمام الكافى للدفاع عن البحيرات المرة. كان من المقرر أن حدود التشكيل الداخلى بين الجيشين الثانى والثالث، رسمت فى منتصف البحيرة المرة الكبرى ـ ترتيب أدى بشكل حتمى إلى حالة من توزع المسئولية. هذا، ومع حقيقة أنه لم يوضع فى الاعتبار وقوع محاولة اقتحام فوق المسطح العريض للبحيرات، فالمحتمل أن نتج عنها رسم تقديرى داخلى عن وحدات من كلا الجيشين تجاه المحاور الوسطى شمال وجنوب منطقة البحيرات. وبقدر ما أمكن جمعه من معلومات، أن الجناح الأيمن للجيش الثانى، استقر على الطرف الجنوبى لامتداد القناة بين بحيرة التمساح والبحيرة المرة الكبرى (مقابل الدفر سوار)، تمركز فيها لواء من الفرقة ١٦. الجناح الأيسر للفرقة ٧ بالجيش الثالث تمركز على الشاطئ الشمالى للبحيرة المرة الصغرى. ثغرة الـ ٢٥ كم بين الاثنين، والتى كان يتعين لها داوريات منتظمة من طوابير مدرعة، تركت بدون دفاعات مناسبة، رغم أنه قد سبق إقامة نقاط مراقبة فوق بعض المراكب الراسية فى البحيرات المرة الكبرى منذ غلق القناة فى ١٩٦٧. على جبهة الوطن، الشواطئ الغربية للبحيرات، كان الدفاع عنها منوطا بلواء كويتى ولواء الحرس القومى الفلسطينى «عين جالوت». الأول مدرب بشكل جيد، ومسلح بأسلحة ومعدات حديثة، أما الفلسطينى،

فلم يكن على نفس القدر من التسليح أثناء الاشتباك،كلا اللواءان أديا ببسالة وعنف شديد، رغم الخسائر الثقيلة (قتل قائد اللواء الكويتى أثناء العملية). ورغم أنه من وجهة نظر قيادية، رقابة واتصالات القيادة المصرية العليا، يمكن توجيه النقد إليها، لقيامها بتخصيص قوات من دول عربية، وليس من نسيج وحداتها لمثل هذا القطاع الداخلى الهام. فالقدرة القتالية وحدها ليست هى التى تقرر الهدف فى مثل هذه الحالات: سرعة وكفاءة قنوات المعلومات، عند الضرورة، تعد عاملا رئيسيا. فكما حدث، الفشل فى هذا كان السبب الرئيسى للانتكاسات عندما بدأ الجنرال شارون «عملية غزال».

«العملية غزال»

أسندت قيادة القطاع الأوسط لسيناء، بعد تفجر القتال إلى الميجور جنرال آريل شارون، قائد متوهج، مارق لدرجة التهور، لكنه يمتلك جاذبية تجعل له شعبية فائقة بين قواته. فى حرب ١٩٥٦، وأثناء قيادته للواء مظليين، قاد هجوما على ممر متلا، بالمخالفة تماما لأوامره، ووقع فى كمين. ورغم أنه نجح فى وقتها، إلا أن خسائره فى هذه العملية كانت ثقيلة؛ أيضا فى ١٩٦٧، أثناء توليه قيادة قوة خاصة فى وسط سيناء، شن هجوما متسرعا غير محسوب على «أم كتاف» «قرب أبو عجيلة»، نتج عنه أيضا خسائر ثقيلة. فى ١٩٦٩، عين شارون قائدا ميدانيا عاما للقيادة الجنوبية. وأثناء توليه، انتقد علنا استراتيجية «بارليف» الدفاعية، محبذا لدور أكبر للهجوم والدفاع لقواته على القناة. وعندما تجاوزوه فى الترقى لرتبة رئاسة الأركان فى يوليو ١٩٧٣، دس أوراقه، ودخل مجال السياسة، كقائد للأحزاب اليمينية المتطرفة ـ كان استدعاء شارون للخدمة عند اندلاع الحرب، السبب الرئيسى للمشاحنة بين الجنرالات، والتى وصفت بأنها ازدراء وعصيان لقائده الأعلى؛ بل لم يحاول تدارك مواقفه بمسلكه خلال العمليات فى المعارك المبدئية فى القطاع الأوسط؛ فمن البداية انتقد علنا استراتيجية بارليف بإعطاء الأولوية للجبهة السورية، بدلا فى ذلك، الحض على شن هجوم فورى ضد رأس الجسر المصرى، قبل أن يتمكنوا فى التمركز؛ أكثر من هذا، الهجوم المضاد بالضرية الإجهاضية التى قام بها «الكولونيل ياجورى» وقوته الخاصة، تم القيام بها بناء على أوامره، والتى أعقبتها معركة ضد المدرعات المصرية، اضطر معها إلى التقهقر

بسرعة وترك مقر قيادته لتقتحمها القوات المصرية. لذا، لم يكن مستغربا بعد كل هذه النكسات ـ أن تكون لشارون مكانة مرموقة. كان لدى الجنرال بارليف سبب قوى لتردده في السماح له «بالعملية غزال». المهم، أنه في ١٤ أكتوبر، كان الوضع فيما يتعلق بميزان القوى قد تغير بشكل ملموس، الفريق اسماعيل، أثناء إعداده للهجوم الكبير، كان قد حرك معظم الفرقة ٢١ المدرعة من موقع الاحتياطى على الضفة الغربية، إلى الخط الأمامي عبر القناة. وفي مساء هذا اليوم المشهود، بدا أنه سيدعم الضفة الشرقية بمزيد من المدرعات لتعويض خسائر هذا اليوم؛ أعطى هذا الفرصة الأكبر لإنجاح شارون في تنفيذ عملياته. لهذا، في النهاية، في صباح ١٥ أكتوبر، أعطى شارون الإذن لعبور القناة. أثناء توليه القيادة الميدانية الجنوبية، كانت لديه الفرصة الرحبة في التخطيط والإعداد لمأموريته، فقد اختار مسبقا الموقع الذى سيعبر منه ـ مسطح القناة الواقع في شمال الطرف الشمالي للبحيرة المرة الكبرى.. وللصدفة المذهلة، لم يقع هذا الموقع في قلب «الثغرة» في الدفاع المصرى على الضفة الغربية، لكنه وقع في إحدى المناطق حيث أقيم الساتر الرملي الإسرائيلي لدفاعات خط بارليف بعمق ٥٠ مترا، من رمال خشنة متماسكة، غير قابلة لتقليبها. لقد وجد المصريون أن عملية إهالة الرمال عند هذه النقطة من الصعوبة حتى إنهم تركوها إلى موقع آخر. مالم يعرفوه، أنه أثناء تقدم قوات شارون من بضع سنوا ت مضت، قلل من اتساع الساتر عند نقطة معينة، وضع علامة على «المدخل»، بغرس طوب أحمر في الرمال، بل ومهدمدقا في الصحراء لتجميع المركبات: ولتغذية هذا المدق، أقيم طريق من «طاسا» مواز من الشمال إلى الجنوب على امتداد القناة، ثم إلى ضفة القناة نفسها. واضح أن المصريين فاتتهم دلالات هذه التجهيزات عندما احتلوا هذه المنطقة مؤخرا.

بعد تولى شارون قيادة القطاع في ٩ أكتوبر، أرسل داوريات في هذه المنطقة، بل وعبر القناة لاستكشاف الدفاعات المصرية. وقوات وحداتها، فتأكد منذ البداية أن المنطقة غير محمية كما يجب، وأن عملية الاختراق نفسها لا تشكل صعوبة كبيرة، وقد تكون المشكلة الرئيسية هى نقل قواته من «طاسا» مرورا بالقوات المصرية معتليا طريق طاسا ـ البحيرة المرة الكبرى، هابطا إلى ضفة القناة، دون أن ينكشف، وفي نفس

الليلة، يعبر،ثم يقيم قنطرة، ثم يعزز رأس جسره. حسب ما ذكر «الفريق الميدانى للصن داى تايمز»، أن هدف العملية فى هذه المرحلة محدد بالاستحواذ على بعض الأراضى على الضفة الغربية (كوسيلة للتأثير والضغط فى المفاوضات التى ستجرى قبل فرض وقف لإطلاق النار). وعلى أحسن الفروض، إذا تمكنت قوات شارون من السيطرة على الطريق الواصل لميناء السويس على الضفة الغربية، فسيتمكن من احتواء بل وفصل قوات الجيش الثالث على الضفة الشرقية.

تألفت قوات الجنرال شارون للقيام بالعملية «غزال» من الآتى:-

قيادة القوة فى طاسا:-

- قوة خاصة، مكونة من مظليين، قوات مدرعة ومجموعات مهندسين بقيادة الجنرال آدان - تلك هى القوة التى ستقوم بالعبور.

- ثلاث مجموعات مدرعة، كل منها من كتيبتين قويتين، ومدعومة بالمشاة ومن حوالى ٩٠ إلى ١٠٠ دبابة لكل مجموعة.

- لواء مدفعية، تشمل بطاريات ثقيلة ذاتية التعمير.

خطة العملية «غزال» هى كما يلى:-

المرحلة الأولى: لواء مدرع، عليه القيام بهجوم مخادع فى شمال «طاسا» نحو خطوط دفاع الجيش الثانى نحو الغرب.

المرحلة الثانية: مجموعتان مدرعتان تقومان بالالتفاف على الواسع إلى الجنوب، مخترقة الصحراء، ثم الاتجاه نحو ثغرة فى الدفاع المصرى، وبعد ضرب الطريق شرق القناة، تتحول تجاه الشمال.

المرحلة الثالثة: عند ملتقى الطرق جنوب مكان العبور، يتحول لواء إلى الغرب لتأمين موقع العبور، بينما يواصل الباقون التقدم نحو الشمال لحصار الجيش الثانى ودفعه للخلف ولأقصى شمال الطريق المثلث بقدر الإمكان. إحدى وحدات اللواء الثانى، ستتقدم تجاه الشمال الشرقى على طريق «طاسا» لاصطياد الطلائع المصرية المعتلية للطريق، ولإبقائه مفتوحا للقوة العابرة حتى تتحرك نزولا للقناة.

المرحلةالرابعة: الهجوم العابر للقناة بواسطة قوات الجنرال آدان.

توقيتات البرنامج: ـ

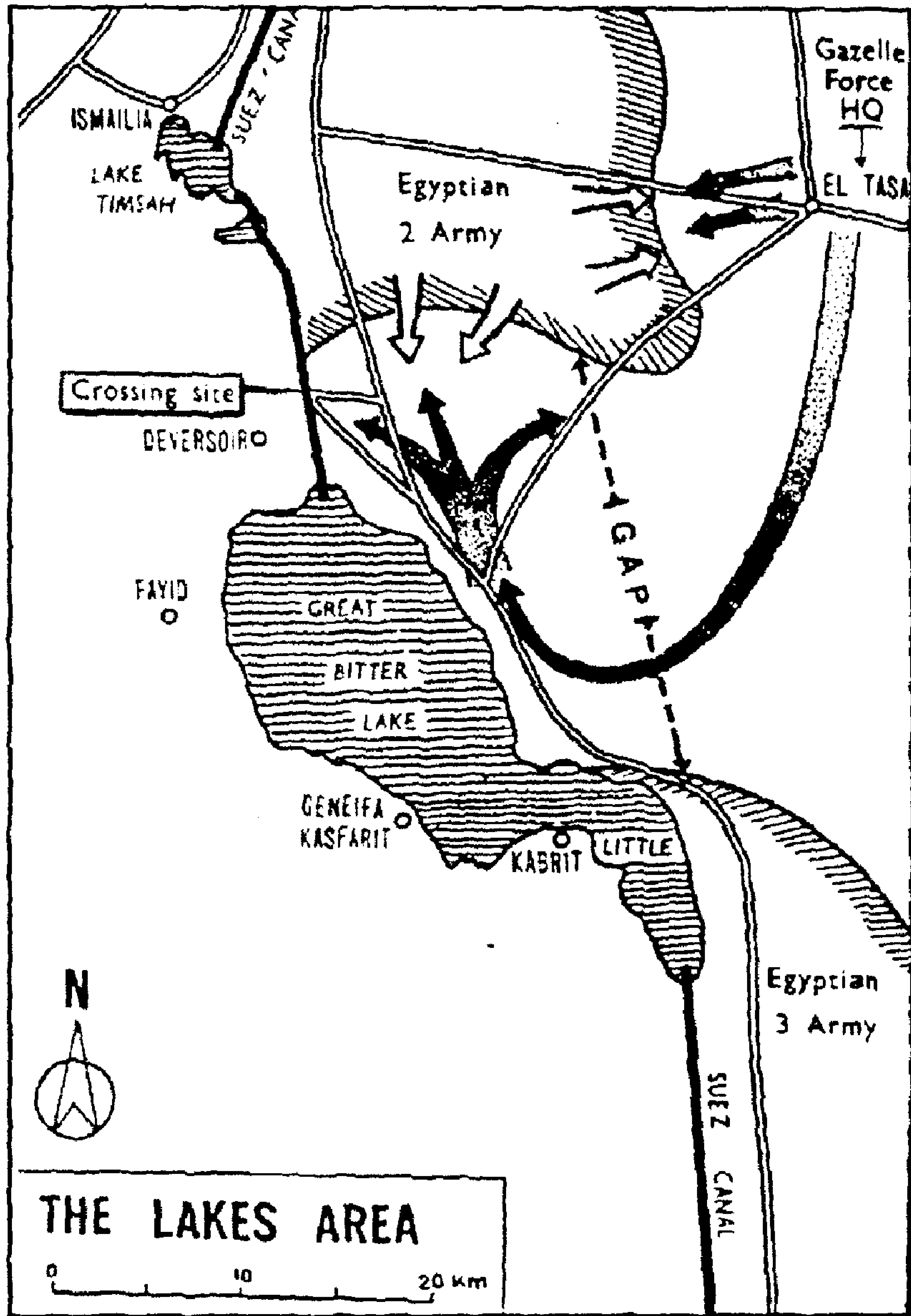
الطور الأول: يبدأ الساعة ـ ,٥ بعد الظهر

الطور الثانى : يبدأ الساعة ـ ,٦ بعد الظهر

الطور الرابع: يبدأ الساعة ـ ,١١ مساء

من الضرورى أن تعقيدات الخطة، وأن واقع الأمر، أن يتم تنفيذها أثناء ساعات الظلام، فمسيرة الـ ٣٠كم الليلية، فى كثبان رملية، كما فى الطور الثانى، قد تكون أكثرها صعوبة، حتى لو لم تصادف أى معارضة محتملة فى «الثغرة». انطلقت المرحلة الأولى فى تمام الخامسة مساء ١٥ أكتوبر، وتطلبت المعركة أثناء سدول الظلام، سحب احتياطى المدرعات المصرية تجاه «طاسا» كما سبق التوقع. وتحت ستار هذا التموية، بدأت المرحلة الثانية فى الانطلاق، وبلغت طريق القناة قرب الطرف الجنوبى للبحيرة المرة الكبرى، حيث تحول الطابور شمالا على الطريق تجاه الطريق المثلث، هنا تفرقت الألوية طبقا للخطة، رغم أنها تجاوزت وقتها المحدد. اللواء المهاجم تجاه الشمال للطريق المثلث، تعرض لنيران مصرية ثقيلة لعدة كيلومترات، أعقبتها معركة مريرة دارت لأكثر من يومين. ورغم أن القوة الشرقية المتاخمة نجحت فى الاختراق، وفتحت الطريق إلى «طاسا»، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه القوة العابرة التوجه جنوبا من «طاسا»؛ كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل وبحوالى ساعتين عن الوقت المحدد. بزغ القمر بعد ذلك مباشرة، وعندها تنبه المصريون، وليس أمامهم سوى فرصة ضئيلة للاندفاع بسرعة جنوبا للقناة. الساعة ـ ,١ صباحا، كان الجنرال شارون عند ضفة القناة، ومعه قياداته التكتيكية ومجموعة من حوالى ٢٠٠ رجل.

عندما وجد أن مجموعة العبور لم تصل بعد إلى موقعها، اختار هو ـ بطبيعته المتباهية ـ القيام بالعبور عنوة بمجموعتة الصغيرة، مجدفا بنفسه قاربا مطاطيا، ومقيما مقر قيادته على الضفة الغربية. حدثت دربكة قتالية فى مؤخرته، عندما اقتحمت مجموعة مشاة وصواريخ مصرية طريقها إلى منطقة الطريق المثلث. انهارت القنابل على



(كروكى خريطة العملية غزال)

المنطقة بأكملها، ودارت المعارك على امتداد قوس الخط المصرى من ضفة القناة، حتى جبهة «طاسا». تعثرت حركة عربات المهندسين الحاملة للطوافات والصنادل أسفل طريق «طاسا» بشكل واضح، وحتى الفجر، لم تكن قد بلغت موقع العبور. لم تبدأ عمليات التسطيح، وبالتالي لم يستكمل إتمام الكوبرى؛ فقط فى الساعة ـ٩,٠ صباح يوم ١٦ أكتوبر، أن تمكنت الموجة الأولى المكونة فى حوالى ٣٠ دبابة وألفين من المظليين والمشاة من العبور والانضمام لقوة الجنرال شارون الهزيلة على الضفة الغربية. طبقا لأى حسابات شكلية، قد تعتبر العملية «غزال» فى حكم الفاشلة. ففى صباح اليوم بعد المحدد للبدء، لم يكن هناك كوبرى، وبالكاد رأس جسر، وبدلا من فرقة عبر القناة، كانت هناك جماعة صغيرة أقل من لواء، تلك التى تمكنت من العبور. الأكثر من ذلك، كان هناك بعض الدمار الذى لحق بمعدات الكوبرى نتيجة ضرب المدفعية، لذا، حتى حلول هذه الليلة أن أمكن إقامة كوبرى. أى هجوم مضاد، بأقل قوة من احتياطى الضفة الغربية، وفى أى توقيت فى يوم ١٦ أكتوبر، كان يمكنه سحق رأس جسر الجنرال شارون، لكن كان نجمه ساطعا فى هذا اليوم، لأنه. وللغرابة ـ لم يكن هناك أى رد فعل نهائيا من القوات المصرية على الضفة الغربية ـ

كان الجزال شارون، مدركا أن قوته الضئيلة لاقيمة لها فى حالة أى هجوم مضاد، بله التمركز والحفر استعدادا لمعركة دفاعية لا يقدر على كسبها، فأمر مجموعته لتنقسم إلى مجموعات صغيرة، من دبابتين إلى ثلاث لكل، مدعومة بالمشاة والمظليين، والانطلاق على شكل جماعات إغارة. بهذه الوسيلة، أعلن أنه دمر ٦ قواعد صواريخ سام ، وبهذا فتح ثغرة فى الدفاع الجوى فوق المنطقة، ثم استخدامها لاحقا بواسطة الطيران الإسرائيلى لدعم رأس الجسر عندما تعرض للهجوم المضادر الثقل فى اليوم التالى. ورغم القتال الثقيل والمربك فى الليلة السابقة، والغارات على مواقع صواريخ سام فى هذا الصباح، لم تكن قيادة الجيش الثانى مدركة بوضوح أن هناك عملية عبور بدئ فيها، أو، إذا كانوا مدركين لما يحدث، فقد فشلوا فى إخطار القيادة العامة أو تشكيل جناح الجيش الثالث. وبالنسبة للفريق اسماعيل، فقد قرر أنه لم يعرف شيئا عن هذه النشاطات، حتى ظهر يوم ١٦ أكتوبر، وحتى هنا، فقد قيل له إنها مجرد قوة صغيرة من ٧ دبابات تلك التى عبرت القناة. من العسير إدراك كيف استطاعت

«العملية غزال» إنجاح هذه المفاجأة الكاملة؛ وبعدا عن حقيقة أن مواصلة التقدم قد توقفت، إلا أن القيادة العامة فى القاهرة، كانت بالتأكيد واعية بهذا التهديد المحتمل. ففى الحقيقة أن الإسرائيليين القوا القبض على ضابط مخابرات حديث من الجيش الثانى، كان يحمل بداخله مشروعا عن كيف يستطيع الإسرائيليون محاولة عبور القناة من هذه المنطقة، فقد تطابقت مع خطة شارون التى نفذها.

كان فى الواضح أن قوات الاتصال بين القوات المتقدمة والمؤخرة والتى تتم من خلال قيادة التشكيلات إلى القيادة العامة، لم تكن بالقدر الكافى من السلاسة والكفاءة الواجبة. أن جيشا، كالجيش المصرى الذى مكث لمدة ٦ سنوات، ظل فيها معتادا لأوضاع قتالية دفاعية ثابتة ومرهقة، لخليق بأن يتخذ الأسلوب المكتبى فى أجهزته؛ التقارير ترسل كتابة، بدلا من تلفنتها أو تحمل بواسطة مراسلين. تقديرات المخابرت تناقش فى لجان محددة اجتماعاتها سلفا، بدلا من العمل على مدار الساعة التى تتطلبها شئون الحرب. احتمال أن يكون هذا هو ما عاب جهاز المخابرات فى منطقة القناة.

هناك نقد لهيمنة القيادة المصرية وتصرفاتها الشكلية الزائدة عن اللازم. الرتبة والأقدمية وقفت حائلابين التغييرات غير الشكلية. الفريق اسماعيل قاد العمليات من غرفة عملياته المحكمة تحت الأرض خارج القاهرة، وقيل أنه دخل هذا الموقع الحصين فى ٢ أكتوبر ولم يتركه حتى يوم ١٦ أكتوبر، عندما كان مقررا أن يشهد اجتماع المؤتمر القومى؛ فإذا ما اتبع جميع القادة والأجهزة مثل هذا الروتين، فيمكن للفرد أن يتخيل كيف تصبح مبادرات القيادة مغيبة وميكانيكية. يفسر هذا السبب عند تغير الأوضاع. مثل هذه العوامل الجوهرية، كمثال للمسئولية ولمبادرات قادة التشكيلات الأدنى شُلت. إذ ليس سوى استمرار التزاور من القادة وضباط الأركان للتشكيلات الأعلى والأدنى حتى تتحرك بيسر، ويسهل التعامل معها. رد الفعل للهجوم الإسرائيلى كان بطيئا وبالقطعة. فى البداية، كتيبة فدائيين من بلبيس نقلت بالهليكوبتر، لكن هذه القوة، رغم دعمها بتمشيط ثقيل بطائرات الميج المصرية، اتضح أنها غير مناسبة. هجوم مضاد أكثر إعدادا من الضفة الغربية، يوجه ضد رأس الجسر، لم يمكن القيام

به، لأن معظم احتياطى الجيش الثانى أرسل عبر القناة إلى الضفة الشرقية. وحتى ليلة ١٧/١٦ أكتوبر أن تمكن الجيش المصرى القيام بهجوم مضاد من الضفة الشرقية، ورغم تأخر هذا الهجوم إلا أنه كاد ينجح فى قطع موقع العبور. قوة مشاة مصرية، ظلت متماسكة فى منطقة الطريق المثلث، وبحلول الظلام فى ١٦ أكتوبر شن الجيش الثانى هجوما من الشمال، بينما أرسل الجيش الثالث قوة على امتداد الشواطئ الشرقية للبحيرات، لنجدة قوة المشاة، معارك الدبابات استمرت طوال الليل. لا توجد نتيجة حاسمة ممكنة فى هذا القتال المتلاحم فى الظلام. إلا أن المصريين نجحوا بالفعل فى منع الإسرائيليين من إقامة كوبرى فوق القناة. قاست عربات المهندسين من صعوبات فائقة فى محاولة التسلل من خلال أرض المعركة إلى ضفة القناة؛ فبالإمكان تدعيم رأس الجسر بعبور دبابات وأفراد، وهذا أيضا تحت نيران مدفعية ثقيلة، التى تستطيع إنزال كم كثيف من الخسائر. ظلت المعركة دائرة حتى الفجر، جاءت الطائرات المصرية بقوة فى الصباح. (بنهاية المعركة قامت ب١٥٠٠ طلعة لدعم القوات الأرضية)، ورغم ذلك، فالطيران الإسرائيلى - مستغلا الثغرة التى فتحها العمل البطولى لمجموعة شارون، بتدمير غطاء الصواريخ على الضفة الغربية، وسيطروا تدريجيا على سماء رأس الجسر. تحولت الأوضاع بقوة لصالح الإسرائيليين، فالمشاة المصريون المتمسكون بمواقعهم على طريق المتقدم، أمكن إجبارهم على التراجع. وأخيرا أمكن توصيل معدات الكوبرى العائم إلى جوار المياه. واصلت نيران المدفعية والضربات الجوية مضايقة المهندسين، إلا أنه بمرور بعد ظهر يوم ١٧ أكتوبر قام الكوبرى فى المكان المحدد له، وبدأت القوات الخاصة للجنرال آدان فى التقاطر نحو الضفة الغربية. الفريق خليل، الذى تولى قيادة الجيش الثانى مؤخرا، قام بهجوم مضادر على رأس الجسر مساء يوم الأربعاء، لكنه لم يحشد مدرعات كافية لها تأثير، ولم يكن حتى ١٨ أكتوبر أن تقرر سحب بعض المدرعات من الضفة الشرقية، لكن عند ذلك، كانت قوة آدان قد سبقت وأطلقت عنانها. بسرعة قام آدان بإعادة تشكيل قواته من ثلاثة أو أربعة طوابير من المدرعات والمظليين؛ اللواء ١٤ بقيادة الكولونيل راشف، اندفع شمالا نحو الإسماعيلية. طابور آخر استدار جنوبا نحو ميناء السويس معتليا طريق شرق القناة، فى الوقت الذى قامت

فيه قوة أصغر بالانطلاق غربا عبر الصحراء تجاه القاهرة. الهدف الرئيسى كان تدمير قواعد صواريخ سام وأى تركيبات أخرى، ثم الاندفاع إلى مسافات خالية لإعلان مناطق «محتلة».

من العسير أن نعيد تقييم الهدف من العمليات التى نفذتها القوات المعادية بعد ١٩ أكتوبر، بسبب الادعاءات والادعاءات المضادة التى أطلقها الجانبان والمتعلقة بانتهاك قرار وقف إطلاق النار الأول. فقوات الدفاع الإسرائيلية فى وضع غير مأمون أمام فرق قوية عبر القناة، وأن خط الحياة أصبح مهددا بالقوات المصرية على الضفة الشرقية. وضعهم هذا أمام اختيارات متعارضة: تدعيم رأس الجسر بكل الإمكانيات من الضفة الشرقية، قبل أن يجعل التهديد المصرى موقفهم لا يمكن التمسك به، واستغلال النجاح السريع قبل انصرام الوقت. التطورات التى تلت ذلك، دلت على أن القيادة العليا الإسرائيلية على علم بأن الرئيس المصرى وافق مبدئيا على وفق النار، فانتهزت الفرصة المتاحة بهذا التطور لتوفيق متطلبات الصراع؛ فحتى سريان وقف النار الأول، كان الغرض الأساس للعمليات موجها ضد الجيش الثانى على ضفتى القناة، إلا أنه بعد سريان وقف النار مساء يوم ٢٢ أكتوبر أن جازف باندفاعة كبيرة اتجهت جنوبا بهدف اختراق مؤخرة الجيش الثالث متجهة إلى ميناء السويس. فى ٢٢ أكتوبر، أعلنت الإذاعة الإسرائيلية المحلية هذه النشرة: ـ فى هذه اللحظة، ورد تقرير فى منطقة القناة من مراسلنا إيزاك فيللر: فى الساعة ١٨,٥٢ (وقت بدء سريان وقف النار) لم يوقف المصريون النار هنا فى القطاع الأوسط ـ الساعة الآن ١٩,٠٥ ومازال المصريون يواصلون إطلاق مدافعهم المضادة للطائرات وطلقات المورتار ـ وفى بضع دقائق تسلمنا تقارير جبهة القناة، دعونا نستمع إليه: هذا اسرائيل كارتين فى سيناء، الساعة ١٩,١٢، وعلى امتداد البصر والسمع، القطاع الأوسط للقناة يكتنفه الهدوء. حتى الآن لم ترد ولاكلمة من القادة، لكن يبدو لى أن عدم سماع شئ، هو علامة طيبة، منذ سماعنا عن المعركة الشرسة خلال الساعات القليلة الماضية، والآن، الجو المحيط بنا هادئ تماما، وإذا لم نسمع خلاف ذلك من أى من القادة، عندئذ يكون قد بدأ تنفيذ قرار وقف النار؛ جميع تقارير المراسلين الإسرائيليين على الجبهة الجنوبية تضمنت: أنه فى منطقة

الدفرسوار الهامة، كان هناك بعض طلقات مدفعية من الجانب المصرى بعد وقف إطلاق النار، لكن لم يكن هناك هجوم مضاد مصرى، أو أى تحركات للقوات. بالرجوع إلى السوابق، تشير كل الدلائل إلى حقيقة أن المصريين التزموا بوقف النار، أما الأمر بتركيز النيران المدفعية، فكان إجراء دفاعيا محسوبا ضد التجاوزات الإسرائيلية المستمرة.

وفى بواكير اليوم أذاع الفريق اسماعيل من القاهرة لقواته: ـ «أصدر القائد الأعلى للقوات المسلحة، أمرا يتضمن وقفا لإطلاق النار فى تمام الساعة ١٨,٥٢ اليوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ حسب توقيت القاهرة، إذا التزم العدو بتنفيذ وقف إطلاق النار فى هذا التوقيت. وفى هذه اللحظات، وأنا أقف بكل إعجاب واحترام واخلاص لشهدائنا وزملائنا الجرحى، أوجه الشكر لجميع أفراد القوات المسلحة.. للجهود والدماء التى ضحوا بها.. وفى نفس الوقت آمر كل فرد باتخاذ كافة أسباب السلامة والحيطة لوحداتهم تجاه العدو، التشكيلات العسكرية يجب أن تبدأ فورا فى إعادة تنظيم وحداتها حيث تقف».

لم يكن ذلك بالنسبة للقوات الإسرائيلية ـ الذين كانت الأوامر التى جاءتهم من تل ابيب من نوعية مختلفة ـ فأثناء ليلة ٢٣/٢٢ أكتوبر، الليلة التى تلت وقف إطلاق النار، قام الجيش بهجوم متعمد جنوبا تجاه ميناء السويس، كما دفع بقوات أخرى عبر القناة لدعم رأس جسر الدفرسوار. أعلن المصريون أنه فى نفس الليلة عبرت قوة كوماندو خليج السويس حتى المرتفعات المطلة على الأدبية، وبهذا أقامت حصارا فى جهتين. احتدم القتال مرة أخرى فى يوم ٢٣؛ المصريون وقد شعروا أن الإسرائيليين قد غرورا بهم، شنوا هجمات مضادة عديدة، شاركت فيها قوات الطيران بطلعات عديدة ـ لكن الضرر كان قدوقع ـ فهم قد التزموا بقرار وقف النار الذى فرض بدون ميكنة تسانده ـ كمراقبين محايدين أو قوة دولية، فكان عليهم أن يدفعوا ثمن استسلامهم للخديعة وفى الوقت الذى سرى فيه قرار وقف إطلاق النار الثانى فى ٢٤ أكتوبر، وهذه المرة مدعوما بقوة من الأمم المتحدة، كانت ميناء السويس منفصلة وجيش مصر الثالث معزولا على الضفة الشرقية.

الفصل العاشر

وقف إطلاق النار

كان ظاهرا من بداية الصراع في غرب آسيا، أن اهتمامات القوى العظمى سوف تهيمن باتساع ميدان القتال، لم يرغب أحد في الحرب، ما عدا الروس. فبمجرد قيام العرب بالهجوم، كان لزاما عليهم تقديم الدعم الكامل ماديا وسياسيا؛ ففي خلال ثلاثة أيام من بدء الحرب، كانت عملية نقل جوي ضخمة، تأخذ طريقها إلى سوريا بالذات. في نفس الوقت، كان القادة الروس يشعرون بخطورة فرضية تواري الصراع في غرب آسيا. أما بالنسبة للأمريكيين، فقد أخذوا عدة أيام أطول لتقرير مدى التزامهم نحو إسرائيل، أساسا، لأن الدكتور كيسنجر تردد في إعطاء إسرائيل دعما غير مدروس وغير كاف. فقد سبق أن أقنع الرئيس نيكسون أن هناك «مشكلتين رئيسيتين»: الأولى، بإنهاء الصراعات بأسرع ما يمكن؛ والثانية، إنهاء الصراعات بطريقة تساعدنا على تقديم مساهمة رئيسية لإزالة الظروف التي نتجت عنها أربع حروب بين العرب والإسرائيليين في الخمس والعشرين سنة الأخيرة. في الحقيقة كانت وجهة النظر الأمريكية أنه من الأفضل أن يقاسي الإسرائيليون من هزيمة محدودة، تكون كافية لتقليص غرورهم، وتجعلهم أكثر استجابة للتفاوض على الأراضي المحتلة، وتكون كافية لإرضاء العرب، لكن ليس بالقدر الذي يسمح بادعاء نصر لموسكو أو لإسقاط حكومة المسزمائير. لهذه الأسباب بدت الاستجابة الأمريكية لطلب إسرائيل أسلحة حديثة «سلبية». وللحقيقة، شعر كيسنجر يقينا أن إسرائيل قد تكسب الحرب.. حيث اعترف للرئيس السادات مؤخرا: «عندما سمعت بقيامكم بالهجوم، قلت لنفسي: مساكين العرب، سينالون أنفا داميا مرة أخرى، وهذا سيسبب ابتعادا أكثر عن الأمل في السلام».

في هذا الوقت، كان الدكتور كيسنجر يحض على أن يكون وقف النار على أساس العودة إلى خط ١٩٦٧، وهو عرض بدا سخيفا للعرب. حقيقة، أنه عندما عرض السفير البريطاني في القاهرة، على الرئيس السادات التحرك من خلال مجلس الأمن لإصدار قرار بوقف إطلاق النار على هذه الأسس، استشاط الأخير غضبا، ورفض مجرد بحث مثل

هذا الاقتراح. وبقدر ما هو على قناعة، فالأساس المقبول والوحيد لوقف النار.. هو القرار ٢٤٢ القاضى بالانسحاب الإسرائيلى من الأراضى المحتلة. لم يكن حتى اليوم الرابع للحرب ٩ أكتوبر، أن بدأ سيل المعلومات الموثقة يشير إلى نجاح العرب، أن يسبب نذيرا لواشنطن. فى نفس الوقت، تقارير مبالغ فيها عن الإمدادات الروسية للعرب، والتحريض السافر للمستر بريجنيف للدول العربية الأخرى، مثل العراق والجزائر، للذهاب لمعاونة مصر وسوريا، الأمر الذى قدم الدعم للوبى اليهودى الأمريكى، الذى يمثله فى واشنطن السيناتور جافيس فى نيويورك، والذى كان يمارس ضغطا على البيت الأبيض لتجيز نقل الأسلحة جوا. أجيزت عمليات النقل الجوى للسلاح الأمريكى من الرئيس الأمريكى فى ٩ أكتوبر، وبعدها مباشرة، تحسنت أوضاع إسرائيل العسكرية بشكل ملحوظ: بحلول ١١ أكتوبر، كان قد تم رد السوريين عبر خط وقف إطلاق النار فى ١٩٦٧؛ أما على جبهة قناة السويس، بدا واضحا أن المصريين لن يقوموا بشن هجوم كبير فى صحراء سيناء. هذا، رغم أن الدكتور كيسنجر كان على ثقة بأنه قادر على إقناع المسزمانير بالموافقة على وقف فورى لإطلاق النار، حيث سبق أن أكد له السفير الروسى فى واشنطن أنه بالإمكان إقناع الرئيس السادات بالموافقة على وقف النار بنفس الشروط.

فى ١٢ أكتوبر، اقترح الدكتور كيسنجر على بريطانيا أن تتقدم لمجلس الأمن باقتراح لوقف إطلاق النار، وستدعمه أمريكا وروسيا؛ ترددت بريطانيا بسبب السفير البريطانى فى القاهرة، أن أشار بوضوح أن الرئيس السادات معرض عن مجاراة مثل هذا الاقتراح، فقد قابل الرئيس مرة ثانية وقتها، ولم يكن هناك أى تغيير فى تصميم الأخير بعدم مناقشة أى اقتراح لوقف النار إلا بناء على تسوية طويلة قائمة على أساس القرار ٢٤٢. رغم هذا كان الدكتور كيسنجر مصمما؛ وقامت الحكومة البريطانية بطلب السفير لكى يتقدم للرئيس السادات مرة أخرى؛ كان الرد كما هو: «لا» حازمة. ولعدم رغبتها تعريض علاقتها بمصر للخطر، رفضت الحكومة البريطانية خطة كيسنجر باعتبارها غير عملية. بحلول ١٤ أكتوبر، كانت الأوضاع العسكرية فى إسرائيل سببا فى هم محزن؛ فبرغم تهدئة الجبهة السورية، وتحسن الصورة استراتيجيا، كانت المعركة الكبرى فى سيناء (١٤ أكتوبر) التى جعلت القيادة الإسرائيلية العليا، تعرف مقدما كيف أن عامل المصابرة، يؤثر على إسرائيل فى حالة قيام معارك على نفس المستوى. النقل الجوى الأمريكى بدأ فى الوصول، إلا أن

حالة المخزون الملائم لكل أنواع الذخيرة لم يتحسن بشكل مناسب، فمعدل الاستهلاك مستمر فى تجاوز معدل الإحلال.

بمواجهة هذه الصعوبات، غيرت المسزمائير شروطها المبكرة لوقف النار؛ ففى مساء هذا اليوم، توجهت إلى التليفزيون لتعلن رغبتها فى التوجه إلى مائدة المؤتمر «خلال دقائق» من تقديم عرض عربى لوقف النار الفورى فى المكان؛رغم هذا ازدرت مصر العرض متجاهلة نصيحة روسيا لقبوله، حيث مازال العرب يمتلكون الميزة المتفوقة العسكرية فى الحرب. بالنسبة للقوى العظمى، فقد حان الوقت لفرض وقف إطلاق للنار، قبل أن تتعرض مصالحهم للخطر، فيجب أن يقوموا بعمل ما لإيقاف القتال خلال الثلاثة أو الأربعة أيام القادمة. أدركت الحكومة الإسرائيلية ذلك بشكل أكثر من جيد؛ ومن المحتمل أن هذا كان أحد العوامل التى جعلتها تقرر إعطاء الجنرال شارون الضوء الأخضر للقيام بمغامرته عبر القناة. عندئذ، وفى ١٦ أكتوبر، تلقت المسزمائير أخبار نجاح الجنرال شارون. لقد أصبحت الآن فى وضع أقوى عند التفاوض على وقف النار، عن ذلك الذى اتخذته قبل يومين. فى خطابها للكنيست- البرلمان الإسرائيلى- ذكرت المسزمائير التصورات عن وقف النار التى نشرت فى صحافة العالم وفى الأمم المتحدة، لكنها أكدت أن «لم يحدث أن قدم للحكومة الإسرائيلية أية عروض ما من أى قائد سياسى ما». فى نفس الوقت تهجت بعناية للبرلمان، انطباع الحكومة فى حالة مثل هذا التقدم: «المصريون والسوريون، لم يتم ضربهم بشكل كاف حتى نبدى رغبتنا فى وقف للنار. فالبيانات السخيفة هنا وهناك أعلنها رجال دولة عرب، بأمل فرض وقف إطلاق نار مشروط بالإنسحاب إلى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧ ... أنا على ثقة أنه عندما ننجح فى دفع أعدائنا إلى حافة الانهيار، لن يكون الممثلون فى مختلف الدول فى حالة تسمح بتطوعهم لنجدة هؤلاء الذين هاجمونا بحجة وقف للنار.

استطردت المسزمائير بشكر الأمريكيين لدعمهم، وتكلمت عن شجاعة الشعب الإسرائيلى، وضغطت على أن أى مفاوضات طارئة لوقف النار يجب أن تتضمن طلب عودة الأسرى الإسرائيليين، ثم كشفت لأعضاء البرلمان السبب فى موقفها المناوىء:- «فى هذه اللحظة بالذات، تقوم إحدى وحدات قوات الدفاع الإسرائيلية بالعمل على الضفة الغربية للقناة».

وفى وقت مبكر من نفس اليوم، شرح الرئيس السادات لأعضاء المجلس القومى المصرى شروطه لوقف إطلاق النار، أهم ما فيها، قال «إن على العرب التمسك بضرورة عودة جميع الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى ١٩٦٧، والإعتراف بحقوق الفلسطينيين، وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة فى هذا الموضوع. عند الاستجابة لهذه الشروط، فقط يمكن للعرب أن يعدوا أنفسهم لمؤتمر سلام عالمى لتسوية عربية إسرائيلية. ثم واصل الحديث مشددا على أن ليس للعرب نية لتدمير إسرائيل، وفى نفس الوقت، أنهم ليسوا مستعدين لقبول وعود غير محددة، تكون عرضة لتفسيرات مختلفة، «لقد أردنا، ومازلنا نريد العدالة، لا الحرب». فى نفس اليوم، وصل المستركوسيجين إلى القاهرة، فى زيارة تستغرق ثلاثة أيام، الغرض الرئيسى منها، هو إقناع الرئيس المصرى بالموافقة على وقف النار. كان هذا نفس اليوم الذى أقام فيه الجنرال شارون رأس جسره على الضفة الغربية. ورغم عدم معرفة الرئيس السادات بمدى الاختراق الإسرائيلى، فإن رئيس الوزراء السوفيتى كان لديه معلومات دقيقة من مصادر مخابراته: فقد ذكر ذلك فى نفس الليلة، فبينما كانا يتحدثان فى الساعات المبكرة فى السفارة الروسية، وصلت الصور الفوتوغرافية لرأس الجسر بواسطة القمر الصناعى كوزموس، أحضرها الملحق العسكرى الروسى، الذى شرح للرئيس مدى قوة عملية الاختراق، التى قام بها الجنرال شارون فى هذا القطاع غير المسيطر عليه كما يجب من الدفاعات المصرية. من الصعب تحديد متى أدرك الرئيس المصرى الحالة المتردية فى قطاع البحيرات المرة. فحتى يوم ١٦ أكتوبر، كان على قناعة بأن قواته فائزة بالحرب، عسكريا وسياسيا. حقيقة أن هجوم ١٤ أكتوبر لم يكلل بالنجاح، لكن الإسرائيليين كانوا فى وضع دفاعى فى صحراء سيناء، وأن رأس الجسر على الضفة الشرقية بدا مؤمناً بكفاءة. لم يكن معهوداً من الرئيس السوفيتى أن يثقل على الرئيس السادات لإثنائه. فقد كان عسيرا عليه قبول حقيقة أن العدو قد قلب الطاولة عليه، فعبر القناة، وأصبح مهددا ليس مدينة الإسماعيلية وميناء السويس، بل باحتمال التقدم صوب القاهرة. وبالنسبة للمخابرات الأمريكية، أن الإسرائيليين أنفسهم ذهلوا من حجم النجاح الذى حققوه. هذا ما أكده الجنرال شارون لاحقا- فما بدأ كغارة جريئة أو استطلاع بالقوة.، تحول فجأة بقوة الدفع والمناورة إلى هجوم متعدد الشعب، ضد دفاعات منطقة القناة المصرية. وأثناء تدافع الجماعات المغيرة فى رأس جسر الدفرسوار، أدركت الحكومة

الإسرائيلية أن لديها الآن الفرصة لقلب الميزان العسكرى دراميًا لصالحها؛ فهجوم الجنرال شارون، كان «بالكاد عملية إجرائية»، إلا أنها فتحت الطريق أمام إحراز نصر كبير يعطيه اليد العليا في حالة مفاوضات دبلوماسية. فقبل ثلاثة أيام. في ١٣ أكتوبر كان الدكتور كيسنجر يضغط على المستر أبا إيبان، وزير الخارجية الإسرائيلية ليوافق علي «تنازل هام» عند التفاوض على وقف إطلاق النار، وبالتحديد انسحاب مرحلى إسرائيلى في سيناء، بداية حتى خط الممرات، يليه بعد ذلك، وحتى أبعد من ذلك، أن تكون المنطقة بينهما تصبح منزوعة السلاح. كان هناك بعض المشاورات بين الروس والأمريكيين، عن من الذى سيقوم بضبط المنطقة المنزوعة السلاح. عموما، بمرور الوقت استطاع المستر كوسيجين إقناع الرئيس السادات بقبول وقف إطلاق النار المبنى على انسحاب جزئى، مع إعلان منطقة منزوعة السلاح، مع فتح قناة السويس بمساعدة دولية. بذلك، يكون الإسرائيليون قد عادوا إلى مطالبهم قبل الحرب. لا شروط مسبقة للتفاوض، والكلام مباشرة، وجها لوجه.

كان جليا لواشنطن أن وقوف إسرائيل بصلابة خلف شروطها، ستجد القوى العظمى نفسها متجهة نحو حالة مواجهة؛ فبمجرد اندلاع الحرب، كان الدكتور كيسنجر والسفير السوفيتى في واشنطن- المستر أناتولى دوبرينين- على اتصال شبه مستمر، هذا التواصل الدبلوماسي، أعطى الآن عائدا؛ أرسل الرئيس السوفيتى ليونيد بريجنيف طلباً عاجلاً إلى الدكتور كسينجر يدعوه إلى موسكو للتباحث مع القادة السوفييت. في نفس الوقت، زعمت وكالة الأمن القومى في واشنطن، أنها تلقت تقارير تفيد أن قوات روسية محمولة جوا، تقف مستعدة للتدخل في مصر، إذا شكل النجاح الإسرائيلى في الضفة الغربية تهديداً خطيراً للقاهرة؛ لهذا لم يضيع الدكتور كسينجر الوقت في التوجه إلى العاصمة السوفيتيية مع فريق مستشاريه.

مباحثات موسكو، التى انعقدت فى ٢٠ ، ٢١ أكتوبر ، توصلت إلى اتفاق لوقف القتال، وتبنى اقتراح متبادل لوقف النار، بهدف التوصل إلى تسوية نهائية كما اتفق على أن كلتا القوتين العظمين تستمر في إمداد عملائها حتى يصبح وقف إطلاق النار في ٢٢ أكتوبر نافذا؛ هذا الاتفاق المشترك يقوم بواسطة أمريكا وروسيا مطالبين بوقف لإطلاق النار.

في مساء يوم ٢١ ، أرسل المستر بريجنيف رسالة إلى الرئيس السادات، أعتقد أنها تأكيدات بأن إسرائيل قد تنسحب من المناطق المحتلة، إذا قبل وقف لإطلاق النار. أسرع مجلس الأمن بتمرير قرار لوقف إطلاق النار بدون معارضة (امتنعت الصين عن التصويت) في الساعات الأولى ليوم ٢٢ أكتوبر. طالب القرار بإنهاء الصراع، والبدء فوراً في مفاوضات سلام على أساس القرار ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ . وافقت إسرائيل ومصر على القرار، بينما رفضته كل من سوريا والعراق وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية وأعلنت الأردن قبول القرار مع بقاءقواتها تحت القيادة السورية. كان هناك اتفاق مصرى إسرائيلى بسريان وقف إطلاق النار حتى لو رفضته سوريا ودول عربية أخرى. قرار وقف النار سيكون ساريًا اعتباراً من الساعة ٦,٥٢ صباح ٢٢ أكتوبر، وصدرت الأوامر للقوات المصرية لمراعاة ذلك، لكن إسرائيل انتهزت الفرصة لتوجيه ضربة قاضية قطعت بها خطوط إمداد الجيش الثالث عبر القناة وعزلت ميناء السويس . البلاغ الرسمى رقم ٥٥ من القاهرة صباح يوم ٢٣ أكتوبر أعلن الآتي:

«لقد دفعت قوات الدفاع الإسرائيلية بعض قواتها واحتلت بعض المواقع بين قواتنا على الجانب الغربى للقناة، واستخدمت طيرانها لقصف قواتنا، هذا يلزمنا باستخدام القوة فى ضرب القوات الإسرائيلية فى مواقعها التى احتلتها بعد وقف إطلاق النار» . استمر القتال طوال يوم ٢٣ أكتوبر، وخلال النهار، وسعت القوات الإسرائيلية المنطقة التى تسيطر عليها – فى طريق السويس/ القاهرة جنوبا حتى كيلو متر واحد جنوب طريق الإسماعيلية/ القاهرة شمالا» . (ادعت الإذاعة الإسرائيلية فى ٢٣ أكتوبر، أن المناطق التى احتلتها مجددا، تشمل ثلاثة مطارات، وأن القوات الإسرائيلية أصبحت على مسافة ١٠٠ كم من القاهرة. فى خطابها الموجه للكنيست فى ٢٣ أكتوبر، أوضحت المسزمائير الموقف الإسرائيلى من قرار وقف النار، فكشفت عن نقطة فى فهمها بشروط وقف النار: إلى أنها يجب أن تسرى على «أى أنشطة لأى قوات غير نظامية تعمل ضد إسرائيل من أراض لدول وافقت على وقف إطلاق النار، وأنها يجب أن تؤكد على عدم حظر أو إغلاق أو التدخل فى حرية الملاحة فى مضيق باب المندب. وأن تقبل تبادل الأسرى» . وحسبما أشار راديو القاهرة: «إن تحليل بيان جولدا مائير، أظهر أن، بينما تقول أنها وافقت على قرار وقف إطلاق النار، لم تذكر كلمة واحدة عن هذه الملاحق، أو نية التنفيذ الفورى

للقرار». فى ٢٣ أكتوبر، أصدر مجلس الأمن قراراً آخر؛ إشارة إلى قرار اليوم السابق رقم ٣٣٨ فهو:-

١ - يؤكد قراره على الوقف الفورى لكل أنواع إطلاق النيران، وكل التصرفات العسكرية، ويحث قوات الجانبين على العودة إلى مواقعها فى لحظة بدء سريان وقف النار.

٢ - يطالب السكرتير العام باتخاذ الخطوات المناسبة الفورية، بإرسال مراقبين للأمم المتحدة، لمباشرة المراقبة لوقف النار بين قوات إسرائيل وجمهورية مصر العربية، مستخدماً لهذا الغرض أفرادا الأمم المتحدة المتواجدة فى الشرق الأوسط، وأولهم. أولئك الموجودون فى القاهرة.

واصل الإسرائيليون الاستهجان، وتجاهل هذه القرارات، واستمروا فى التوغل فى الأراضى المصرية؛ فى ٢٤ أكتوبر، اندفع طابور مدرع تجاه مدينة السويس للإستيلاء عليها قبل فرض قرار آخر لوقف النار، لكنها انسحبت بعد أن تكبدت خسائر. أعلنت مصر أن القوات الإسرائيلية تمنع مراقبى الأمم المتحدة من الوصول إلى أماكنها المخصصة. وفى ٢٤ أكتوبر، طلبت مصر من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى إرسال قوات لضبط خطوط وقف إطلاق النار. كاد هذا أن يدفع بمواجهة كاملة بين أمريكا والاتحاد السوفيتى. المستر جاكوب ماليك. المبعوث السوفيتى فى الأمم المتحدة- ساند طلب مصر للقوات قائلاً أن هذا «له ما يبرره تماما»، مضيفاً أن الولايات المتحدة هى المسئولة عن إلزام إسرائيل بإيقاف إطلاق النار. فى نفس اليوم، سلمت السفارة السوفيتية فى واشنطن رسالة «قاسية» للدكتور كسينجر، يرجح تضمينها تهديداً بإرسال قوات إلى مصر مالم تخضع إسرائيل.

أعلنت الولايات المتحدة أنها ضد إرسال قوات لضبط وقف إطلاق النار كما طلب الرئيس السادات. عند هذه المرحلة، قدمت مخابرات واشنطن تقريراً بأن الروس يستعدون للطيران بقوات محمولة جوا، ظاهرها الإشراف على وقف النار، لكن فى الحقيقة حسب الاستنتاجات ، للفصل فى منطقة القناة؛ وطبقًا لمصادر المخابرات الأمريكية، أن ٤٠ ألفا من القوات المحمولة جواً جاهزة؛ ومراكز تجميعها فى جنوب روسيا، فى إنتظار نقلها جوا إلى مصر. التقارير التى نشرت فى الصحف، أبرزت لقطات لفرق روسية تهبط فى دلتا

النيل، وتتحرك تجاه ميدان المعركة. على الجانب الآخر، في روسيا، ليست هناك أى علامة للتوتر، لدرجة أنه لم يرد ذكر للإنذار الأمريكي.

قررت واشنطن تصعيد الموقف بغرض تلافى إعطاء انطباع بالضعف.

فى ٢٤ أكتوبر الساعة ١١,٣٠ مساء، أصدر الأدميرال موورر، رئيس الأركان المشتركة، وبناء على أوامر فى المستر شليزنجر سكرتير الدولة للدفاع والذى أوكل إليه الأمر بدوره من مجلس الأمن القومي- أمرا بوضع القوات المسلحة الأمريكية فى أنحاء العالم فى وضع «انتباه وقائى»؛ تحركت حاملات الطائرات، وأمرت طائرات B52 الخاصة بالقيادة الاستراتيجية بالعودة من جوام، كانت تلك هى المرة الأولى منذ الأزمة الكورية سنة ١٩٦٢، أن اتخذت مثل هذه الخطوة الخطيرة. فى ٢٥ أكتوبر، حيث استمرت مصر فى إرسال تقارير عن هجمات مدرعة على مدينة السويس، مرر مجلس الأمن قراراً تقدمت به ثمانى دول غير منحازة (منها الهند). ذكرت بإهتمام أن مراقبى الأمم المتحدة لم يتمكنوا بعد من إتخاذ مواقعهم على جانبى خط وقف إطلاق النار. قرار مجلس الأمن:- يطالب بوقف فورى وشامل لإطلاق النار، وأن تنسحب الأطراف إلى مواقعها التى احتلتها حتى الساعة ١٦,٥٠ بتوقيت جرينتش فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣، وبنود أخرى طالبت السكرتير العام بزيادة عدد المراقبين، كخطوة عاجلة، وأن يضع تحت سلطتها قوة طوارئ دولية، مكونة من أفراد مقدمين فى عدة دول أعضاء فى هيئة الأمم، فيما عدا الأعضاء الدائمين لمجلس الأمن. قام السكرتير العام، بتعيين رئيس أركان القوات الدولية- الميجور جنرال انزيوسيلاسفيو كقائد مرحلى لقوة طوارئ، مكونة من ٢٠٠ جندى تابعين للأمم المتحدة، تطير فوراً من قبرص- مكونة من مفارز من استراليا وفنلندا والسويد.

الأزمة بين القوتين العظميين دامت ٢٤ ساعة فقط، رغم ذلك فلم ينته التحفز الأمريكي لعدة أيام تالية. فى ٢٥ أكتوبر، شرح الدكتور كسينجر فى مؤتمر صحفى الأسباب التى أدت إلى اتخاذ الولايات المتحدة خطوتها الوقائية بتعميم الإنذار دوليا، بل أضاف أن الولايات المتحدة لم تعد تعتبر نفسها فى مواجهة مع الاتحاد السوفيتى»، وهو لم يكن على علم بأن هناك «قوات سوفيتية قدمت لمصر». فى ٢٦ أكتوبر، كانت هناك

شكاوى أخرى، تتعلق باعتداءات إسرائيلية مستمرة، فى القطاع الجنوبى لمنطقة القناة، بغرض الاستحواذ على أكبر قدر من الأراضى قبل تدخل القوات الدولية، فى نفس الوقت ادعت إسرائيل أن قوات مصرية شنت هجوما شمال السويس، وحاولت إقامة كوبرى عبر القناة لتخليص الجيش الثالث على الضفة الشرقية. فى ٢٤ أكتوبر قبلت سوريا قرار وقف إطلاق النار الخاص بأوضاع ٢٢ أكتوبر، استمر القتال المتفرق خلال اليومين التاليين، لكن بحلول ٢٧ أكتوبر، ولأول مرة، أعلن أن كلتا الجبهتين هادئة. وكان قد اتفق على أن الممثلين العسكريين، المصريين والإسرائيليين سيلتقيان فى اليوم التالى لمناقشة وضع قرار وقف إطلاق النار موضع التنفيذ.

الفصل الحادى عشر

العمليات الجوية والبحرية

الاختلاف الرئيسي بين هذه الحرب والحربين الماضيتين، بين العرب والإسرائيليين، أنه في هذه المرة لم يقدر الإسرائيليون على القتال على الأرض تحت ظروف التفوق الجوى الكامل. في ١٩٧٣ حرمت القوات الجوية في فرصة شن الضربة الإجهاضية؛ وحتى في حالة القيام بها، فما كانت لتحرز نسبة عالية من النجاح بسبب غطاء الصواريخ العربية، لذلك كانت القوات الجوية الإسرائيلية غير قادرة على فرض سيطرتها الكاملة، مع أنها حافظت على تفوقها المحلى فوق المناطق المحتلة الإسرائيلية، وفوق البحيرات- قطاع منطقة القناة في الأيام الأخيرة القليلة في الحرب-، وعلى الجبهة السورية؛ رغم قدرة الإسرائيليين على انتزاع سيطرة أكبر في الجو، فما زالوا يفتقدون القدرة على توفير الظروف للقيام باكتساح مدرع مشهود مثل الذى ميز حروب ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ . أما سبب قدرتهم على الحفاظ على سيادتهم غير منتهكة على مجالهم الجوى، فبسبب تفوق سلاح طيرانهم وتسليحه عن ما لدى العرب.

السلاح الرئيسي، طائرات الفانتوم المقاتلة، وتعد أفضل طائرة مقاتلة في العالم اليوم؛ فهي أكثر تطور عن الميج ٢١ ، وتحمل ٤ صواريخ «سبارو»، ومجموعة من صواريخ «سايدواندر» للقتال الجوى وقنابل زنة ٥٥٠ لبرة، وتبلغ سرعتها ٢,٤ ماك وأقل مدى لها ٢٥٠٠ كم. فهي تتقدم على الميج ٢١ العربية بفارق كبير، وبالتحديد العلمى فيمكنها البقاء فوق ميدان المعركة ثلاث أو أربع مرات أطول من الطائرات الاعتراضية السوفيتية. (ذكرت التقارير أن خسائر الميج ٢١ ، راجعة إلى نفاد الوقود عند عودتها من مهامها فوق سيناء ، أما طائرات الميراج الإسرائيلية المقاتلة، وهى الطائرات الإعتراضية الرئيسية، فتطير بسرعة واحد «ماك» «في الارتفاعات المنخفضة، لكنها ترتفع إلى ٢ «تاك» في الأعالى، كما أن لها مدى أكبر من الميج ٢١ الـ ٦٠٠ كم، أثبتت الميج ٢١ أنها أكثر قدرة على المناورة من المقاتلات الإسرائيلية، إلا أنها تحمل صواريخ «أتول» - وهى تشابه السايدواندر-، ولا تحمل صواريخ «سبارو» التى يمكن إطلاقها على طائرة مهاجمة مثلما تطلق على طائرة مولية. والنتيجة ، إن كانت التقارير عن تمثيل محدود لصواريخ جو -

جو التي تطلق من الميج ٢١ ، هذا مع أن من العسير تحديد ما إذا كان النقص في المهارة الاعتراضية، أو في عدم كفاءة الصواريخ هي السبب. من المسلم به أن الطيارين المصريين دربوا على مهاجمة التشكيلات الإسرائيلية من أسفل، بهدف تشتيت التشكيل، كان هذا لأنه كان معروفاً أن إحدي المقاتلات الإسرائيلية تحمل معدات .E.C.M (توفر الحماية للطائرات)، وتشتت التشكيل يحرمهم من هذه الحماية. لكي تتمكن صواريخ سام من إصابتهم بسهولة؛ هذا الأداء للطيارين المصريين في قتالهم ضد آلات وأسلحة أكثر تفوقاً، كانوا في غاية النظام، وجاءت كمفاجأة كبيرة للإسرائيليين. ولإدراك العرب لتفوق المعدات والتسليح للطيران الإسرائيلي، فقد فرضوا أبعاداً محددة للعمليات الجوية ضد الإسرائيليين؛ فوقف سلاح الجو أساساً في موقف الدفاع. وهكذا، بقي سلاح الجو، حسب التقارير، موزعاً على مدارج طيران في دلتا النيل وحتى أسوان. يتضح أن القيادات العليا المصرية والسورية، كانوا مدركين لضرورة إتباع عمليات محددة بوضع تعليمات لعمليات الطيران كمايلي :-

أ- شن هجوم مفاجئ ضد المواقع الإسرائيلية المتقدمة والرادار وأجهزة الاتصال، ودعم الهجوم الأرضي الرئيسي.

ب- إجبار الإسرائيليين على توزيع جهود طيرانهم على جبهتين، وبتوسيع الجبهة بقدر الإمكان في كل قطاع، بهدف تقليص كفاءتهم في إلحاق الضرر.

جـ- حرمان قوة الطيران الإسرائيلي من عنصر التفوق التكتيكي، بالتعاون مع نيران مواقع صواريخ سام الأرضية.

ء- دعم العمليات الأرضية، وحصرها في مجال غطاء الصواريخ فيما عدا الظروف الطارئة. ساعة الصفر المحددة لتوجيه الضربة الهجومية ضد المواقع الإسرائيلية في سيناء. قامت بها طائرات سوخوى ٧ وميج٢١ (ف) المتطورة، وأثبتت أنها كانت مؤثرة. فسرب بعد سرب من الطائرات القاذفة المقاتلة المصرية، تسللت تحت شاشات الرادار الإسرائيلية وهاجمت أهدافا لمواقع قيادة متقدمة: رادارات ومراكز إتصال ومواقع صواريخ هوك أرض جو ومنشآت حيوية بعمق ٦٠كم، هاجمت أيضاً المطارات المتقدمة، واستمرت الهجمات لمدة ثلاثة أيام متصلة، إضافة لذلك، وفرت القوات الجوية الدعم للبحرية وعمليات الفدائيين على شواطئ سيناء وفي خليج السويس.

في هذه العمليات، يعتقد أن خسائر الطيران نتيجة المدفعية الإسرائيلية المضادة للطائرات وصواريخ هوك كانت عالية.

بعد إتمام عملية القناة، أصبح دور الطيران المصرى محدوداً، مهامه الرئيسية هى: توجيه ضربات داعمة للمواقع الإسرائيلية المتقدمة ومراكز تجمع الدبابات؛ لم تحدث محاولات جادة لشن عمليات إعتراضية ضد الطيران الإسرائيلى الذى حاول الهجوم على رؤوس الجسور والكبارى؛ وفرت مواقع صواريخ سام غطاء دفاعيًا كاملاً ضد هذه الغارات، وألحقت بها قدراً عاليًا من الإنهاك، حتى أنه فى المراحل الأولى، كان الطيران الإسرائيلى غير قادر على إحراز أى نجاح ضد هذه الأهداف. وقد ذكر أن أعداداً كبيرة من الطائرات التى حرصت على الطيران المتخفض لكيلا تصاب بصواريخ سام ٢ ،٣، فأصيبت بصواريخ سام ٦ ،٧ والبطاريات المضادة للطائرات. ولما كان رأس الجسر لم يمتد إلى خارج مدى غطاء صواريخ سام ٢ ،٣، فلم يستخدم الطيران كثيراً فى الدعم خلال الأسبوع الأول للحرب، وبقى غالبًا بدون عمل، فيما عدا بعض المهام المرحلية ضد القوات الإسرائيلية الأرضية. وأخيراً، فى ١٤ أكتوبر، عندما تحرك الجيش المصرى مبتعداً عن مدى غطاء صواريخ سام؛ قام الطيران بعمليات داعمة ، إلا أنه خسر طائرات عديدة ناتجة عن التحرك الجوى الإسرائيلى. كان من سوء الحظ فى هذه المعركة، كما ورد فى التقارير، نقص عمليات إنقاذ الطيارين الذى أسقطوا فوق منطقة العدو، فى حالات كثيرة، اضطر الطيارون إلى العودة سيراً على الأقدام عبر الصحراء إلى رأس الجسر.

شكل حزام الصواريخ المتشابك على الضفة الغربية.، مشكلة للطيران المصرى أيضاً، لأنه يكاد يكون مستحيلاً الاعتماد على جهاز «التعريف ين العدو والصديق.I.F.F»، عندما تأتى الطائرات على ارتفاع منخفض وعلى سرعة واحد ماك فما فوق ، فليس لدى جهاز رادار الصواريخ الوقت الكافى لتحديد رد الفعل واجراء «التعريف»، لذلك كان الحظر فى أن تصاب الطائرات بواسطة صواريخها هى. وكان لفرض نظام «تصميت» الحارات التى يمكن للطيران الإسرائيلى اكتشافها فوراً، أن تقوم الطائرات المقاتلة عند عودتها من مهامها فوق سيناء بالتحويم حول حزام الصواريخ، لأنها إذا اقتحمته فهناك مخاطر الإصابة بواسطة صواريخها هى. بعض التقارير ذكرت فقد بعض الطائرات لهذا السبب. سلاح الطيران وخدمة الدفاع الجوى المصريين، تعتبر خدمات مستقلة عن

بعضها، لكنها تخضع وتدار بواسطة مركز القيادة العسكرية برئاسة رئيس الأركان، لكن بقدر ما كانت جهود التنسيق مرتفعة، فمخاطر الإصابة بصواريخ سام لطائراتهم لا يمكن تلافيها تماماً. اللوم على مثل هذه الخسائر لا يجب أن يقع على عاتق نظام الدفاع الجوى وحده، فقد ذكر أنه بسبب توزيع مواقع صواريخ سام الدفاعية، فإجراءات فض الاشتباك بالنسبة للطيران المصرى كانت خاطئة فى بعض الأحيان، الأبعد من ذلك، ففى المواقع المتقدمة لرؤوس الجسر على الضفة الشرقية، كانت القوات الأرضية تستخدم صواريخ سام «٧» «استريلا» ، الموجهة من الكتف، ومدافع مزدوجة مضادة للطائرات ومحملة على عربات سبق توزيعها فى المناطق المتقدمة ويتم تشغيلها يدوياً. ولما كانت هذه الأسلحة تعتمد على الرؤية بالعين المجردة، فالمعروف أن الخطأ أثناء سخونة المعركة يسبب إصابات. ليس من الواضح تماماً ، كيف استطاع الروس ولديهم، بالطبيعة، من الكثافة الصاروخية فى نظام دفاعهم الجوى، وأعداد أضخم من الوسائل الاعتراضية، كيف استطاعوا معالجة هذه المشكلة. ويبدو أن قوات الطيران المصرى لم تتوصل لإجابة بعد. أثناء الغارات الجوية الإسرائيلية على المطارات المصرية، أن الطائرات «مرصوصة» حسب مقتضيات القاعدة، فيما عدا عدد محدود من الداوريات الجوية، بقيت فى حالة تأهب أثناء النهار؛ كانت الأوامر التى تتعلق بتعقب طائرات العدو العائدة بعد الإغارة، كانت أيضًا حازمة. اتخذت هذه الاحتياطات خوفاً من «الانقضاض عليها» بواسطة قوات التغطية الإسرائيلية؛ مفهوم قد يكون ناتجًا عن خبرة سابقة، عندما كانت الطائرات الجوية الإسرائيلية مدعمة دائمًا بقوة تغطية من طائرات الميراج (مثلما حدث فى ١٣ سبتمبر مع قوات الطيران السورية). ليس مما يثير الدهشة، أن هذه الأبعاد الوقائية المفروضة من قيادة الدفاع الجوى، بدت وكأنها حرمت الطيران المصرى من مستوى من المبادرة فى الجو. سرب من طائرات هنترالعراقية، تعداده يبلغ ١٦ طائرة، عمل كداعم، ذكر أنه نفذ عمليات قتالية بروح عالية، لكنه عانى من خسائر ثقيلة من الطيران الإسرائيلى، كما ذكر لاحقاً أن السرب بأكمله قد أسقط.

بقيت قاذفات القنابل المصرية من طراز Tu.16 غير مكلفة ، فيما عدا بعض الطلعات فى المراحل الأولى للحرب، لضرب إنشاءات البترول الإسرائيلية فى سيناء، وضرب أهداف أخرى على طول شاطئ سيناء. بعد ١٧ أكتوبر، وجهت بعض الطلعات لضرب الكبارى الإسرائيلية عبر القناة فى قطاع الدفرسوار، ولم نعرف نتائجها. وذكر أن طائرتين

عراقيتين من طراز Tu.16 حاولتا اختراق غطاء الدفاع الجوى ومهاجمة تل أبيب: ادعى الإسرائيليون أن إحداها فقد أسقطت وأفرغت الأخرى حمولتها بدون تحديد ثم عادت إلى قاعدتها.

قوات الهليكوبتر استخدمت فى نقل الكوماندو فى صحراء سيناء أثناء بدء الحرب، وفى معركة الدفرسوار، ولمطاردة الدبابات الفارة من نيران المدفعية. كانت هناك خسائر كبيرة جداً أثناء عمليات الكوماندو بسبب عدم توافر الغطاء المناسب من الطائرات المقاتلةرغم ذلك ، لعبت غارات الكوماندو دوراً ليس بالقليل فى تنفيذ خطة الإعاقة للتمكين من عبور القناة، لأن مصر وضعت كل إعتمادها على قدرة الكوماندو على الهجوم وتدمير منشآت الرادار والقوافل والقيادات المتقدمة، والاستحواذ على المعلومات المخابراتية. بعض هذه الغارات نفذت بجسارة أثناء الساعات الأولى للحرب. على الجبهة السورية، رغم استخدام سلاح الطيران لدورة كاملا فى عمليات الدفاع، فقد مارس توجهاً كاملاً للقتال من البداية، طائرات الميج السورية (ثم أخيراً العراقية). قذف بها فى المعركة، لكنها قدمت عوناً ملحوظاً داعماً للقوات الأرضية المهاجمة لمرتفعات الجولان. الأبعد من ذلك فبسبب قلة حجم غطاء صواريخ سام عن ما هو موجود فى منطقة القناة، واصلت المقاتلات السورية التحويم فى الجو بشكل شبه مستمر. وباستدعاء يوم ١٣ سبتمبر، ومحاولة الطيران السورى إختراق المجال الجوى الإسرائيلى، والذى اثخنته إسرائيل ضربا مؤلما، حتى ذلك الوقت لم يتعرض الطيران الإسرائيلى للاشتباك مع صواريخ سام.من المحتمل أن تفسر على أن السوريين قاموا بذلك عن عمد، لتجنب الكشف عن التوسع فى إقامة غطاء سام، الأمر الذى نتج عنه الذهول الكبير عند إكتشاف غطاء سام غرب دمشق، والذى كبدهم خسائر ثقيلة. ومع أن الطيران السورى يشمل نسبة عالية من طائرات ميج ١٧ ، التى لم تكن نداً لمقاتلات إسرائيل عالية المستوي ، فقد أثبت الطيارون السوريون كفاءتهم فى الاشتباكات الجوية، التى غلب عليها التهور؛ فقد ذكرت التقارير أنه فى بعض الاشتباكات الجوية، أن قام الطيارون السوريون، عند نفاذ ذخيرتهم. بقيادة طائراتهم على طريقة «الكاميكازى» الإنتحارية، فى المقاتلات الإسرائيلية، يشير هذا، بعيداً عن عدم نضج القيادة والانضباط، تجاهل قبوله أصول القتال مقابل مبدأ «إفعلها بنفسك»؛ وهنا يجب الإضافة، أنه رغم ذلك، فقد ذكر أن هذه الأساليب نجحت

بالفعل فى إسقاط الفانتوم الإسرائيلية. اعترف قائد الطيران السورى فى مؤتمر صحفى بعد الحرب، واصفًا هذه الأعمال البطولية بأنها إظهار «للروح الفدائية فى الجو» ؛ ربما يكون هناك شئ من دلك بالفعل. كانت هناك تقارير بأن الروس أمدوا السوريين بسرب من طائرات وصفت مجازًا بأنها سوخوى ٢٠ ، وهى نوع معدل من سوخوى ٧ مزود بأجنحة قابلة للتغيير فى الشكل ، وأن هذه الطائرات استخدمت فى الدفاع جوا فوق دمشق، وكان يقوم بقيادتها طيارون روس. ولإرتفاع كمية طائرات ميج ١٧ ، ذكر أن الطيران السورى استخدم تكتيكًا يجعل فصول التشيكل من طائرتى ميج ٢١ ، تليها طائرتا ميج ١٧ تتحر كان بحرية عن التشكيل عند إعتراض الطائرات الإسرائيلية المغيرة، كما أن الطائرات فى العمليات الداعمة لوحظ أنها تتكون من مجموعات من أربع أو ثمانى طائرات أغلبها ميج ١٧ . بخلاف القوات المسلحة المصرية، كانت نظم الدفاع الجوى السورى تحت قيادة القوات الجوية، وربما كان هذا أقل تعقيدًا بالنسبة للتنسيق بين دفاعات الصواريخ والطائرات المقاتلة؛ ليست هناك معلومات عن كيفية عمل هذا النسق فيما يتعلق بمراعاة عدم إسقاط طائراته بصواريخه السورية نفسها.

أما بالنسبة للطيران الإسرائيلى، ورغم الفشل فى التوصل بشكل صحيح للنوايا الاستراتيجية العربية، فقد أوكلوها إلى الدفاع خلال المراحل الأولى للحرب، معتمدة على أسلحتها المتفوقة ، ومهارتها القتالية ونظم الصيانة بغرض إنتزاع المبادرة من قوات الطيران العربية. على الجبهة السورية، دفع الطيران الإسرائيلى بكل الطائرات المتاحة لمهاجمة الطوابير السورية المتقدمة، متقبلين الخسائر الثقيلة من صواريخ سام ٦ والنيران الأرضية. وطبقًا لما أعلنه الجنرال ديان. خلال الثلاثة أيام الأولى للحرب، فقدت إسرائيل ٥٠ طائرة (قدرت المخابرات الأمريكية الخسائر بـ ٨٠ طائرة) ، حتى طائرات الميراج. أطيح بها فى مرحلة الدفاع الأرضى. على كل، فقد بدأت الأمور فى التحول فى اليوم الثالث؛ وفى وصف الوضع الجوى فى المراحل الأولى، قال الجنرال ديان فى يوم ٩ أكتوبر «على قواتنا الجوية مواجهة ثلاث مشاكل عندما تقوم بمهاجمة أهداف داخل سوريا– الصواريخ، مدفعية مضادة للطائرات وسلاح الطيران السورى. الطيران السورى لا يشكل أى صعوبة لقوات طيراننا.

فحيثما يشتبكان في قتال متلاحم معنا تكون خسائرهم ثقيلة، الصواريخ هي المشكلة.. والبعض منها، وقد تكون جميعها يتعين تدميرها قبل أن نصيب هدفًا. يجب علينا أن ندفع ثمنًا لهذا بخسارة بعض طائراتنا عند تعاملنا مع هذه الصواريخ. إحدي العمليات الناجحة، كانت ضد طابور مدرع سورى، ذلك الذى غزا مرتفعات الجولان، وكان محميًا بشكل جيد بالصواريخ المضادة للطائرات، اليوم وصلنا إلى النقطة التي لا يمكن لأية صواريخ أن تعمل- جعل هذا أن أمكن لطيراننا مهاجمة دباباتهم. ليس بطريقة اضرب واهرب، لكن بالطيران فوقها بشكل ملائم. وإسقاط القنابل فوقهم على طول الطريق من دمشق إلى القنيطرة».

جاءت كفاءة الصواريخ العربية المضادة للطائرات، صدمة كبيرة للإسرئيليين، وأربكت استراتيجيتهم القائمة على التفوق الجوى على ميدان المعركة لاحتواء أى تقدم عربى، ولمساعدة مدرعاتهم للاندفاع في مناورة سريعة الحركة للاختراق في العمق. هذه المرة لم تتح لهم الفرصة- فيما عدا القصور الذى وقع في منطقة القناة بعد أسبوع لاحق . كان الإسرائيليون يعرفون كل شئ وعن مواقع صواريخ سام ٢ ،٣ في منطقة القناة ودلتا النيل، كما كانوا يعرفون عن دفاعات الصواريخ في دمشق. الأمر الذى فاجأهم، هو المهارة التى مارسها العرب في استخدامهم لهذه الأسلحة المعقدة، وثانيًا، الكفاءة القاتلة لصواريخ سام ٦ ، والتى تطلبت أعلى مستوى مهارى في استخدامها؛ كفاءة سام ٦ على إمكانية التحول في استخدامها، فيمكن تشغيلها ذاتيًا، وإعادة توجيهها في دقائق، بخلاف سام ٢ ،٣ ، فبإمكانها التحرك خلف القوات المهاجمة، وتمد غطاءها الصاروخي بحسب تقدم المعركة، مثلما حدث في الجبهة الشمالية، حيث لا يوجد عائق مائى للتعامل معه. الأكثر في ذلك، خاصية سام ٦ في أنه سريع بما يكفى لإسقاط أى طيران منخفض، كما يمكن توجيهها بالعين المجردة التى تجعلها محصنة ضد اليكترونيات التشويش عند الاستخدام؛ فالموجه الرئيسى هو الرادار، وهذا يمكن إبطاله إذا امتلك الطيران المهاجم جهاز التشويش الألكترونى E.C.H سبق أن تعلم الإسرائيليون كيفية مراوغة سام ٢ ، ٣ أليكترونيًا، أما سام ٦ ، فلم يسبق استخدامها في الحرب، فالأولى كانت توجه إلى الهدف من الأرض محمولة على أشعة الرادار، أما الجيل الأخير من الصواريخ – سام ٦- فمصممة على المتابعة الذاتية ، التى تتولى التوجيه في منتصف عملية الإطلاق وترشد

الصاروخ إلى الهدف. هناك حدود للمناورة لدى الطائرة التي تقوم بالمراوغة ضد الصواريخ، والعائق الرئيسي هو الطيار نفسه- لأنه إذا غير اتجاهه بسرعة فائقة، فسيغيب عن الوعي نتيجة لقوة الضغط، ليس لدى الصاروخ مثل هذه المعضلة الإنسانية، وبالتالي يمكنه التغلب على الطائرة. الشئ الوحيد الذى يمكن للطيار أن يغير به اتجاه الصاروخ، هو محاولة إرباك راداره، بوضع معدات فى الطائرة تستخدم نفس التردد الذى يرشد الرادار. كان هذا ما دبره الطيران الإسرائيلى ضد صواريخ سام ٢، ٣، لكن صواريخ سام ٦، طورت راداراتها بمجالات مختلفة من الترددات، وبذا أمكن الإمساك بالطيران الإسرائيلى على غرة.

جهز الأمريكان المقاتلات الإسرائيلية بصواريخ شرايك جو- أرض، التى يمكنها أن تأوى إلى أشعة رادار سام وتدمر جهاز الإطلاق. نشرة أخيرة عن الصاروخ تقول أنه يحتوى على جهاز يجعلها تحافظ على مساره حتى لو تم إبطال الرادار الموجه الأرضى. على العموم، كان ذلك أدنى تأثيرا ضد الجيل الأخير لصواريخ سام بسبب تعدد الترددات الرادارية؛ بالإضافة إلى، لو أن تكنولوچيا أجهزة الشوشرة استطاعت التغلب على صعوبة التعدد الرادارى، فبإمكان الصاروخ سام ٦ دائماً إغلاقه بواسطة نظام تحكم من البعد، ثم يتم توجيهه إلى الهدف بالعين المجردة. كان هناك قناعة، بأنه لفترة قصيرة حاول الطيران الإسرائيلى عكس أداء طائراته العالى، بالتحول إلى نماذج أبطأ من الطائرات مثل سوبر ميستير، فوتورز وأوراجون، خصوصًا عند دعمه لقواته بعد شن هجومه المضاد. كان هذا عندما تقلص غطاء الصواريخ السورى، بالتدمير وبالاستهلاك العالى، حتى قامت الفانتوم والميراج بالطراد وركبت السماوات السورى. الغارة على دمشق يوم ٩ أكتوبر قام بها تشكيل مكون فى ٦ طائرات فانتوم، طارت بارتفاع منخفض مستخدمة قنابل زنة ٥٥٠ لبرة «رطل». استخدمت صواريخ شرايك على نطاق واسع ضد مواقع الصواريخ على كلتا الجبهتين. على كل، فقد أظهرت التقارير أن كمية هذه الضربات ضاعت على مواقع هيكلية، تم توزيعها على امتداد حزام الصواريخ. إجراءات التمويه والخداع كانت مؤثرة خصوصاً فى حزام الصواريخ فى منطقة القناة. لجأ الطيران الإسرائيلى إلى الضرب المكثف بالقنابل، وفى بعض الأحيان يهاجم موقع الصواريخ بتشكيل مكون من سربين أو

ثلاثة فى المرة الواحدة. رغم ذلك فلم يكن هذا الأسلوب ناجحًا بشكل مرض لتوزيع صواريخ سام ٦ بين سام ٢ ، ٣ - كما أسقط العديد من الطائرات الإسرائيلية، بواسطة المدافع المضادة للطائرات (كان أكثرها فاعلية المدفع من طراز ZS.0.32) التى تم نشرها بشكل مكثف بين بطاريات الصواريخ. تفاصيل الطائرات الإسرائيلية الموجهة من البعد ضد دفاعات سام ليست متاحة بعد، فقد استخدمت على نطاق ضيق فى المراحل المتأخرة للحرب. فى القطاع الشمالى لدلتا النيل، نجحت الطائرات فى فتح ممر فى حائط الدفاع الجوى المصرى ما بين بوسعيد ودمياط، على الشاطئ الشمالى للبحر المتوسط. دأبوا على شن هجمات متواصلة فى خلال هذا الممر - مهاجمين المطارات المصرية. حقيقة، هذه الضربات لم تكن مؤثرة وفى كل الأحوال، كان المصريون جاهزين بمناهج منظمة للإصلاح الفورى خلال ساعات قليلة. العملية التى نجحت ضد الصواريخ، هى تلك التى تم التخطيط لها من سنوات سابقة، ونفذت أثناء هجوم الدفرسوار عبر القناة؛ فتش ودمر بأسلوب غارات النهب، قام بها طوابير مدرعة، أطلق لها العنان بواسطة الجنرال شارون، تلك التى كانت قادرة على تطهير منطقة معتبرة على الضفة الغربية. بعدها، توالى الطيران الإسرائيلى، ومارس سيطرته الجوية على المنطقة، لكن كان هناك تحد قوى من الطيران المصرى. الإسرائيليون لديهم صناعة طيران وطنية أكثر تقدمًا مما لدى العرب، وقد وفر ذلك درجة أعلى من الأداء الخدمى ؛ فقد أكدوا أن مؤسسات الصيانة كانت تعمل على مدار الساعة بورديات ٨ ساعات لكل. وقد كان مما يثير الدهشة أن قاذفتهم المقاتلة «باراك» لم تظهر فى الجو إلا فى أواخر الحرب.

الحرب فى البحر

حرب ١٩٧٣ ، ليست كمثيلاتها التى سبقتها، فقد شهدت عمليات بحرية متواصلة من الجانبين، رغم أنها كانت أساسًا بواسطة القوارب الصغيرة مثل الصواريخ وقوارب الداورية تلك التى شهدت معظم الحرب. كانت البحرية المصرية هى البادئة بالضرب، بطارياتها المقامة على شاطئ بورسعيد وميناء السويس قدمت نيرانا داعمة للقوات العابرة، بينما قوارب الصواريخ هاجمت رمانة لإسكات المدفعية الإسرائيلية الثقيلة المنصوبة هناك. النقطة الحصينة عند رأس بارون فى أقصى الشمال، التى احتوت على محطة رادار قوية

لمتابعة تحركات البواخر عند مدخل قناة السويس في بورسعيد، تمت مهاجمتها بقوارب الصواريخ، وأعلن أن الرادار قد دمر . في خليج السويس، دعمت قوارب الصواريخ الفدائيين البحريين في غاراتهم على رأس سدر ورأس أبو رديس (في منتصف المسافة جنوب شاطئ سيناء). وفي بلاعيم، الأبعد جنوبا، دأب رجال الضفادع على تخريب معدات حفر البترول. لم توجد هناك مجابهة بحرية في ٦ أكتوبر، غير أن بعض العمليات اللاحقة، اعترضتها داوريات العدو وقوارب صواريخ؛ في مساء ٨ أكتوبر، أربع قوارب صواريخ (تنتمي للمجموعة التي سبق أن أغرقت المدمرة إيلات منذ ٦ سنوات مضت)، اشتبكت مع تسعة قوارب إسرائيلية مدعومة بطائرات هليكوبتر حاملة للصواريخ. أعلنت البحرية المصرية أنها قاتلت بروح عالية ، وأغرقت خمسة قوارب للعدو وخسرت ثلاثة من قواربها. وفي الأيام القليلة التالية، قصف المصريون شرم الشيخ ونقاطا إسرائيلية أخرى على شاطئ خليج السويس. ادعى الإسرائيليون أنهم ردوا مجموعة من الفدائيين المصريين الذين نزلوا شرم الشيخ لتدميرمعدات الرادار. نجاح رئيسي آخر في خليج السويس تم إحرازه أثناء الغارة الثانية على المنشآت البترولية في بلاعيم؛ الطرق المؤدية إلى الميناء، ثم تلغيمها سراً، وكانت هذه المرة الأولى في بداية الحرب، التي قامت البحرية المصرية فيها ببث الألغام؛ عندما انفجرت ناقلة حمولة ٤٦ ألف طن وصندل هرع لنجدتها، بواسطة الألغام، وغرقتا، بالإضافة إلى ناقلة أخرى حمولة ألفي طن أعطبت. لم يعد من الممكن استخدام مياه بلاعيم بعد ذلك، حيث لا تملك البحرية الإسرائيلية كاسحات ألغام. الأسطول المصري في البحر المتوسط، أسندت إليه المهام الدفاعية في الأسكندرية، للحفاظ على بقاء الممرات والميناء مفتوحة. وبعد إعلان أن الجزء الشرقي للمتوسط خارج النطاق، قامت الغواصات المصرية بالعمل في المنطقة. وادعت إغراق سفينتين تجاريتين إسرائيليتين. وكان هناك عدد من الاشتباكات بعيداً عن شاطئ دلتا النيل؛ واحدة منها فقط تلك التي أعلنت إسرائيل أنها تقدمت إلى مدى قريب مكنها من قصف أبي قير. العملية الرئيسية التي قام بها أسطول البحر الأحمر، هي الحصار (حظر كامل) الذي أقيم في مضيق باب المندب، على مدخل البحر الأحمر، فتمركزت مدمرتان عند عدن، مع غواصتين داخل المنطقة شمال المضيق. كانت حركة النقل العادية الإسرائيلية

عبر المضيق حوالى ١٨ باخرة شهرا؛ لم يسمح لأى باخرة بالمرور حتى رفع الحصار فى نوفمبر. كانت البحرية الإسرائيلية نشطة خلال الحرب، غالباً فى البحر المتوسط، على الشاطئ السورى، فأحرزت نجاحات رئيسية فى ١١ أكتوبر، عندما هاجمت البحرية المدعومة بسلاح الطيران، بنجاح، الموانى السورية: اللاذقية وطرطوس، وقصفت خزانات البترول فى بانياس، التى تركت مشتعلة. فى هذه العمليات ، ذكر أنه قد استخدمت طائرات الهليكوبتر حاملة الصواريخ. من العسير تحديد حجم الخسائر التى نتجت عن هذه العمليات. فالصاروخ المصرى «ستايكس الروسى الصنع» مداه أبعد من صواريخ «جابرييل» الإسرائيلية، لكن الإسرائيليين يدعون أن قواربهم من نوع «سار» الفرنسية الصنع، مع قوارب راشف وكيشيت المحلية، أثبتت قدراتها على المناورة التى مكنتها من أخذ زمام المبادرة مرات عدة.

الفصل الثانى عشر

تعليق على الحملة

اختلفت الجولة الرابعة للحرب المستمرة بين العرب وإسرائيل عن سابقاتها الثلاث من عدة جوانب. الأولى ووقعت عام ١٩٤٨ بعد إقامة دولة إسرائيل. لم تكن عملية بالغة الحساسية. وفى حربى ١٩٥٦، ١٩٦٧ كانت المبادرة من إسرائيل، حيث كانت ضد العرب، وكان هجومها بخلاف أى حرب سابقة، جاء مفاجئًا تمامًا (ولو أنه من غير الصواب القول بأن إسرائيل لم يكن لديها تحذيرات مسبقة عن استعدادات عربية). فى ١٩٥٦، حاربت إسرائيل المدعومة بعمليات الطيران البريطانى/ الفرنسى، الذى فرض سيطرته وتفوقه الجويين. وفى ١٩٦٧ كانت ضربتها الإجهاضية ضد الطيران المصرى، قد أعطتها الحرية فى الأجواء العليا. أما هذه المرة، فلم تتمكن إسرائيل من العمل تحت ظروف السيطرة الجوية، لأن العرب ملكوا القدرة على الدفاع الجوى، والنتيجة أن لم يعد هناك عمليات اكتساح استعراضية مدرعة فى عمق الأرض العربية، مثل الحروب السابقة. فهذه الحرب ظلت محصورة فى مناطق محددة فى جوهرها؛ لا كحرب من الحركة بقدر ما هى حرب مصابرة. فلم يتمتع الإسرائيليون فى ١٩٧٣ بميزاتهم السابقة، بالنسبة للإمداد المتوفر عن خطوط الاتصال القصيرة. فعلى جبهة السويس، بعد المسافة عبر سيناء، جعل أوضاع الإمداد والتموين يكاد يكون مماثلاً لأوضاع المصريين. أما على الجبهة الشمالية فكانوا مغلولى اليد تقريبًا بحقيقة أن خط إتصالهم كان كعنق الزجاجة. لاضطرارهم للمرور على كوبرى وحيد، الأمر الذى خدمهم رغم عدم تناسبه، وكانت صعوبة الخطوط الداخلية فى استراتيجية إخفائها، لتواجه المد الإستراتيجى المحدد للمصريين وهو إقامة رأس جسر على جبهة عريضة بعمق محدود- الأمر الذى سمح للإسرائيليين بالتفرغ لكل جبهة على حدة بعد الأخرى وهكذا، فبعد ٧ أكتوبر، كانوا قادرين على القتال، فقط بحركة تثبيت فى الجنوب، وتحويل الأولوية الاستراتيجية إلى التهديد العاجل فى الشمال؛ فقد ركزوا كل إمكاناتهم ضد السوريين، أوقفوا هجومهم، ثم دفعوهم للخلف. وبعد ذلك استطاعوا صب اهتمامهم على جبهة القناة. تمكنهم من تحديد

أولوياتهم، وتجنب مواجهة كارثة على كلتا الجبهتين فى نفس الوقت، كان منحة استراتيجية قدمها لهم العرب بجعلها ممكنة بسبب غياب القيادات المشتركة، وقائد عام بصلاحيات إصدار أوامر عمليات للجبهتين. إن «قيادة عامة متعاونة»، ليس هى نفس الشئ أبداً مثلما اتضح فى حالة قيام المصريين بالهجوم لسحب احتياطيهم من الجبهة السورية، والذى يعد مظهراً من مظاهر التعاون، أكثر من كونه تنفيذاً للأمر الذى صدر متأخراً عن موعده بثلاثة أيام. لو عهد إلى الفريق اسماعيل الإشراف على العمليات من البداية، لكانت القيادة العربية المشتركة واعية- من البداية- لاستراتيجية الجبهتين. بدلاً من البدء فى التفكير فيها بعد تفاقم الأزمة؛ فتحت قيادة عليا، من الممكن أن يشن الهجوم المصرى فى وقت يجعل الإسرائيليين يسحبون احتياطيهم قبل أن يجبروا الجيش السورى على الخروج من هضبة الجولان. العرب.. دائماً، لديهم مشاكل تتعلق بالقيادة والتعاون؛ فتحت ظروف السلام، توضع الخطط لإقامة قيادة عليا ورئاسة للأركان، لكن فى حالة حدوث حرب، تبرز العقبات عند محاولة تنفيذ القيادة المشتركة. على كل، فعلى عكس الماضى، شهدت هذه الحرب مستوى رائعًا للتضامن العربى، فالعراقيون والأردنيون والسعوديون، والمساندون المغاربة- بعض النظر عن الإختلافات العقائدية بين حكوماتهم- حاربوا تحت القيادة السورية، بينما الكويتيون والجزائريون والتونسيون والسودانيون، فقواتهم تلقت أوامرها من القيادة العامة فى القاهرة. ومع تعاظم منزلة وشعبية الرئيس السادات ، فمن الممكن التغلب على صعوبة جعل سوريا توافق على وضع كل قواتها تحت قيادة قائد أعلى له كل الصلاحيات لإدارة العمليات. إن قيادة عمليات مشتركة، ووكالة فى مخابراتها المندمجة، كان بإمكانها تضخيم وتدقيق الأزمة التى واجهت الإسرائيليين خلال الأيام الأولى للحرب. هذه الأزمة، التى تمت السيطرة عليها فى النهاية، لأن إسرائيل سمح لها أن تتعامل مع كل جبهة على التوالى. لقد سمعنا الجنرال ديان فى تقريره عن الوضع على جبهة القناة فى٩ أكتوبر، فى الوقت الذى كان السوريون مازالوا يحتلون هضبة الجولان إنَّ قواتنا تم توزيعها بشكل دفاعى، وهى بصدد إقامة خط لاحتواء المصريين، حتى يتغير الوضع خلال الأيام القليلة القادمة، لقد تم إخلاء مواقع خط بارليف الحصينة بشكل جزئى، بنظام فى جانب وبدون فى جانب آخر. لا يوجد خط من المواقع

الحصينة (الآن). وآمل أن يكون الجنود الذين أداروها قد خرجوا، أو سيخرجون الليلة. أما الآن فقد انتهى دور الخط؛ نحن لا نستطيع الحفاظ على تواصل منتظم مع الخط، ولذا فقد نفضنا أيدينا منه...

هذا الذى ذكرته له دلالات كثيرة، اثنان منها واضحان «الأول» كشف للعالم كله أننا لسنا أقوى من المصريين..، والثانى، أننا إذا كنا غير قادرين على رد المصريين، فسيواصلون تجميع قواتهم ودباباتهم على هذا الجانب من القناة والسؤال هو- وماذا بعد؟ وبحسب رؤياى، فهناك مرحلتان أو ثلاث مراحل هنا: لا يخامرنى أى شك فيما إذا كان المصريون سيقومون بهجوم بقواتهم الأدنى ، ولو أننى غير متأكد فى ذلك، إلا أننا سنقوم بنشر قواتنا بطول خطوط جديدة، ومحتمل أن نضطر لإقامة خطوط أقصر، لكن أكثر مواءمة مع خطوط طبوغرافية يمكننا المحافظة عليها بشكل أفضل. هذه الخطوط قد تقع فى مكان ما من المنطقة الواقعة بين ما يسمى ممر متلا وقناة السويس. ولما كان الطريق مفتوحاً أمام المصريين لعبور القناة نحو الجنوب، إلى أبو رديس تجاه شرم الشيخ، فعلينا سؤال أنفسنا أيضاً، ماذا يمكن أن يحدث إذا حاولوا الإتجاه جنوباً- أين سنوقفهم؟ قائد سلاح الطيران، تحدث عن طابور مدرع مصرى بدأ فى التحرك جنوبًا، ذكر ٥٠ مركبة، كلها أو البعض منها دبابات، تلك التى تعامل معها سلاح الطيران. لكننا لا نستطيع الاعتماد على سلاح الطيران لكى نمنع المصريين من الهجوم تجاه الجنوب؛ وحتى إذا اضطررنا لإقامة خطوط جديدة، فلستُ على ثقة من استطاعة قواتنا الاحتفاظ بها- كان هذا تقرير الجنرال ديان فى ٩ أكتوبر، أدلى به فى إيجاز سراً لرؤساء تحرير الصحف اليومية الإسرائيلية، ولم تكن للنشر، لكن لوضعهم فى الصورة (فى الحقيقة، هذا البيان الذى طرحه وزير الدفاع الإسرائيلى لم يسمح بنشره لمدة تزيد عن ثلاثة أشهر لاحقة- فى ١٥ فبراير ١٩٧٤). وإذا كان ديان العبقرى يتكلم هكذا، فالاستنتاج السليم، أن معنويات القيادة العامة فى تل أبيب متدنية، ومؤسسة على عاملين- حسبما كشف اللقاء: أن الإسرائيليين كانوا يخططون للانسحاب إلى الأرض المرتفعة فى منتصف سيناء فى حالة هجوم المصريين من رأس جسرهم على الضفة الشرقية؛ وحيث إن سلاح الطيران الإسرائيلى متورط بقوة فى سوريا، فيكون فى وضع غير حاكم فوق شبه الجزيرة السيناوية فى هذه المرحلة. وبشكل

ما، ليس حاكمًا بشكل كاف للتصدى لاندفاع مصرى من رأس الجسر، حتى بقوة لواء (رغم حقيقة أنهم قاموا بذلك قبلها بيومين). ويبدو أن المصريين قد فاتهم فرصة فى فترة ١٢/١١ أكتوبر؛ فلو قاموا بالهجوم وقتها (وهذا واضح من الأوراق) أن كان بإمكانهم التقدم إلى خط الممرات- ليس لأن مثل هذا الهجوم فى العمق كان ضروريا لإنجاز هدفهم الحربى، لكن لأن شن هذا الهجوم كان سيجبرهم على سحب احتياطى طيرانهم ومدرعاتهم من الجبهة الشمالية إلى الجنوبية فى وقت يكون بمثابة الخلاص للسوريين. ودفاعًا عن المصريين، فيجب - على كل، أن نوضح أنه لم يكن ممكنًا افتراض- على ضوء ما سبق ذكره عن إسرائيل التى لا تقهر لسنوات عديدة ماضية أنْ نجد القوات المسلحة الإسرائيلية نفسها، وقد انقلبت موازينها؛ جهاز مخابرات جيد، ذلك الذى يستطيع أن يستنتج أن مثل هذا الوضع أصبح قائمًا. بخلاف الإسرائيليين، الذين يملكون همزة وصل مخابراتية متوحدة مع الأمريكان، وميزة الإطلاع يومًا بيوم بواسطة أقمارها الصناعية، فى الوقت الذى كانت المخابرات الميدانية المصرية لا تحصل على مثل هذا الدعم من الروس. وبقدر ما كان الإتحاد السوفيتى ملتزمًا بتقديم المعونة المادية للعرب، إلا أن علاقاته بالمصريين كانت متأثرة عكسيًا بعد أن طرد الرئيس السادات المستشارين الروس فى يوليو ١٩٧٢؛ بعدها، ورغم استمرار الروابط الطيبة، وتسلم معدات مثل سام ٦ وأخرى متقدمة، لم تكن المساندة المخابراتية متآلفة بسبب الخلافات الأيديولوچية الأساسية، حتى إذا أعملت، فكانت المرة الوحيدة، عندما قام الإسرائيليون بشن هجمومهم عبر القناة، وكان تواجُد المستركوسيجين فى القاهرة السبب فى أن يتسلم الرئيس السادات صورة حقيقية عن ما هو حادث فى منطقة الدفرسوار. نقد آخر وجه لجهاز المخابرات الميدانى المصرى، أن الخبرة المعرفية لم تكن كافية، بل طرق الفحص والتمحيص وكذلك البث والنشر، وفى هذا يمكن أن تحمل قيادة الجيش جانباً من اللوم. كان هذا واضحًا عندما قامت إسرائيل بعمليتها «غزال». أثناء قيام مصر بهجومها المشهود بعبور القناة، كانت التصرفات القيادية فى غاية الكفاءة. ففى أمر خاص للقوات، وضعت القيادة العامة خطوطًا إرشادية يتبعها جميع القادة، قادة الألوية، بخلاف التدريبات العادية، يجب يكونوا فى مقدمة الخطوط المهاجمة. القادة برتب مقدم وعقيد، يتعين عليهم الانتقال إلى

الوحدات المتقدمة فى ظرف ١٥ دقيقة من ساعة الصفر، اللواءات عليهم التواجد على الضفة الشرقية خلال ٤٥ دقيقة فى ساعة الصفر. على قادة الجيوش إقامة مراكز قيادة تكتيكية على الضفة الشرقية خلال ٩٠ دقيقة فى ساعة الصفر. وقتها نجح التنظيم القيادى؛ القيادة أثناء مرحلة الهجوم كانت فورية وملهمة، بمجرد إقامة رأس الجسر، وصارت المعارك متكافئة، أصبح من الممكن أن تتحول تصرفات القيادة إلى تقاليد الحرب الثابتة التى اعتاد عليها المصريون لسنوات عديدة. كان من العسير دائماً معرفة وسائل الاتصال الداخلية الضرورية التى يمكن بواسطتها الإتصال بالقائد عند أى مرحلة من مراحل المعركة المختلفة، مثلما فى أى حرب أو صراع أو أثناء احتدام معركة، فأفضل مكان يستطيع القائد الحصول على المعلومات المؤكدة، وبذا يتخذ القرارات السليمة، هو مركز قيادته :فلديه هناك رؤية واقعية كاملة لكل التشكيلات أو الوحدات تحت قيادته فى نفس الوقت، فهو لا يستطيع الإحساس بالمعركة، أو يقدم ميزة مشاركته الشخصية أو دعمه المعنوى لمرؤوسيه، إذا ظل بعيداً عن تشكيلاته الأدنى. فلا يوجد إلا طريق واحد عند تجاهل الزيارات الميدانية للمناطق المتقدمة، وعندما يكون غائباً عن لوحة المعركة لمدة طويلة، فيجب أن يبقى على نهر من ضباط الأركان ومن ضباط الإتصال رائحين راجعين، حرصاً على الاتصال بالتشكيلات الأدنى والأعلى للقيادة. فى هذه الحالة، التغير فى الأوضاع يتم توصيله للقائد بطريقة أسرع من القنوات المعروفة. فى معارك الدفرسوار، كان التأخر فى معرفة الوضع الصحيح، وفى تمريرها للخلف والاستجابة فى الزمن المناسب، بين على أن هذه الإجراءات غير الشكلية للتصرفات القيادية لم تستخدم، أو ربما بعد أن تم إرساء رأس الجسر، والإحساس بالرضى.. فقد فعلناها.. قد ترسب، أن تحول النظام إلى سلوك وظيفى وتدرج قيادى إنعزالى. من الدروس المستفادة فى هذه الحملات ، أن الإسرائيليين تعلموا أيضاً؛ وصدمهم بشدة حرمانهم من السيطرة الجوية من الأرض. ومن المحتمل، أن تظل هذه الحقيقة لفترة محدودة من عمر التطور التكنولوچى، مثل الدروس المأخوذة عن سلامة نظرية تسيد الدبابة لميدان المعركة. كلتا النظريتين اختبرت بشكل متلاحم، وتم بحثهما بواسطة القوات المسلحة للقوى العسكرية فى العالم . المخابرات الإسرائيلية، رغم الدعم الفائق التطور الذى حصلت عليه، رسبت بشدة فى

تقديراتها؛ كانت لديها الحقائق، عرفت أن العرب ، خصوصاً المصريين، لديهم المقدرة على شن الهجوم. كانت لديها أدلة ثابتة عن الاستعداد العسكرى على كلتا الجبهتين، ومع ذلك، فكانت تتسلط عليها فكرة تفوقها العنصرى، ومفهوم تدنى معنويات العرب، لدرجة فشلها فى تحديد النوايا العربية. لقد اعتمدت بشدة على فروض، أسفرت عن ذهولهم بالمفاجأة العربية. لكن أيضًا حرمانهم فى فرصة استعادة توازنهم لمدة طويلة. الحرب العربية الإسرائيلية فى ١٩٧٣ ، دارت على مستوى عال من التكنولوچيا، بخلاف أى من سابقتيها؛ تم تجربة العديد من أنواع الأسلحة والمعدات المعقدة، خضع لاختبارات دقيقة لمعرفة الدروس المستفادة منها مستقبلاً. كلمة احتراز، تعتبر ضرورية فى هذا المجال التقدم التكنولوچى يمكن أن يتسارع، وفى فترة تخافت عالم أبحاث السلاح فلا توجد طريقة لفرضية أى نجاحات حتى تندلع حرب أخرى؛ من الضرورى لذلك، تجنب الوثوب إلى استنتاجات قائمة على تجارب مكتسبة فى حرب ١٦ يوماً. مثلاً من السابق لأوانه، استنتاج أن نجاح صواريخ سام كغطاء للدفاع الجوى قد قلل من مستوى دور الطيران الاعتراضى ، حسب ما قيل. حقيقة أن صواريخ سام تمكنت من الفانتوم الإسرائيلى، وأن السبيل الوحيد لتحيدها كان بالتحرك الأرضى (مثل عملية رأس جسر الدفرسوار) . عموماً فالأمريكيون يقومون الآن بإجراء تجاربهم على صاروخ سام ٦ التى استولى عليها الإسرائيليون، بينما يقوم خبراء الفانتوم بإعادة تكثيف الرادارات الداخلة بها. بالمناسبة، نظام غطاء الصواريخ المتشابك، كالذى أقيم فوق منطقة القناة، من الممكن إقامته فى مناطق محصورة، أو لحماية أهداف مميزة، مثل مجتمعات العواصم أو المطارات، أما فى أماكن أخرى فى العالم، قد تستخدم فيه هذه الأسلحة مستقبلاً، كأوروبا، روسيا أو جنوب آسيا، فالطيران الاعتراضى قد يجد مجالاً أوسع للمناورة. ضعف مناعة الدبابة فى ميدان المعركة، كان مفاجأة أخرى فى حرب ١٩٧٣ . كانت الصواريخ المضادة للدبابات يجرى تطويرها طوال عقدين من الزمان تقريباً، وتمت تجربتها فى المعارك مرات عديدة مسبقاً، فى غرب آسيا، فيتنام وفى عام ١٩٧١ فى الحرب الباكستانية الهندية، دون أن تسبب أى تغييرات مفاجئة فى التكتيك، أما فى حرب أكتوبر، عموماً، جاءت الصواريخ المضادة للدبابات معبرة عن نفسها لسببين، الأول، لنجاح التكتيك المصرى باستخدام

مجموعات حملة الصواريخ ضد الدبابات، والثانى، المدى الذى مكن من استخدامها فى معارك الدبابات ضد دبابات. فقد بدا أن قادة دبابات إسرائيل والعرب، كانوا يفضلون القضاءعلى دبابات العدو بالصواريخ. على سبيل المثال، كشف الأمريكيون أن العرب دمروا حوالى ٨٤٠ دبابة، وأن أثقلها، كان نتيجة إستخدام القنابل الصاروخية بالقاذف R.P.Gوساجر «ميلوتكا» و « SNAPPER» الموجهة . ومع أنه لم يتم الكشف عن خسائر الدبابات السورية إلا أنه معروف أن معظمها أصيب بصواريخ إسرائيلية، رغم أن مدافع الدبابات الإسرائيلية، يتفوق مداها عن العربية، ولذا تمكنت من الصمود أمامها. وبالنظر إلى نجاح استخدام الصواريخ المضادة للدبابات، صار مستقبل دور الدبابات فى الحروب تحت الإختبار بواسطة الخبراء؛ البعض اقتراح أن الدبابة صارت متقادمة. قال المستر إيان سمارت – نائب مدير المعهد الملكى للشئون الدولية فى لندن– إنَّ نجاح الصواريخ الروسية، أعطى جندى المشاة الثقة فى أن يصبح مالكًا القدرة على قتل دبابة مهاجمة، بقذيفة واحدة قبل أن تتمكن من استخدام سلاحها. لقد أثبت المصريون يقيناً، أن الهجمات التى قام بها أفراد فى أوضاع عسكرية متكافئة، يمكن تحدى هيمنة الدبابة بقوة. وهذه المرة قد تكون أكثر من مرحلة أخرى تدق فيها أجراس المعركة، لمن تكون له السيادة بين الدبابات والمدافع المضادة للدبابات، والتى ظلت دائرة منذ بدأت حروب المدرعات؛ إنها أجهزة التوجيه فى الصواريخ، تلك التى جعلتها مختلفة عن الأسلحة الأخرى المضادة للدبابات ومنها المدافع غير القابلة للارتداد. ففرص القتل من أول طلقة أكبر بكثير، وستتزايد الفروق لصالح الصواريخ كلما استمرت أنظمة التوجيه لتصبح أكثر تعقيدًا. لذلك، فالأكثر احتمالاً أنه عند البدء فى شن أى هجوم ضد دفاعات ثابتة أو أهداف أرضية أخرى، فستتحول مهام الدبابات فى المستقبل إلى داعمة أو تابعة، عن قيامهابالجانب القيادى.

سيعنى هذا تغيرًا فى التعليم التكتيكى، طالما وضع التعاون الدبابائى– الفردى موضع الاعتبار؛ وإذا كانت التجربة مع الصواريخ الموجهة قد شكلت اختلافًا كبيرًا فى استخدام المدرعات لدورها التقليدى، فمازال هذا محل جدال. المدرعات فى طور التعبئة تتطلب الحركة، لا القتال، فيما عدا حالات شرود التكتيكات المدرعة، مثلما درست بواسطة

البريطانيين فى الحرب العالمية الثانية، عندما خرجت تشكيلات الدبابات سعيًا وراء تشكيلات أخرى معادية، للدخول معها فى معركة مواجهة، فالمعارك التصادمية ليست هى المرغوب فيها للتشكيلات المدرعة، وعندما يعهدون إلى الخاصية الجوهرية للتعبئة، فيجتهدون فى القيام بإكتساح مدرع عميق لجناح أو مؤخرة العدو. فى هذه الأطوار تصبح هيمنة الدبابة عسيرة على أى تفوق مضاد للدبابات ليتحداها، فيما عدا إذا كانت الأسلحة المستخدمة ضدها هى الصواريخ الموجهة. لم تتح للإسرائيليين الفرصة لإثبات نظريتهم فى هذه الحرب؛ لكن العملية «غزال» قدمت ملمحًا لفعاليتها بعد أن توفرت لها الحماية الجوية ومجال المناورة؛ لذا ، حتى لو تخلفت تكتيكات المدرعات، فمن المسلم به، أن الدور الكلاسيكى للمدرعة لم يندثر بعد. نجاح تكتيك الصواريخ المحملة بأفراد على جبهة قناة السويس، تدين كثيرًا لتصميم الوحدات التى قامت بتنفيذها. وقد سبب هذا العامل أكبر المفاجآت للإسرائيليين. وبالرجوع إلى أسرى الحرب المصريين العائدين، ذكروا أن آسريهم فى إسرائيل تأثروا بشدة فى معنويات وتصميم المشاة المصريين، حتى أنهم قاموا بدورات إستجواب عقابية، محاولين معرفة عما إذا كان الجنود المصريون قد تناولوا نوعًا فى الحبوب «المنشطة» ، تجعلهم يقاتلون بشكل أفضل. سئل الضباط الأطباء المرة تلو المرة فى هذه المسألة. مؤكد ، أنها تتطلب روحًا معنوية عالية، وتدريبًا لفرد المشاة أو الراكب، ليواجه القوة الغاشمة والميكانيكية المرعبة للدبابة فى معركة مكشوفة. فحتى بعد أن يصيب صاروخه الهدف، إلا أنه يبقى تعرضه لنيران مدافعها الرشاشة، أو شدة انفجار القنابل التى تحملها. عند استخدام صواريخ .R.P.G، فعلى الفرد المشاة الاقتراب لبضع مئات من الأمتار من الدبابة المهاجمة قبل أن يفتح عليها نيرانه. وبالنسبة للقنابل اليدوية المضادة للدبابات، فيتعين أن تكون الدبابة على بعد عدة أقدام من القاذف. مع ذلك، كان هذا هو ما قام به فرد المشاة المصرى خلال الساعات الأولى للحرب.. وبنجاح ملحوظ. حظيت الدروس المستفادة من هذه الحرب التكتيكية والمنظمة، باهتمام ملحوظ من خبراء ودارسى الخدمة العسكرية. والأمر الذى فاق كل اهتمامهم ، هو التنفيذ الاستراتيجى العربى. سيظل النقاش دائرًا عن من الذى أحرز نجاحًا عسكريا أكبر، هل كانت إسرائيل تسعى لنصر حاسم، عندما جاء قرار وقف إطلاق النار الثانى، أو أن

العملية «غزال» تعد مجازفة انتهازية أعطت بسخاء فى إطار الزمن المحدود، عندما يكون السؤال عن الأراضى المكتسبة والخسائر التى نتجت عنها هو الذى يقرر.. من الذى فاز حقيقة بالحرب؟ يمكن أن يكون التعليق المنصف على مثل هذه الأسئلة، أن تكون الإجابات محدودة النظرة كالأسئلة. فليس فى تحريك القوات أو صلصلة الأسلحة، حتى يتعين على المرء أن يبحث عن الدلالات الحقيقية لحرب ١٩٧٣ . الهجوم العربى، أنجز جميع الأهداف السياسية والاستراتيجية التى وضعها الرئيس السادات لنفسه وللعالم العربى، عندما قرر أن لا بديل عن الذهاب إلى الحرب. سياسيا .. هذه «الشرارة» نجحت بالفعل فى تحريك سلسلة من ردور الفعل التى أرادها فى غرب آسيا. فمن تشرذم وأختلاف العالم العربى، بزغ الاتحاد والقيادة الفاعلة بليل، فمنذ قرون مضت، لم يحظ التاريخ العربى بدول عربية متضامنة، مثلما أعقب العملية «بدر»، لأنه بنجاحها أصبحوا قادرين على استعادة فخرهم المفقود، والشرف الذى لم ينجحوا فى العثور عليه طوال ٢٠ عاما تقريبا. حتى ٦ أكتوبر، كانت كل آمالهم فى استعادة أراضيهم المفقود بائسة، وكان عدم اهتمام القوى العظمى والظلال القاتمة عن جيش إسرائيل الذى لا يقهر مجتمعة، ترسم لهم صورة قاتمة للمستقبل، أحدها، عقم عاجز وقبول لخطط إسرائيل لاستيطان يهودى لأراضيهم. اليوم، يتذوق العرب طعماً جديدا للقوة، ليس بسبب أن حرب أكتوبر أعادت مشكلة غرب آسيا على قائمة الأزمات العالمية، لكن أيضا، بسبب المكانة التى يستطيعون استخدامها فى الشئون الدولية نتيجة لاستراتيجيتهم البترولية. فالآن فقط، بعد اللجوء الفعلى إلى الحظر البترول، أدركو قدراتهم، وقاد ذلك إلى صحوة عربية تتخطى قيمتها أى مكسب عسكرى يدعيه أى طرف. فى وجهة النظر الاستراتيجية، أن ما قامت به حرب أكتوبر، هو دحض النظرية الإسرائيلية عن «العمق الاستراتيجى» «والحدود الامنة». بالهجوم عبر قناة السويس، وتحطيم خط بارليف بهذه السهولة؛ فقد نسف المصريون الجدل الإسرائيلى عن تأسيس أمنها على التوسع؛ فقد أثبتوا أنه فى مواجهة الحدود الموسعة الإسرائيلية، فتصميم العرب وقدرتهم على غزو الأراضى التى استولت عليهم إسرائيل سيتسمر فى تهديد الأمن الإسرائيلى. ويبقى الحل، ليس فى استراتيجية التوسع، لكن فى التصالح. وبالرغم فى الجدل المعارض الذى قدمته الحكومة الإسرائيلية،

فعواقب الحرب كانت أكثر من أى وقف سابق، ودلت على أن مباحثات سلام فى غرب آسيا ليست عسيرة لإرسائها. الإنجاز العربى أرسى شعبية كافية للقيادة المصرية، التى تستطيع بمفردها قيادة الأمة العربية، عبر المواقع النفسية لقبول حق إسرائيل فى الوجود. الرئيس السادات يدرك أنه بدون هذا القبول، فلا أمل فى حل نهائى للصراع فى غرب آسيا. مصر قادت العرب فى حرب، تلك التى وحدتهم كما لم يحدث فى التاريخ الماضى القريب.

وقوة الدفع التى أطلقت بالتطورات التى تلت، تعطى المصريين والقادة العرب الآخرين الفرصة للوصول إلى تسوية دائمة فى غرب آسيا.

تم بحمد الله

العودة إلى سيناء
الحرب العربية الإسرائيلية فى ١٩٧٣

تأليف اللواء د . ك . باليت

هذا السرد التفصيلى لحرب ١٩٧٣ العربية الإسرائيلية، يشرح وجهة النظر المبررة لقيام هذه الحرب، وقد كتب بعد جولة استغرقت ستة أسابيع على جبهات القتال فى نهاية ١٩٧٣ بعناية الجامعة العربية ومكتب الشئون الخارجية الهندية.

يعتبر اللواء باليت، خاصة، على كفاءة عالية قادرة على تقديم تحليل مفيد، إنه يفهم الطبيعة العربية، وتعقيدات القيادة العسكرية، لتنقله بين الرتب المختلفة أثناء عمله كملحق عسكرى لبلاده فى العالم العربى، وكمدير للعمليات العسكرية بالجيش الهندى. أول كتبه: «ضرورات المعرفة العسكرية ١٩٤٧» ويعد مرجعا رئيسيا بمعاهد الكومنولث العسكرية، ومن وقتها اكتسب الاعتبار كمؤلف وكمعقب. آخر أعماله: «الحملة البرق» وهو سرد تفصيلى للحرب الهندية - الباكستانية، وصدر فى عام ١٩٧٢.

المترجم

محمد شفيق زيد

مكتبة مدبولي

MADBOULI ***BOOKSHOP***

٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ ت: ٥٧٥٦٤٢١

6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421